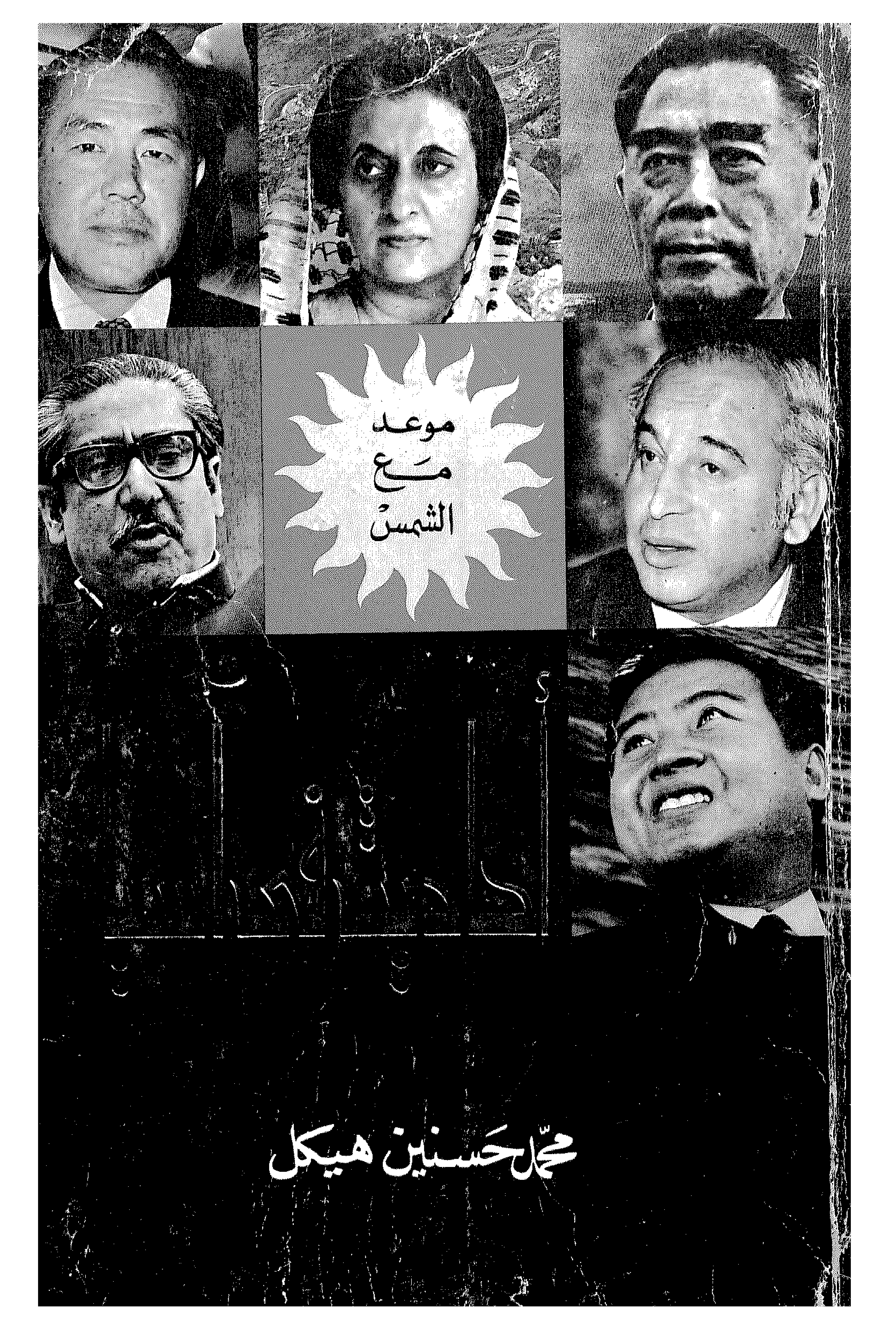

موعد
مع
الشمس
محمد حسنين هيكل

اهداءات ٢٠٠١

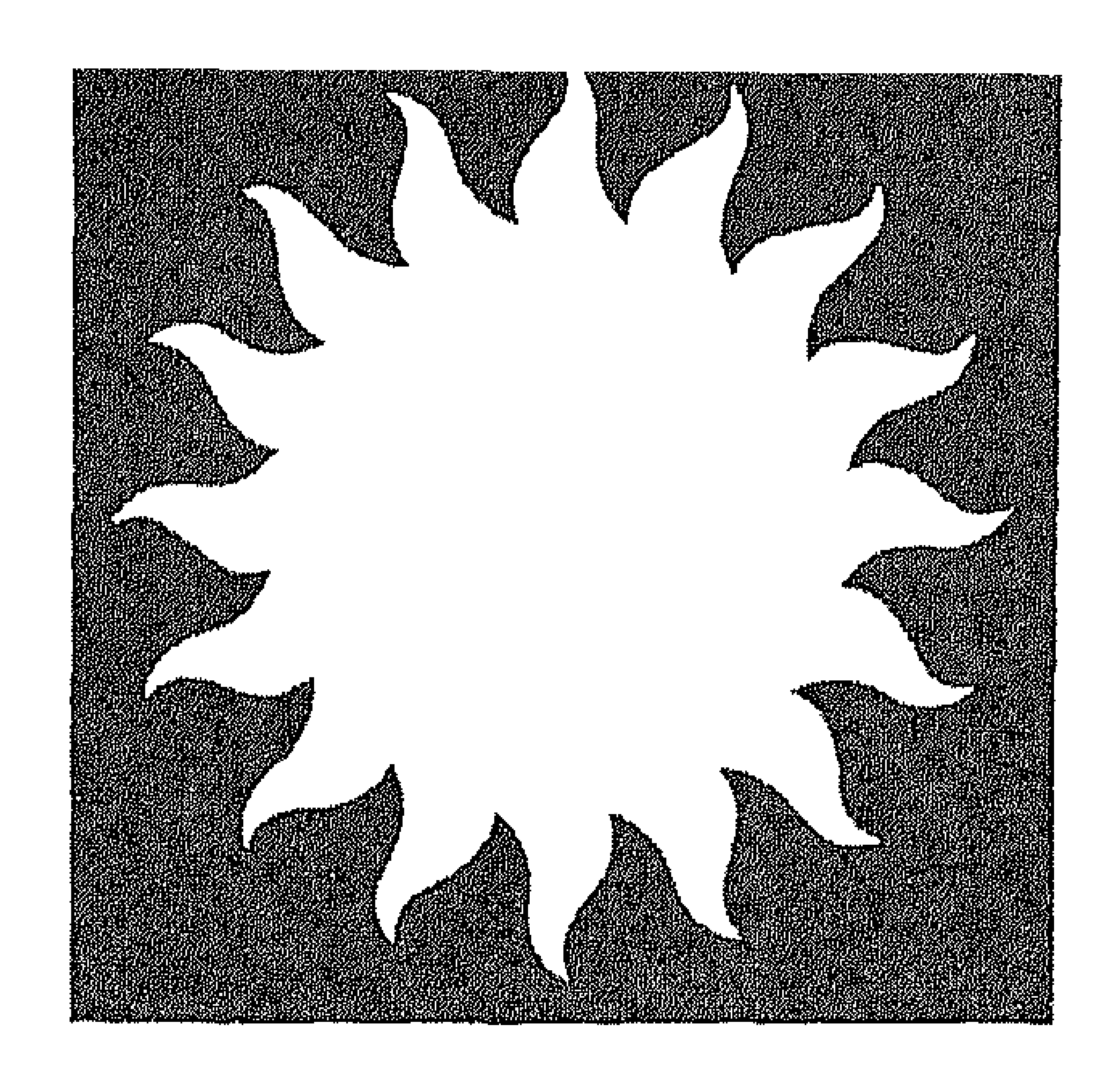
ا.صلاح راتب

القاهرة

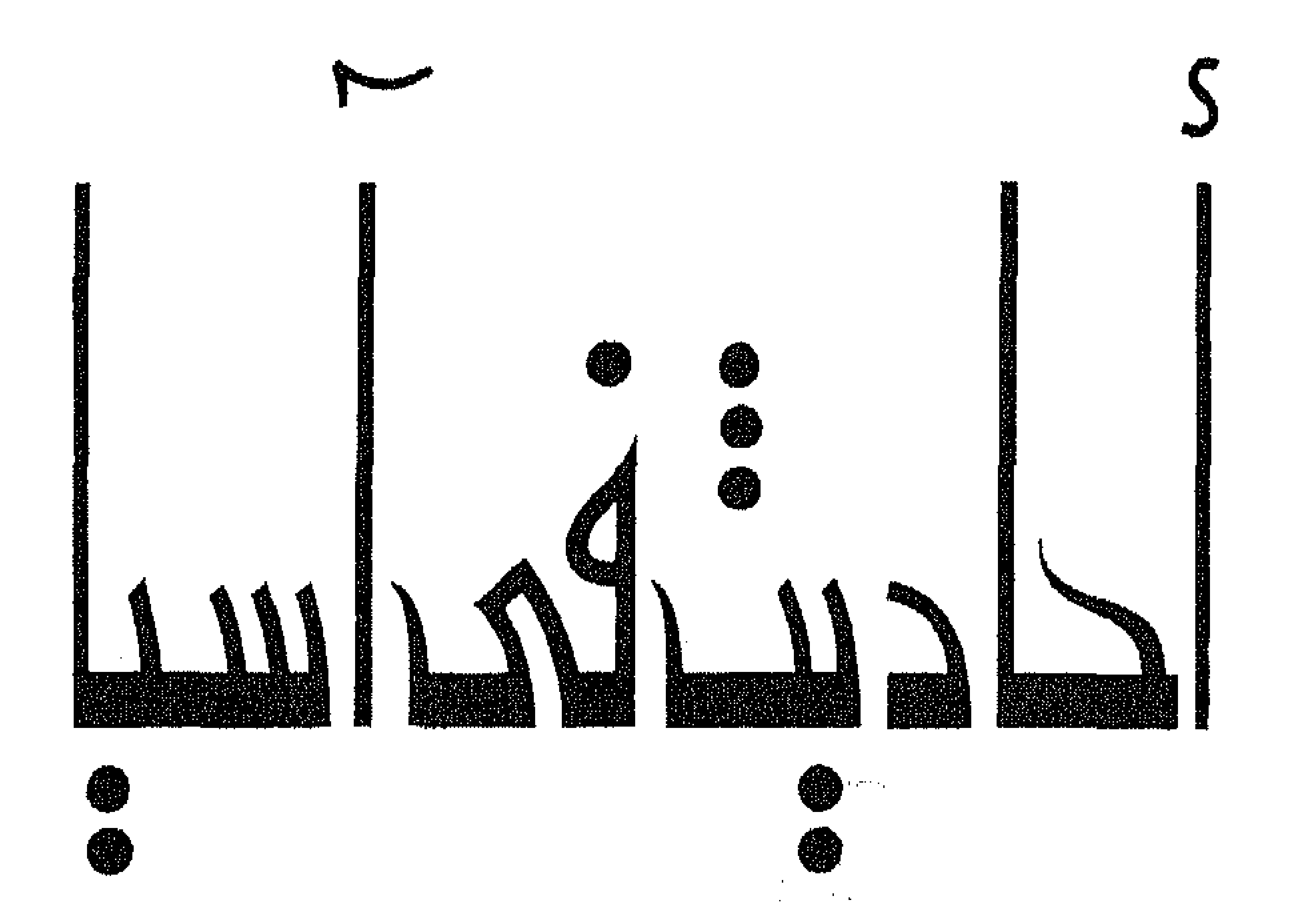

أحاديث في آسيا



دار المعارف - لبنان



مَوعدٌ مع الشّمس



أحاديث في آسيا

محمّد حسنين هيكل

الغلاف والإخراج الفني

عبد السلام الشريف

الفهرس

مقدمة

في بداية هذه السنة ـ ١٩٧٣ ـ أتاحت لي الظروف أن أقوم برحلة إلى آسيا استغرقت شهراً كاملاً .

كانت أحداث القارة الكبيرة في السنوات الأخيرة أبرز أخبار الصفحات الأولى في جرائد الدنيا كلها :

الصراع الصيني السوفيتي ـ اليابان تصعد إلى الذروة الصناعية في العالم ـ الصين تصبح دولة نووية بثمانمائة مليون إنسان يعيشون على أرضها ـ بؤرة الصراع العالمي تنقل بسرعة إلى الشرق الأقصى حيث تلتقي عبر المحيط الهادي أربع من الدول الأعظم في هذا الزمان ، وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين واليابان ... تلتقي واحتمال المواجهة فيما بينها ـ الثورة الثقافية في الصين ـ انفجار في شبه القارة

الهندية تستقل به البنغال الشرقية تحت اسم بنجلاديش وتنشب فيه الحرب بين الهند وباكستان ـ ريتشارد نيكسون يطرق باب الصين ويذهب إليها زائراً .

لقد تغيرت الخريطة في آسيا سياسياً ، بل وجغرافياً . منذ آخر مرة ذهبت فيها إلى الشرق ، وجاء الوقت لنظرة جديدة في عالم حافل بالمتغيرات .

وركبت طائرة على خط مباشر من القاهرة إلى شنغهاي .

وزرت الصين ، وبعدها اليابان ، ثم بنجلاديش . ثم الهند ، وأخيراً باكستان .

والتقيت بشواين لاي رئيس وزراء الصين . وتاناكا رئيس وزراء اليابان ، والشيخ مجيب الرحمن رئيس وزراء بنجلاديش ، وأنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند ، وذوالفقار علي بوتو رئيس جمهورية الباكستان .

التقيت أيضاً مع الأمير سيهانوك الذي يقود كفاح شعبه في كمبوديا من منفاه في الصين ، والتقيت أيضاً مع موبوتو رئيس جمهورية زائير ـ الكونجوكينشاسا ـ وكان يزور الصين في موعد تصادف مع وجودي فيها .

التقيت أيضاً ـ عدا هؤلاء جميعاً ـ مع عشرات من وزراء الخارجية والدفاع والتخطيط وقادة الجيوش وأساتذة الجامعات والصحفيين في كل بلد ذهبت إليه .

طوال شهر كامل كنت أسمع وأقرأ وأتحدث وأسجل خواطر وملاحظات ، ولم أكتب شيئاً للنشر لأني كنت أريد أن أستوعب صورة كاملة تسمح لي عندما أعود أن أقدم تقريراً عن رحلة آسيوية تمنيت أن تكون مفيدة لغيري بمقدار ما كانت مفيدة لي .

. . . . .

. . . . .

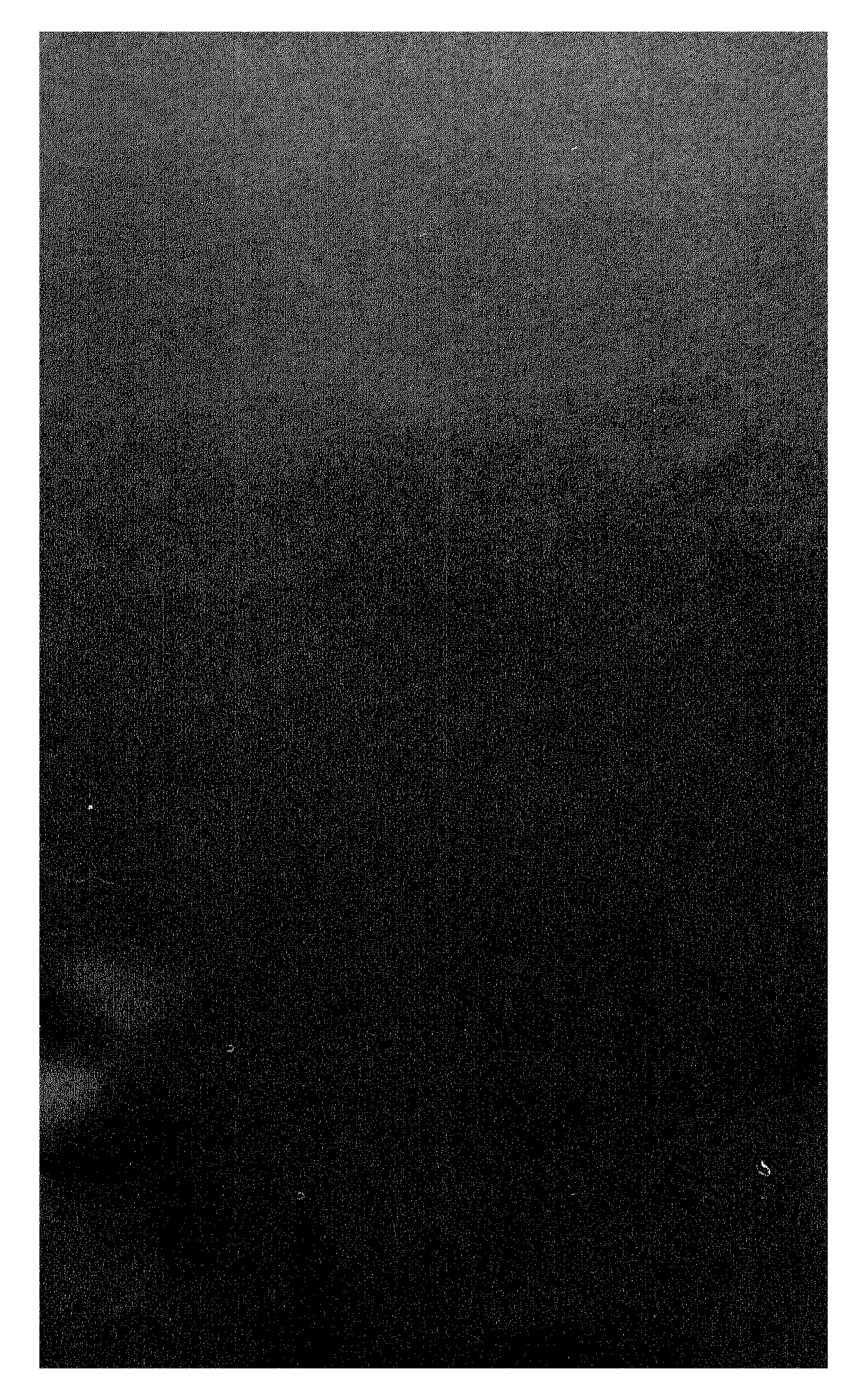
بقي أنني مدين بالفضل لكثيرين .

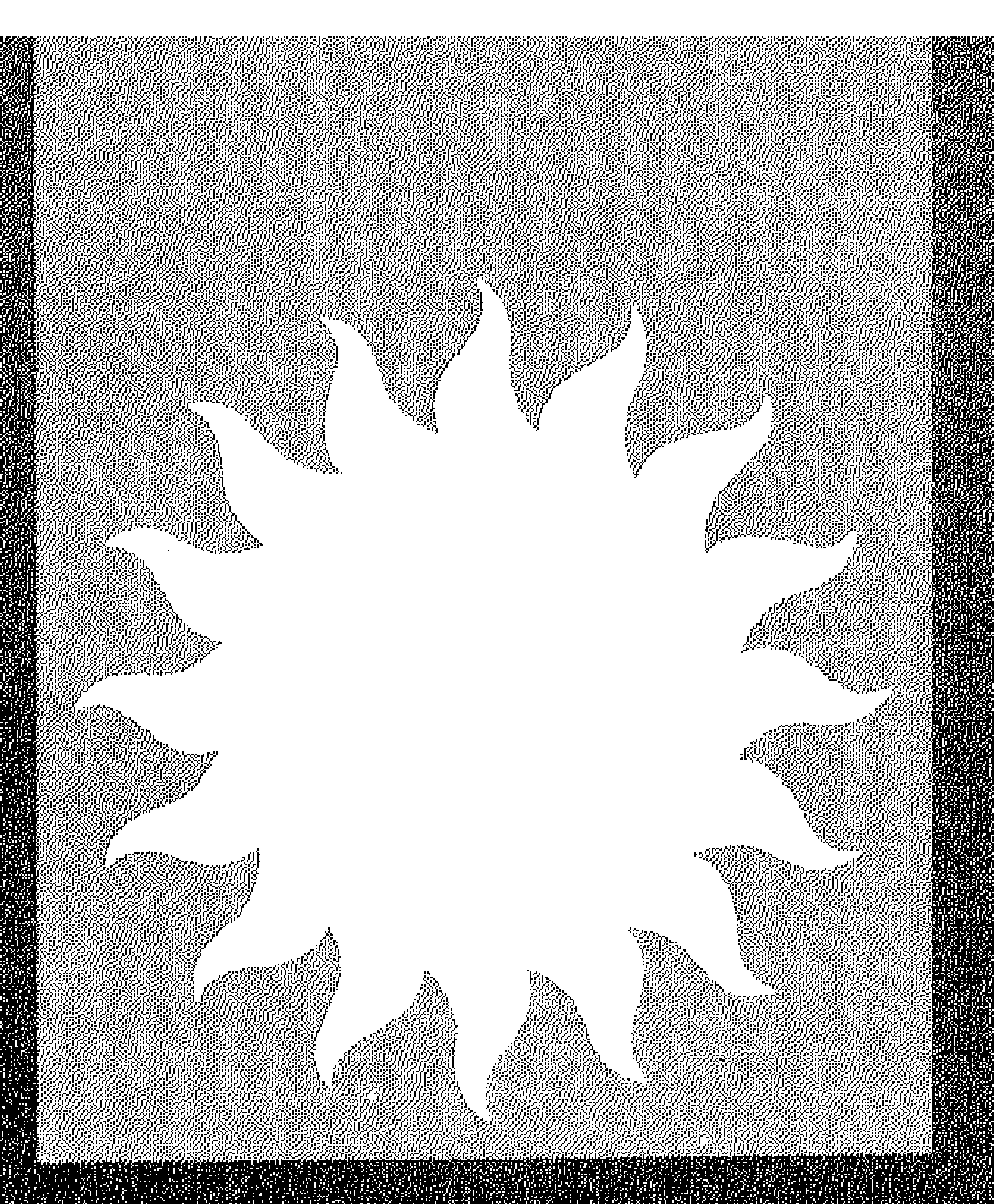
مدين بالفضل لكل الذين أعطوني من وقتهم وفكرهم كما طلبت وتحدثوا معي بغير قيود وتركوا لي حرية الاختيار .

مدين بالفضل لزملاء وأصدقاء كان لي شرف صحبتهم في تلك الرحلة وكان بين أهدافي منها أن يتاح لجيل جديد من الشباب أن يروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم .

مدين بالفضل لكثيرين فاق اهتمامهم بما كتبت ونشرت عن هذه الرحلة ما كنت أقدره لها .

مدين بالفضل للذين رأوا أن ما نشرت من تقارير عن هذه الرحلة يمكن أن يوضع بين دفتي كتاب .





مَوعدٌ مع الشّمس

نظرة طائر على آسيا

لقد دفعتني مجموعة أسباب متعددة إلى السفر من الشرق الأوسط ومشاكله ، إلى الشرق الأقصى وصراعاته ...

. . . .

. . . .

ولعلي أقول إن الرحلة إلى الشرق الأقصى كانت في بالي منذ وقت طويل .

ولست غريباً على الشرق الأقصى ، فقد قصدته من قبل خمس مرات ، وتابعت فيه حربين تركزت عليهما اهتمامات الدنيا وقتها : حرب كوريا ، وحرب الهند الصينية الأولى ، ثم إنني تابعت فيه مؤتمراً كان ولا يزال علامة تحول بارزة في تاريخ حركة التحرر الوطني :

مؤتمر باندونج . وفوق ذلك ، فإنني كنت أعتبر نفسي تلميذاً شديد الفضول في دراسة قضايا الهند واليابان بصفة خاصة ، وكان في هذين البلدين شيء ما يستهويني ويشدني إليه باستمرار .

. . . .

. . . .

ولكنني انقطعت عن الشرق الأقصى منذ سنة ١٩٦٦ .

ومنذ ذلك الوقت ، كانت رياح التغيير تهب بشدة على الشرق الأقصى :

ـ الثورة الثقافية في الصين ، والقنبلة الذرية الصينية ، والقنبلة الهيدروجينية الصينية ، ثم ذلك المشهد المثير الذي ذهب فيه إمبراطور الغرب : ريتشارد نيكسون ، طارقاً على باب الصين فإذا الباب يفتح له ، وإذا هو في لقاء مع أسطورة الشرق : ماوتسي تونج ، الذي يعتبرونه في الصين مزيجاً من الإله والنبي والشاعر .

ـ تفجر النزاع الصيني ـ السوفيتي ، واتساعه بعد كل حد يمكن السيطرة عليه .

ـ ظهور القوة الاقتصادية الهائلة لليابان ، وحدودها وأبعادها .

ـ وقوع الحرب بين الهند وباكستان ، نتيجة لعوامل قديمة وجديدة ، أدت من قبل إلى انقسام باكستان نفسها ، وظهور بنجلاديش .

ـ اتجاه الحرب الفيتنامية إلى الحل ، بعد مأساة إنسانية حزينة ، كانت في بعض جوانبها ملحمة بطولية ، سجل بها الإنسان الفيتنامي مثلاً أعلى في صلابة الإرادة وقوة التصميم

كل ذلك وهو كثير ، وغيره وهو متسع ، جرى على الشرق الأقصى منذ سنة ١٩٦٦ إلى اليوم .

وهكذا جاءت الرحلة إلى الشرق الأقصى ، لشهر كامل ، أردته دراسة مكثفة واستيعاباً بالتركيز ، وكان ذلك ضمن أسباب انقطاعي عن الكتابة طوال هذه المدة ، وقد سئلت في أكثر من مكان ذهبت إليه :

« هل أكتب مقالي الأسبوعي تباعاً مع مراحل السفر ؟ »

وقلت :

« إنني آثرت الانتظار إلى النهاية ، لتكتمل الصورة لدي ، ولعلي بعد ذلك أستطيع نقلها متماسكة متكاملة » .

. . . .

. . . .

والرحلة إلى الشرق الأقصى بالطائرة « موعد مع الشمس » .

وقد اخترت طائرة تحلق على خط مباشر من القاهرة إلى شنغهاي ، وتتوقف في الطريق مرتين فقط : في كاراتشي العاصمة الاقتصادية لباكستان ، وفي رانجون العاصمة السياسية لبورما .

وكانت الساعة السادسة بعد الظهر ، عندما غادرت الطائرة مطار القاهرة الدولي ...

بعد أربع ساعات هبطت في كاراتشي ، وبتوقيت القاهرة فقد كانت الساعة العاشرة من الليل ، ولكنها بتوقيت كاراتشي كانت بعد ذلك بثلاث ساعات ، أي أنها كانت الواحدة بعد منتصف الليل .

وقابلنا الفجر على منتصف الطريق بين كاراتشي ورانجون .

كان الفجر قادماً من الشرق بسرعة دوران الأرض حول الشمس .

وكانت الطائرة قادمة من الغرب بسرعة ١٤٠٠ كيلو متر في الساعة .

لم يبق ظلام الليل من حولنا أكثر من خمس ساعات أو ست ساعات على أكثر تقدير .

وعندما وصلنا إلى رانجون ، كانت الساعة التاسعة صباحاً ... ولم تكن بشائر النور قد وصلت بعد إلى القاهرة .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كنا في شنغهاي ، وكانت القاهرة قد بدأت تستيقظ لنهار جديد .

كأن الرحلة بالطائرة إلى الشرق الأقصى بالفعل ـ كما قلت ـ « موعد مع الشمس » .

* * *

إن هذا الشعور الذي يصنعه الطيران مرة واحدة من الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى ، لموعد مع الشمس ، يعطي لهذه الأحاديث ـ عن رحلة إلى آسيا اليوم ـ مدخلها الطبيعي :

نظرة طائر على آسيا .

نظرة سريعة وشاملة ، تطل على الصورة كلها من ارتفاع شاهق ، وتستجلي المعالم الرئيسية فيها ، متجاوزة في ذلك كل عقبات الطبيعة ـ محيطات وبحار ، جبال وغابات ، أنهار وصحارى ـ متجاوزة أيضاً كل الحواجز الأخرى ، مما تصنعه اختلافات الأجناس والقوميات والعقائد والحدود السياسية .

معنى ذلك ، أنني أريد أن أبدأ اليوم بتقديم صورة عامة ، أقول بعدها :

ـ « هكذا بدت لي آسيا اليوم ، وهكذا رأيت ما يجري على أرضها ... والمنتظر » .

* * *

الملامح الرئيسية في هذه الصورة ، وبعين أو نظرة طائر كما يلي :

(١) لقد بدا لي صحيحاً ذلك القول الذي سمعته قبل عامين في باريس من « كوف دي مورفيل » رئيس وزراء فرنسا السابق على عهد شارل ديجول .

يومها ، في حديث طويل بعد العشاء ، وفي غرفة مكتبة زاخرة بنفحات العقل ، قال لي كوف دي مورفيل :

ـ « إنني أعتقد ـ وأظن أن الجنرال ديجول كان من نفس الاعتقاد ـ بأن بؤرة الصدام العالمي القادم أو المحتمل قد انتقلت بسرعة من أوربا إلى الشرق الأوسط ، ثم استقرت نهائياً في الشرق الأقصى ، وبالتحديد في المحيط الهادي » .

واستطرد كوف دي مورفيل :

ـ « إذا كنا نقول إن العالم الآن فيه خمس من القوى الأعظم هي الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، والصين ، واليابان ، وأوربا الغربية ، فلا بد لنا أن نتذكر أن أربعاً من هذه القوى الأعظم تطل على المحيط الهادي ، ويواجه بعضها بعضاً على ناحيتيه وفوق شواطئه :

هناك في الغرب : الولايات المتحدة .

وهناك وسط البحر : اليابان .

وهناك على الشرق : الاتحاد السوفيتي والصين .

هذه القوى الأربع الأعظم عمالقة في القوة الاقتصادية ، وفي التأثير والنفوذ السياسي .

ثلاث منها الآن بالفعل قوى نووية هي الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، والصين ...

واليابان قوة ذرية بمجرد لمسة على زر ، ومن الصعب على أحد أن يتنبأ متى يحدث ذلك ، وفي أي ظرف ؟.. ولكن الاحتمال قائم ! »

. . . .

. . . .

في شنغهاي وبكين ، في طوكيو وهونج كونج ، بدا لي ذلك القول الذي سمعته قبل عامين في باريس من كوف دي مورفيل صحيحاً بأكثر مما تصورت !

(٢) إن التوازن الدولي القائم الآن على استحالة الحرب بين القوى الأعظم لا يلغي الصراعات فيما بينها ، وهكذا فإن الصراعات تدور بين العمالقة الأربعة في آسيا ، وإن كانت أساليب الصراع قد تغيرت ، كما أن معظمه يجري تحت السطح عقائدياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً أيضاً .

وأتذكر خلال حديث طويل دام قرابة أربع ساعات مع شواين لاي رئيس وزراء الصين العتيد ، أنني سألته :

– « كيف ترى المتغيرات الرئيسية في العالم اليوم ؟ » وكان قوله :

ـ « انقسامات جديدة ... تحالفات جديدة ... ثم فوضى في كل مكان » .

وأعترف أنني لم أسمع وصفاً لحالة العالم المتغيرة الآن أدق من هذا الوصف الذي سمعته من شواين لاي .

والصورة العامة في آسيا شاهد على دقته :

ـ الحشود العسكرية من الصين والاتحاد السوفيتي ، برغم أن وحدة العقيدة الماركسية اللينينية ما زالت موجودة ، وخطر المواجهة محتمل ، ولو أنه بعيد عن التصور حتى الآن .

ـ منافسة بين الاتحاد السوفيتي والصين في اجتذاب اليابان ، وفي بداية سنة ١٩٧٢ بدا أن الاتحاد السوفيتي يسارع إلى التفاهم مع اليابان ، ولكن نهاية سنة ١٩٧٢ شهدت بزيارة تاناكا رئيس وزراء اليابان لبكين ـ تقارباً يابانياً وصينياً ملحوظاً بشدة ، يساعد عليه أن الحضارة اليابانية رافد من روافد الحضارة الصينية العريقة .

ـ اليابان تركز كل همها في النمو الاقتصادي ، وتحاول حتى الآن ـ بجهد جهيد ـ أن تقمع الدواعي والدوافع إلى أي دور سياسي ، وتفعل ذلك أحياناً بقسوة على النفس شديدة ، يقول معها أحد الساسة البارزين في اليابان :

ـ « نحن حيوان اقتصادي لا أكثر ولا أقل ... هكذا علمتنا تجربة الحرب النووية التي لم يتعرض لها من البشر غيرنا ... وليس في مقدورنا ـ ولا في نيتنا ـ أن ننسى هذا الدرس » .

ولكن أي مراقبٍ محايد لا يستطيع أن يقبل هذا القول على علاته ، لأن المنطق يقول بأن « كل قوة اقتصادية لا بد لها أن تعبر عن نفسها

سياسياً ... وبالضرورة عسكرياً » .

ـ الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت بعد انتهاء دورها في الحرب الفيتنامية ، في وضع أكثر ملاءمة لها .

لقد تخلصت من مأزق التورط العسكري على الأرض الآسيوية وعادت إلى الدور الطبيعي لها في آسيا ، وهو الدور الذي دعاها إليه بإلحاح ، عدد من مفكريها الاستراتيجيين العظام ، وأولهم « والتر ليبمان » ، وهو أن يكون وجودها في آسيا على الشواطئ فقط ، باعتبارها قوة بحرية فوقها غطاء جوي .

وهي هناك في آسيا الآن في وضع الانتظار ، تتحين فرصتها ، وسط الصراعات التي تجري وسوف تجري على الأرض الآسيوية ، وخصوصاً بين الصين والاتحاد السوفيتي .

. . . .

. . . .

ولكل واحد من العمالقة الأربعة في آسيا أسلوب في التأثير على الناس ، وفي كسب المواقع :

* الولايات المتحدة : تلعب بالصراع الصيني ـ السوفيتي ، وتلوح بالمساعدات العسكرية والاقتصادية ، والغريب أنها تركز الآن على فيتنام الشمالية ، التي زارها هذا الأسبوع « هنري كيسنجر » ، ومعه عروض بمساعدات لإعادة بناء دمار الحرب ، تصل إلى بلايين الدولارات .

* الاتحاد السوفيتي : مشغول بالخلاف مع الصين ، يعرض على كل دول آسيا معاهدات أمن مشترك ، وما يلفت النظر أن الاتحاد

السوفيتي عرض معاهدة أمن مشترك حتى على الباكستان التي ما تزال إلى الآن عضواً في الحلف المركزي ، وإن كانت قد انسحبت من حلف جنوب شرق آسيا .

* اليابان : تواصل حركتها في جنوب شرق آسيا ، وتحقق بالاقتصاد في السبعينات ، ما عجزت عن تحقيقه بالحرب في الأربعينات ، ووجودها في أندونيسيا ضخم ، وحجم مساعداتها للهند في العام الماضي وحده زاد على ۸۰۰ مليون دولار

* الصين : تتبع أسلوباً جديداً يقوم على العطاء بغير تعهدات بالسداد ، ومثلاً فإن رئيس وزراء اليابان « تاناكا » ذهب إلى بكين وهو مستعد لأن يدفع باسم اليابان تعويضات حرب للصين ، ولكنه فوجئ بشواين لاي يقول له :

ــ « إننا لا نريد تعويضات حرب ... لقد أغلقنا صفحة الماضي ، ونريد أن نفتح صفحة جديدة ؟ »

وأتذكر أنني سألت رئيس وزراء اليابان عندما قابلته :

ــ « كيف تفسر ذلك الموقف ؟ » وكانت إجابة رئيس وزراء اليابان إعادة لما سمعه في بكين ، وقال لي :

ــ « هم لا يريدون إثارة الماضي ... هم يريدون صفحة جديدة في العلاقات معنا » .

وفي مثال آخر ، فإن الصين تنشئ لباكستان اليوم فرقتين مدرعتين ، ولم تنتظر الصين حتى تسألها الباكستان عن التكاليف ، بل بادرت إلى القول :

ــ « إننا بالطبع لن نتقاضى ثمناً فيما سوف نقدمه لكم من المعدات » .

ثم يضيفون في بكين التفسير التالي :

ـ « إن الصين دولة اشتراكية ونحن لا نتصور أن تتحول دولة اشتراكية إلى تاجر سلاح ! »

(٣) إن الصراع الكبير على أرض القارة الآسيوية الآن هو الصراع الصيني ـ السوفيتي ، وهو صراع محسوس بشدة في كل ركن من أركان القارة ، بل في كل قرية من قراها .

وعندما قابلت شواين لاي ، لم يكن هناك سؤال وجهته إليه إلا ووجد فيه فرصة لينفذ إلى الهجوم على الاتحاد السوفيتي .

ولعلي أقول بغير تجاوز إن أعنف المشاهد في آسيا أخيراً ، وهو الحرب بين الهند وباكستان كان في ناحية من نواحيه ظلاًّ من ظلال الصراع الصيني ـ السوفيتي .

(٤) إن ثمة إحساساً بين بعض زعماء آسيا البارزين ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية تسرف كثيراً في الاعتماد على الصراع الصيني ـ السوفيتي واستغلاله،وأنها في هذا الصدد قد « تتمادى وتقلب المائدة على نفسها » ، وذلك هو التعبير الذي استعمله واحد من أبرز وأذكى زعماء آسيا وقد طلب مني صراحة ألّا أذكر اسمه إذا استشهدت بقوله .

كان قوله :

ـ « إن لعبة نيكسون وكيسنجر واضحة في استغلال الصراع الصيني ـ السوفيتي ، والآخرون ليسوا عمياناً .

إن اللعبة نجحت حتى الآن بأكثر مما كان متوقعاً .

ولكن نيكسون وكيسنجر ينسيان العامل البشري ... ينسيان أن

هناك حدوداً لما ترضى القوى الأعظم بأن تستغل لتحقيقه .

هناك حدود ترضي فيها القوى الاعظم ـ لمصالحها ـ بأن تقبل استغلال الآخرين لها ، ولكن ذلك لا يصح أن يتجاوز حداً معيناً ، وإلا جاءت نتيجته عكسية .

إذا حدث في يوم من الأيام أن وجدت موسكو وبكين أن واشنطن تستغل الصراع بينهما بأكثر مما ينبغي ، فإنهما سوف تتوقفان ، وإذا تذكرنا أن القيادات الحالية في موسكو وبكين ليست مخلدة بل إن معظمها تقدم به العمر كثيراً ، وإن قيادات أخرى ليست لها نفس العداوات القديمة وحدتها سوف تظهر ... إذن فإن التوقف قد يتحول إلى حركة في اتجاه آخر .

وهنا تنقلب حسابات نيكسون وكيسنجر رأساً على عقب .

إن العقل الإليكتروني ثبت نجاحه في السياسة ، ولكن على شرط أن ندرك أن هناك حدوداً لأي نجاح ! »

(٥) إن آسيا اليوم تعكس أكثر من أي مكان آخر في العالم نشأة نوع من التحالفات غير العقائدية .

كانت وحدة العقائد أول أسس التحالفات فيما مضى ، واليوم تبرز ظاهرة جديدة : هي التحالفات غير العقائدية :

التقارب الأمريكي ـ السوفيتي نوع من ذلك .

التقارب الأمريكي ـ الصيني نوع من ذلك .

الصداقة الهندية ـ السوفيتية نوع من ذلك .

الصداقة الباكستانية ـ الصينية نوع من ذلك .

في عصر الكتل ـ والحرب الباردة ـ كانت خطوط التقسيم على امتداد الكرة الأرضية كلها خطوطاً عقائدية .

في عصر التوازن ـ بعد ذوبان الثلوج ـ أصبحت المصالح ـ قومية واقتصادية ـ هي وحدها التي تحدد وتقرر .

(٦) من أبرز ما يسترعي البصر في آسيا اليوم ، تلك المباراة الصامتة بين اليابان والصين ، وهي مباراة من أهم وأخطر ما يجري في العصر ، لأنها في الحقيقة مباراة بين « الإيديولوجيا » و« التكنولوجيا » ، أي بين العقائدية ، والتقنية . إذا استعملت الترجمة المستحدثة لكلمة التكنولوجيا .

وهذه المباراة بين العملاقين تهم الدنيا كلها .

كان هناك رأي في السابق ، بأن التقدم السوفيتي الباهر يرجع إلى أسباب عقائدية .

ثم وفد رأى آخر يقول إن علوم الإنتاج وعلوم الإدارة الحديثة قد تواضعت بأهمية كل هذه الأفكار التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، وحكمت في النصف الأول من القرن العشرين .

(٧) هناك في آسيا اليوم بلد وحيد في العالم ، من حيث نوع المشكلة التي تضغط عليه ، وهي مشكلة الخوف من التقدم .
وهذا البلد هو اليابان .

وعندما زرت اليابان لأول مرة سنة ١٩٥١ ، كان إنتاجها القومي ٤٥ مليون دولار .

وهذه المرة وصل الإنتاج القومي الياباني إلى ٢٧٠ ألف مليون دولار .

وفي سنة ١٩٨٠ ، تقول التقديرات إن الإنتاج القومي الياباني سوف

يصل إلى ٨٠٠ ألف مليون دولار .

والواضح أن معدلات النمو تجري بسرعة تتراوح ما بين ١٢ و ١٤ في المائة سنوياً ، وهذه في تقديرهم نسبة خطيرة لها محاذيرها .

من محاذيرها أن الفارق بينهم وبين من حولهم سوف يصبح كبيراً ، وهذا خطر .

ومن محاذيرها أن نمو القوة الاقتصادية إلى هذا الحد ، مع الاعتماد الكامل على مواد خام تجيء كلها من خارج اليابان ، قد يدفع إلى إعادة التسليح على نطاق واسع ، وربما على المستوى الذري .

ومن محاذيرها أن البيئة اليابانية الطبيعية سوف يجري تدميرها تماماً بتلوث المصانع والمعامل .

(٨) – هناك مباراة أخرى صامتة ـ حتى الآن ـ في آسيا عبر المحيط الهادي ، وهي المباراة بين « الين الياباني » و« الدولار الأمريكي » .

كان الدولار الأمريكي في البداية هو السيد ، وكان شريكاً في معظم صناعات اليابان ، خصوصاً في ظروف الحرب الكورية .

وعندما كنت في اليابان سنة ١٩٦٦ ، كانت نسبة الاستثمارات الأمريكية بالدولار في الإنتاج الياباني تكاد تصل إلى الثلث فيه ، ولكن النسبة الآن لا تزيد على ستة في المائة ، وفي نفس الوقت فإن ثلث صادرات اليابان تذهب إلى الولايات المتحدة .

والنتيجة أن الين الياباني في مركز القوة ، وأن الدولار الأمريكي يتراجع أمامه .

وإذا تذكرنا أن السياسة في حقيقتها مجرد مظهر لمصالح اقتصادية

وراءها ، إذن فإن هذه المباراة بين الين والدولار قد لا تصبح صامتة ، وإن كان الكل في اليابان حريصاً على إزاحة هذا الاحتمال ، وكأنه كابوس لا يريد أحد أن يلقاه يقظان أو حتى نائماً ! !

(٩) – هناك بين زعماء آسيا من يرون أن شرق القارة مضبوط الآن ، أو هو سوف يكون مضبوطاً بالتوازنات الجارية بين العمالقة الأربعة ، ولكن غرب آسيا ما يزال منطقة مفتوحة يجري عليها النزاع بينهم .

والشرق الأوسط في رأي هؤلاء جميعاً ، هو امتداد لغرب آسيا .

وعندما كانت السيدة أنديرا غاندي تحدثني عن رأيها في أزمة الشرق الأوسط ، فقد كان تعبيرها الدائم طوال الحديث هو :

ـ « عندكم في غرب آسيا » ... أو « هناك في غرب آسيا » ... أو « الأزمة في غرب آسيا » .

وأتذكر أن الرئيس الباكستاني ذو الفقار علي بوتو قال لي خلال حديث طويل :

ـ « منطقة غرب آسيا ... أكاد أقول من الباكستان إلى الجزائر ، ما زالت مفتوحة للصراعات ، لأن أحكام التوازن لم تفرض نفسها بعد عليها بطريقة واضحة ، وهذا هو الخطر الذي يواجهنا جميعاً » .

(١٠) – قد يكون مناسباً الآن أن أتعرض لنقطة لا أستطيع ، مهما حاولت أن أتجنبها ، وهي :

ـ « كيف تبدو مشكلة الشرق الأوسط من هناك ، ووسط صراعات آسيا ؟ » .

وردي بأمانة :

ـ « أنها تبدو لهم بعيدة جداً وسط شواغلهم » .

ولقد قابلت ستة من زعماء آسيا الكبار : شواين لاي ، وتاناكا ، ومجيب الرحمن ، وأنديرا غاندي ، وسيهانوك ، وذو الفقار علي بوتو ...

وقابلت أيضاً عشرات من وزراء الخارجية والدفاع وقادة الجيوش في كل بلد زرته ...

وقابلت مئات من السياسيين والصحفيين والدارسين في كل مجال واتجاه ...

وأخشى أن أقول إن أحداً من هؤلاء جميعاً لم يبدأني بسؤال عن الشرق الأوسط ، وإنما كان من نصيبي دائماً أن أطرح الموضوع للمناقشة . وأستجلي رأيهم فيه .

وعندما كنت أفعل ذلك ، فلقد كان أول ما يتبادر إلى أذهان معظمهم ، سؤالاً أصبح تقليدياً من كثرة ما سمعته ، وهو :

ـ « هل تتصور بعد حل مشكلة فيتنام ، أن الدور سوف يجيء على مشكلة الشرق الأوسط ؟ » .

وفي كل مرة كنت أقول :

ـ « إن الذين يحلون المشاكل ليست لديهم قائمة منظمة بها ، يفرغون من واحدة ويلتفتون إلى أخرى .

المشاكل تطرح أو تفرض نفسها ، ولا توجد مشكلة تدعى إلى الاهتمام العام بتذكرة دعوة ، كأنها مأدبة غداء أو عشاء ! » .

وفي إحدى المرات سألني أحد زعماء آسيا :

ـ « ألا تتصور أن أزمة الطاقة قد تدعو الولايات المتحدة إلى الاهتمام بأزمة الشرق الأوسط ، خصوصاً أنه مخزن الطاقة ـ البترول ـ الأساسي في العالم ؟ »

وقلت :

ـ « وما الذي يهدد هذا المخزن من وجهة نظرهم ... هو موجود في مكانه وأبوابه مفتوحة لهم ! »

ثم قلت :

ـ ما لم يحدث ضغط ، وضغط محسوس ، وبكل الوسائل العربية ، سياسية واقتصادية ، وسياسية وعسكرية ، فإنهم لن يتحركوا ، وحتى إذا تحركوا فلا أظنني أطمئن إلى مثل هذه الحركة أو إلى نتائجها » .

وأتذكر أن هذا الزعيم الآسيوي قال لي :

ـ « هذه مرة أخرى هي كارثة الحسابات الصماء ، بالعقول الإليكترونية وحدها ، لنيكسون وكيسنجر » .

واستطرد هذا الزعيم يقول :

ـ « إن أحد أصدقائي قابل كيسنجر ، وناقش معه طويلاً ... وبين ما ناقشه أزمة الشرق الأوسط .

وقد شعرنا بأنه لا يريد أن يتحدث فيها .

ولقد فهمنا أن وزارة الخارجية الأمريكية بعيدة عن القرار .

وأن البيت الأبيض الأمريكي يضم ثلاثة أو أربعة يعرفون شيئاً عن الشرق الأوسط وإن لم يكونوا من الخبراء في شئونه ، ومع ذلك فإن

كيسنجر لم يسمع من أحدهم شيئاً » .

ومضى هذا الزعيم الآسيوي يقول :

ـ إننا لم نسمع شيئاً واضحاً من كيسنجر ، وإن كان في نهايـة حديث طويل أشار إلى أنهم على أية حال « لا يستبعدون إمكانية حوار بين مصر وبينهم » .

ولقد أستطيع في هذه النقطة عن نظرتهم في الشرق الأقصى إلى أزمة الشرق الأوسط أن أضيف عدة ملاحظات :

ـ لقد أحسست أن هناك تياراً واضحاً مستعداً لتأييد مصر في أي قرار تتخذه .

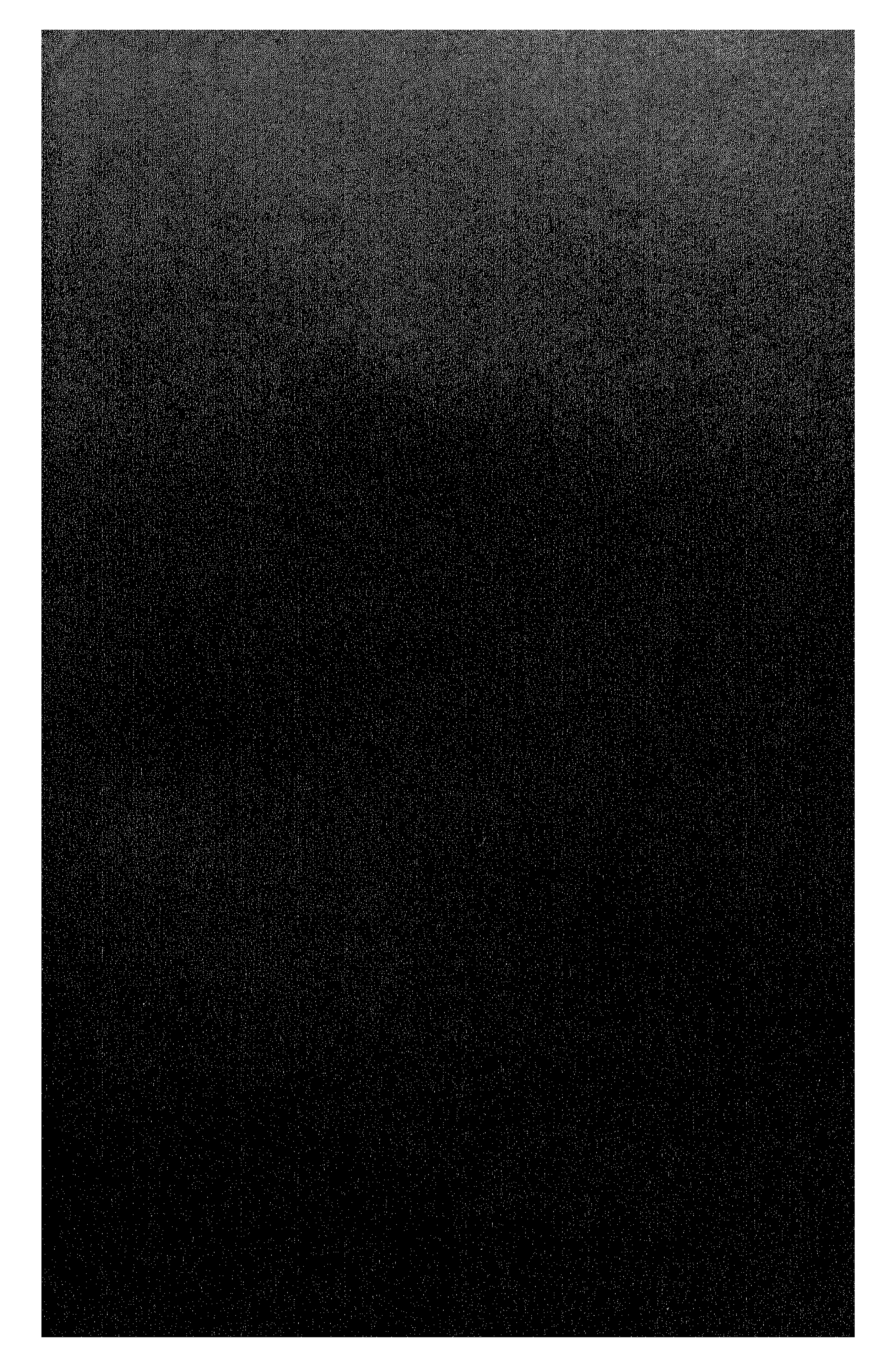
ـ وأحسست كذلك أن تقديرهم للدور الخاص الذي تقوم به مصر في المنطقة ما زال موجوداً .

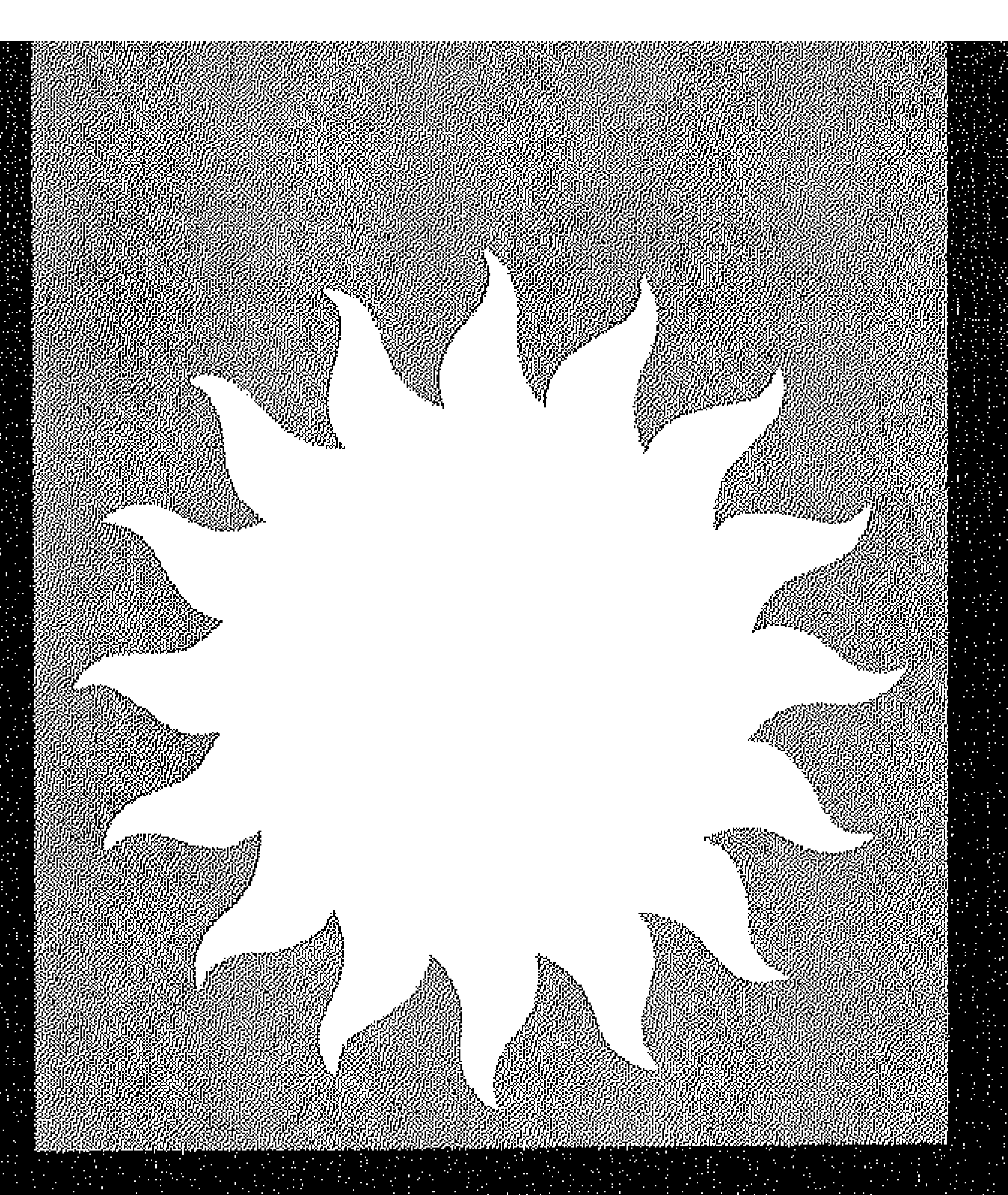
ـ ثم أحسست أيضاً أن الجزء الذي يحظى باهتمامهم في الأزمة هو قناة السويس لأن تأثير إغلاقها عليهم مباشر .

* * *

وكانت تلك نظرة طائر على آسيا .

بعدها نهبط على الأرض ... نتقدم نحو بوابة بكين .





الشّرق أحمَر

东方红

الصّين

"نظـرَة عـامّة"

« دونغ فانغ هونغ » ، عبارة في اللغة الصينية ، ترجمتها الحرفية : « الشرق أحمر» ، وكانت هذه العبارة هي الإشارة المميزة التي ظل القمر الصناعي الصيني يرددها في طوافه حول الأرض حينما انطلق سنة ١٩٧٠ بينما كان ثمانمائة مليون إنسان في الصين يلصقون آذانهم على أجهزة الراديو في كل مكان يتسمعون إلى النبضات القادمة من الفضاء الخارجي !

ولست أعرف تماماً من الذي اختار هذه العبارة لتكون الإشارة المميزة للقمر الصناعي الصيني الأول ، وقد سألت في ذلك كثيرين ممن لقيت في الصين ، ولكن أحداً لم يعطني إجابة قاطعة ، وإن كنت شخصياً أظن أن الذي اختار الإشارة هو الرئيس « ماوتسي تونج » بنفسه لأنه بحاسته التاريخية لا يمكن أن يترك مثل هذه الإشارة وما ترمز إليه دون أن يعبئها بمعنى خاص يقصده ، ثم إن العبارة من ناحية

الصياغة تحمل إيماءات إلى أسلوبه الخاص في الكتابة ، وحتى في إصدار التوجيهات ؛ وهو أسلوب وصفه الرئيس ماو نفسه ذات يوم بقوله : « لكي يستطيع أي تعبير أن يلهم ويحرك ، فإنه لا بد أن يكون مزيجاً بين التحديد الذي لا يسمح بالخطأ ، والإبهام الذي لا يقمع الخيال » .

وربما كان من نماذج ذلك الأسلوب ، أن الرئيس « ماو » عندما يدعو أحداً إلى حوار معه ، فإن تعبيره المفضل هو القول :

ـ « تعال نتحدث في كل شيء من جنوب الجبال إلى شمال البحار » .

وإذا قبلنا استنتاج أن عبارة « الشرق أحمر » من اختيار الرئيس ماو .

وإذا قبلنا تفسير الرئيس ماو نفسه لأسرار الكلمات ، إذن فإن العبارة قد تكون إشارة إلى أن ظل الصين ـ الحمراء ـ هو الظل الغالب على الشرق . . .

وإذا كان ذلك هو المقصود ، فلا أظنني أختلف ، لأن هذه هي الحقيقة الكبرى في آسيا كما رأيتها ، ذلك أنه على طول المسافة من اليابان إلى الباكستان ، فإن ظل الصين هو الغالب في كل مكان ، ولا أحد ـ فيما أتصور ـ يستطيع أن ينازع في هذه الحقيقة !

* * *

وقبل أن أذهب إلى الصين ، فقد حاولت أن أستمع إلى آراء عدد من الذين سبقوني إليها .

وكان بين ما لفت نظري أن الآراء شديدة التباين ، بل شديدة التناقض .

*ومثلاً ، فإن وزيراً مصرياً هو الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة قال لي بحماسة :

ـ « إنك سوف تجد هناك مجتمع الفضيلة ... لا أحد يكذب ... لا أحد يسرق ... لا أحد يتواكل » ..

وهذه النظرة المثالية للصين وكل ما يجري فيها شائعة ، وقد كان مما لفت نظري ذات يوم ، أن أحد رفاقي في بعثة « الأهرام » إلى بكين ، وهو خبير متخصص في علوم الصراع السياسي ، كان يزور معنا مدرسة من مدارس ٧ مايو ـ وهي مدارس إعادة تقويم القيادات ـ ودخلنا أحد فصول المدرسة ، وإذا قرابة مائة دارس جالسون على الأرض يناقشون مع أستاذ لهم ، يجلس أمامهم على منصة مرتفعة بعض الشيء من الأرض ، أطروحة إنجلز الشهيرة « ضد دورينج » ، وإذا برفيقنا تأخذه النشوة ويقول بالحرف :

ـ « يا إلهي .. كأن أرسطو بعث حياً مرة أخرى » .

* ولكن هناك نظرة أخرى متباينة ، بل متناقضة للصين ، وكان صاحبها سياسياً عربياً ـ غير مصري ـ وكان قوله :

ـ « أنت ذاهب إلى الصين ؟

إنك سوف ترى مجتمع النمل !

إنك في الغالب سوف تنزل في فندق « الشعوب » ، وإذا حدث ذلك ، فإني أرجوك أن تستيقظ مبكراً ذات يوم ، وأن تنظر من نافذة غرفتك إلى الشارع تحتك ، وسوف تجد على الناحيتين في الشارع الواسع منظراً لن يبرح ذاكرتك .

طابور لا ينقطع من راكبي الدراجات الذاهبين إلى عملهم في الصباح على هذه الناحية من الشارع ، وطابور آخر لا ينقطع على الناحية الأخرى .

سوف تجدهم كالنمل في الحركة ، وفي الشكل العام .

لن تجد في بكين إلا هذه الطوابير من راكبي الدراجات .

ليس في الشوارع سيارات ، لأن السيارات لا تخصص إلا لنواب الوزراء ومن فوقهم ، وللأعمال الرسمية فقط .

وفي بكين مترو تحت الأرض ، وهوفخم وأنيق ، ولكنه للمستقبل .

وأما الوسيلة الأساسية للانتقال في بكين اليوم فهي الدراجة ، وسوف تذكرك طوابيرها المتحركة بغير انقطاع ، بطوابير النمل .. النمل الفارسي بالتحديد ! » .

وكان هذا التباين والتناقض مصداقاً حياً لملاحظة سمعتها من رفيق آخر من رفاق السفر،وهو خبير في العلاقات الدولية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية « بالأهرام » ، وقد سبقت له الإقامة المتصلة سنتين في الصين ، وكانت ملاحظته :

ـ « إن أحداً لا يستطيع أن يتخذ موقفاً وسطاً إزاء الصين .. الصين شيء يفرض نفسه ، إما أن تتعصب له ... وإما أن تتعصب ضده ! » .

ـ ولعلي أقول برغم ذلك ، إن هناك من استطاعوا أن ينظروا إلى تجربة الصين نظرة موضوعية ، وبينهم السير « إليك دوجلاس هيوم » وزير الخارجية البريطانية ... وأتذكر أنني في زيارة أخيرة للندن ، أتيح لي الاطلاع على فقرات من تقرير قدمه إلى مجلس الوزراء

البريطاني بعد رحلة له أخيرة إلى الصين . وكان من بين ما قاله وزير خارجية بريطانيا :

ـ « سوف يكون مهماً بالنسبة للعالم كله . أن يتابع عن كثب تجربة الصين ، لأنها فريدة في التاريخ .

هناك شعب يريد أن يعتمد على نفسه كلية في بناء تطوره وتقدمه .

وهو حتى لا يريد أن يقترض من الخارج لتمويل مشروعاته .

وقد سألت رئيس وزراء الصين « شواين لاي » عن السبب في ذلك ، وكان رده :

ـ نحن نفضل أن نعتمد على أنفسنا تماماً . . ولا نريد أن نقترض من أحد . . . وليس من أهدافنا أن نصل إلى وضع نجد أنفسنا فيه مثل غيرنا يقترضون من جديد ليسددوا فوائد قروض قديمة ! » .

* * *

وعندما ركبت القطار من « كانتون » إلى « هونج كونج » ، خارجاً من الصين ، بعد زيارة استغرقت اثني عشر يوماً ، فلقد وجدت كثيرين من الصحفيين في انتظاري .

كان علي أن أجيب على السؤال الذي طالما كنت قد وجهته إلى غيري :

ـ « كيف وجدت الصين ؟ » .

وقلت لهم بسرعة :

ـ « إن أبرز ما لفت نظري في الصين هو « قوة الاندفاع » .

هناك قوة دافعة تحرك الصين بغير حدود .

وهذه القوة مزيج من عناصر مختلفة ، يمكن أن يطول النقاش حول أصولها وجذورها ، ولكن أحداً لا يمكن أن يختلف حول الطاقة التي تولدها .

هناك في الصين شعب من ثمانمائة مليون .

وهذا الشعب يتحرك إلى هدف .

ولا أعتقد ، مما رأيت ، أن هنالك أحداً يستطيع أن يحول دونه ودون بلوغ هدفه .

« القوة الدافعة » هي الشيء اللافت للنظر في الصين » .

وعندما سئلت عن أحوال الناس في الصين ، قلت بأمانة :

ـ « الكل يأكل بما فيه الكفاية ... الكل يلبس بما فيه الدفء والكرامة أيضاً ... والكل يعمل بغير انقطاع ... حتى العجائز في المزارع الجماعية يكلفونهم بالسهر في الليل مع الأطفال يروون لهم قصة ما كان في الصين من جوع وفوضى وعذاب وذل ، حتى لا تضيع من ذاكرة الأجيال حكاية ما كان ، وليستطيعوا تقدير ما هو كائن » .

* * *

ولقد ساءلت نفسي كثيراً بعد أن خرجت من الصين :

ـ « ما هو سر ما حدث فيها ، وهو شيء أقرب إلى المعجزة ؟ »

ولست أستعمل هنا كلمة المعجزة جزافاً ، لأنني حريص على الكلمة ، ضنين بها ، وهذا طبيعي ، لأن الكلمة بالنسبة للكاتب حياة .

وإنما أستعمل هذه الكلمة ، لأنني أتذكر حواراً مع نيكيتا خروشوف الزعيم السوفيتي الشهير ، جرى بيني وبينه سنة ١٩٦٤ ، وكانت الصين فيه موضوعاً رئيسياً ، وكان من بين ما قاله لي خروشوف وقتها :

ـ «سوف ترى ، ونرى جميعاً ، ما يحدث للصين بعد خلافها مع الاتحاد السوفيتي .

أقول لك بلا تردد ، إنهم بدون مساعداتنا سوف يعودون إلى عصر المجاعات .

هل قرأت رواية الكاتبة الأمريكية بيرل باك عن « الأرض الطيبة » ووصف المجاعة فيها ... ؟

سوف تعود الصين إلى هذا العصر ، وسوف يتعلمون درسهم .

لقد ضغطوا علينا ، لأنهم أرادوا أن نسلمهم أسرار القنبلة الذرية ، ونحن لن نعطيها لهم ... إن القنبلة الذرية ليست لعبة ... وليست مثل ما يقول « ماوتسي تونج » نمراً من ورق .

هم لا يعرفون شيئاً .. ولن يعرفوا » !

* * *

ولكن الصين لديها اليوم قنبلة ذرية ، ولديها قنبلة هيدروجينية ، وعندما كنت فيها ، قال لي سفير أوربي يتابع ما يجري داخلها عن قرب وبعمق :

ـ « هناك معلومات لدينا تقول إنهم جربوا في الأسبوع الماضي ـ وبنجاح ـ صاروخاً عابراً للقارات ، مداه أربعة آلاف ميل » !

ولكن القنابل والصواريخ ليست ، في رأيي ، دليل المعجزة .

ولقد استوقفني دليل آخر وبالأرقام .

تقول الأرقام :

ـ إن حجم الإنتاج الصيني يعادل حجم الإنتاج الياباني ، وهو من أضخم القوى الإنتاجية .

[ولا بد أن نسلم هنا بوجود فارق في التقدم ، لأن حجم الإنتاج الصيني يصنعه سكان يصل تعدادهم إلى ٨٠٠ مليون بينما حجم الإنتاج الياباني يصنعه سكان يصل تعدادهم إلى ١٠٠ مليون فقط] .

لكن هذا ليس هو المهم .

المهم هو الرقم التالي عن استهلاك الصين من الوقود ، وأقصد به البترول قبل أي شيء آخر :

ـ اليابان ، لكي تصنع حجم إنتاجها ، تستهلك سنوياً ٢٤٠ مليون طن من البترول .

ـ أما الصين ، فإنها تستهلك سنوياً ٢٥ مليون طن من البترول .

والغريب أن هذا الحجم الصيني في استهلاك البترول [٢٥ مليون طن] ، هو نفسه تقريباً حجم الاستهلاك المصري .

وإذن نخلص بمفارقة بالغة الأهمية ، وهي :

« أن الصين تستخدم نفس حجم الطاقة التي تستهلكها مصر لكي تنتج نفس حجم الإنتاج الذي تصنعه اليابان » .

وهذه هي الصورة الحية للمعجزة !

* * *

والمعجزة ، في ظني ، ليست معنى غيبياً ، وإنما المعجزة ، أو حتى ما يبدو أمامنا وكأنه معجزة له أسباب لا بد أن تكون علمية .

وفي طوافي كله بالصين ، فلقد أحسست بأن هناك ثلاثة أسباب محددة تكمن وراء المعجزة :

* السبب الأول : أن كل إنسان يعمل ، ولا يمكن أن يكون هناك شيء آخر وراء « إنتاج بحجم إنتاج اليابان بوقود يماثل حجم استهلاك مصر » إلا العمل الإنساني ، والعمل الإنساني وحده .

* السبب الثاني : أنه ليس هناك ما كان يسميه الدكتور محمود فوزي ، عندما كان رئيساً للوزراء « فاقداً أو عادماً أو ضائعاً » في أي شيء .

وأتذكر أن « وو لين شي » المسئول عن تحرير جريدة « الشعب » ، وهي كبرى الصحف الصينية ، دعاني إلى عشاء ذات ليلة في مطعم « بط بكين » الشهير .

كان العشاء سبعة أطباق من بطة واحدة ! :

خمس قطع مختارة باردة من البطة في أول طبق .

كبد البطة مقلياً في طبق ثان .

أضلاع البطة بالصلصة في طبق ثالث .

قلب البطة في قطع صغيرة محمرة في طبق رابع .

لسان البطة وأمعاؤها والبنكرياس ، مطبوخة مع الخضر في طبق خامس .

جسم البطة نفسه أخيراً ، وهو الطبق الرئيسي ، مشوياً في طبق سادس .

عظام البطة مسلوقة ، في طبق حساء في النهاية ، وهو الطبق السابع . وأتذكر أنني قلت لـ « وو لين شي » :

ـ « لم يبق من البطة غير ريشها ، وأرجو ألّا نأكله ؟ » .

وقال « وو لين شي » بجد :

ـ « لا . . . إن المطعم يبيع ريش البط لأغراض صناعية ! » .

* السبب الثالث : هو التنظيم الدقيق ، وهو شيء محسوس إلى « أطراف الأصابع » في كل بقعة على أرض الصين .

ونقطة التنظيم تستحق مناقشة أطول .

* * *

« ما هو سر هذا الدور الذي يلعبه التنظيم الدقيق في حياة الصين اليوم ، وفي دورها حالياً ومستقبلاً ؟ » .

ولقد سئلت هذا السؤال كثيراً وبإلحاح ، ومنذ خرجت من الصين وحتى هذه اللحظة .

وكان آخر من وجه إلي هذا السؤال هو الرئيس معمر القذافي ، وكان معنا في الأسبوع الماضي لعدة ساعات يسمع « مشاهدات وملاحظات عائدين من آسيا » .

وكنت دائماً ألخص رأيي في النقط التالية :

١ ـ إن روح التنظيم موجودة في عقيدة الصين التاريخية الأولى

وهي تعاليم « كونفوشيوس » ولم يكن كتاب كونفوشيوس الشهير وهو : « حوليات الربيع والخريف » ـ وقد أصبح فيما بعد كتاباً مقدساً ـ إلا مجموعة من قواعد الأخلاق والسلوك ، أرست بين ما أرست في المجتمع الصيني ، أسساً راسخة لاحترام المسئوليات على كل المستويات ، حتى إن عدداً من الدارسين لشئون الصين ، وبينهم « إدجار سنو » في كتابه : « الناحية الأخرى من النهر » ، يعتقدون أن « الكونفوشية » أعطت للصين أقوى الأجهزة الإدارية في التاريخ ، وأكثرها استمراراً واستقراراً ، ولقد ساعدها على ذلك أن المجتمع الصيني بالطبيعة مجتمع نهر وإذن فهو يحتاج دائماً إلى حكومة مركزية قوية .

٢ ـ إن الحضارة الصينية لم تنقطع طوال التاريخ ، ولم تنكسر ولم تداخلها الشوائب .

وفي حين أن الحضارة المصرية مثلاً انكسرت وانقرضت بعد عهد الأسرات ، كما أن الحضارة الإغريقية نامت على طول المسافة بين انهيار الإمبراطوريات الرومانية وعصر النهضة الأوربية الحديث ، فإن الحضارة الصينية دون غيرها من الحضارات الأولى ، واصلت استمرارها وازدهارها ، برغم عصور من الانتكاس عاشتها .

ومن شأن استمرار الحضارة في أمة من الأمم ، أن وحدتها تبقى سليمة .

وربما كان من ذلك أن اللغة الصينية ظلت مع اتصال الحضارة الصينية ، وعاء يتسع دواماً لضمير ووعي ومشاعر الأمة الصينية .

٣ ـ إن الصيني كان ، ولا يزال دائماً ، يعتقد أن « الصين » هي قلب الكون ، وربما كنا نحن هنا في الشرق الأوسط ـ الذي نعتبره وسط العالم ـ نظن أن الصين في طرف قصي من الدنيا ، ولكن النظرة

إلى خريطة العالم مرهونة دائماً بالمكان الذي ننظر منه .

ولقد نلاحظ أن اسم الصين في اللغة الصينية هو « شونج كو » والترجمة الحرفية لهذا الاسم هي « الملكوت المركزي » ، أو « الملكوت الأوسط » .

ومن هنا ، فإن الصين هي شعب الصين ، بل إن الأقليات الصينية خارج الصين ، وحتى في الولايات المتحدة ، لا تعتبر نفسها مهاجرة خارج الصين ، وإنما تعتبر نفسها في مهمة خارج الصين .

٤ ـ إن الصين لم تتعرض للغزو الخارجي في أي فترة من فترات تاريخها ، كما أنها لم تذهب غازية إلى أي مكان ، وكانت حروبها كلها حروباً دفاعية .

وحتى في عصر التدخل الأوربي في الشرق الأقصى ، وبعد حرب الأفيون الشهيرة ، فإن الصين لم تصبح مستعمرة بالمعنى التقليدي ، وإنما تمركزت قوى التدخل الأجنبي على شواطئها ، وعلى أطرافها البعيدة ،وبقي « الملكوت الأوسط » سليماً لا يمس .

٥ ـ إن الكونفوشية لم تأت إلى الصين بأية أساطير غيبية يمكنها أن تمزق المجتمع الصيني إلى طوائف وشيع ، أو تغرقه في خزعبلات مظلمة ومسكونة .

وكان كونفوشيوس ، ومن قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة يقول :

ـ « لكم أن تحترموا الأرواح ... ولكن عليكم أن تحرصوا على إبقاء مسافة بينها وبين عقولكم ! » .

ثم كنت أقول :

ـ « إن هذه الأسباب الخمسة كانت موجودة في الصين ، تمهد للنظام وإمكانية التنظيم إذا جاءت القيادة الواعية » ..

كانت هذه كلها أرضية تاريخية تمكن لماو تسي تونج من الدعوة إلى تعاليمه .

ولقد كان الجو كله مهيأ بعد عصر المجاعات وانحلال الأباطرة في الصين ، ونزعات التسلط لدى القادة العسكريين في نهاية فترة حكم أسرة « مانشو » ، وكان الجو كله مهيأ بعد إذلال حرب الأفيون ، وبعد ضياع ثورة « سن يات سن » على يد الطبقة الجديدة التي سيطرت على حزبه « الكومنتانج » ، وكان المسرح جاهزاً تماماً لدخول ماو بعد الحرب الاستعمارية التي شنتها اليابان على الصين ، ابتداء من سنة ١٩٣١ .

إن « ماو » جاء حقيقة يحمل أعلام الماركسية اللينينية ، ولكن « ماو » استجاب للطبيعة الوطنية للصين أكثر مما استجاب لماركس وإنجلز ، ولينين ، وستالين الذي لا تزال صورته معلقة حتى الآن في الصين ، أو لعلي أقول لكي لا أتجاوز ، إن « ماو » أضاف إلى الماركسية اللينينية وغير فيها ، بما يلائم ظروف الصين .

ولعلي أترك هذه النقطة لغيري ممن يتحمسون للمناقشات العقائدية .

ولكنني أكتفي بالقول بأن « ماو » جاء إلى المسرح الصيني والمجتمع هناك مهيأ لثورة ، ومهيأ لثائر ، ثم إنه كان بكامل وحدته الحضارية والتاريخية ، على استعداد لأن يستجيب للنظام وللتنظيم .

* * *

ولقد سئلت :

ـ « هل أحسست هناك بأثر للقسر والإرغام في فرض النظام والتنظيم ؟ »

وقلت :

ـ « لا أستطيع أن أتصور إنسانياً أن يحدث تغيير مثل الذي حدث في الصين بدون قسر وإرغام » .

ولكني أريد أن أضيف بأمانة :

ـ « إذا كنت أقول بذلك ، فلا بد أن أعترف بظاهرة لا يمكن المرور عليها بسهولة .

هذه الظاهرة هي أن الخط الفكري الصيني واضح من القمة عند « ماوتسي تونج » و« شواين لاي » ، إلى أي عامل في مزرعة جماعية ، وإلى أي طبيب من « الأطباء الحفاة » كما يسمونهم ، وهم ليسوا حفاة الأقدام كما قد يوحي بذلك وصفهم ، ولكن الوصف كان من صياغة « ماو » الذي وجد أن الريف الصيني بكل هؤلاء الملايين الذين يعيشون فيه لا يحتاج إلى أطباء متخصصين تصرف عليهم الدولة عشرات السنين ، وإنما هو يحتاج إلى من يفهم في الأمراض العادية ، وهكذا كان تعبير الأطباء الحفاة الذين يسيرون في الريف يعالجون ـ بالأعشاب الطبية في معظم الأحوال ـ نزلات البرد والأمعاء ونوبات الزكام والصداع ، بعد تدريب علمي لثلاثة أو ستة شهور أو سنة واحدة في بعض الأحيان ».

ولقد سئلت ، وبين الذين سألوني الرئيس معمر القذافي :

ـ « كيف تفسر وحدة الخط الفكري واتصاله بين القيادة والقاعدة ؟»

وقلت :

ـ لذلك في ظني خمسة أسباب :

* الأول : أن التجربة أمام الإنسان الصيني ناجحة ، أعطته الكثير ، وحققت له الكثير .

*الثاني : أن القيادة في الصين قدوة أيضاً ، وهذه نقطة بالغة الأهمية ، لأن الناس يتقبلون حينما يشعرون أن الذين يدعونهم إلى شيء يطبقونه أولاً على أنفسهم .

ولقد نتذكر أن « ماوتسي تونج » وهو إله في الصين الآن يعيش في المدينة المحرمة ، في بيت صغير ، كان مخصصاً لخدم أسرة « مانشو » ، والبيت من ثلاث غرف : غرفة نوم ، وغرفة استقبال ، وغرفة مكتبة ، والأثاث بسيط ، وليست هناك بجانب « ماو » إلا سكرتيرة واحدة ترتب غرفته وترتب أوراقه وهذا هو كل شيء .

* الثالث : وهو نتيجة لما سبق أن هناك ثقة كاملة بين القاعدة والقمة ، والثقة في القيادة في الصين لا تقتصر على الإيمان بإخلاصها ولكنها تمتد أيضاً إلى الثقة بقدرتها وحكمتها ـ هذا فضلاً عن أن جميع المسائل والقضايا تطرح للمناقشة داخل الحزب وعلى كل مستوياته بحيث تصبح بالفعل حين صدورها معبرة عن رأي الجماهير الواسعة،وفي أقل القليل فإن هذه القرارات حين تصدر لا تكون مجرد أوامر من أعلى كأنها قنبلة هاوية من السماء ، أو انفجار مفاجئ تحت الأقدام كأنها لغم كان مدفوناً في الأرض ! !

* الرابع : هو أن العقائد لا تعطى للجماهير كأنها كتل حجر ، وإنما تترجم العقائد إلى تصرفات عادية وإنسانية بسيطة للغاية ، قادرة على النفاذ داخل أي تصور .

وفي الفترة التي كانت الولايات المتحدة فيها تحاول احتواء الصين وفرض الحصار عليها ، فإن ماوتسي تونج لم يحطم رؤوس الناس بعبارات لها دوي دون أن يكون لها صدى ، وإنما اكتفي بإصدار توجيهاته الثلاثة المشهورة :

ـ احفروا الخنادق في كل مكان (أي استعدوا للغزو) .

ـ اختزنوا الحبوب في كل مكان (أي استعدوا للحصار الاقتصادي) .

ـ لا تسعوا للسيطرة في أي مكان (أي أن سياسة الصين دفاعية وليست عدوانية) .

* الخامس : هو أن خطوط الاتصالات ولغة الاتصالات بين القمة والقاعدة في الصين ما زالت حية وقوية من أثر التجربة الثورية الطويلة التي كانت تجعل « الثلاثة في واحد » كما يقولون في الصين أي الحزب وجيش التحرير والحكومة ـ وذلك خلال سنوات النضال الشاق الطويل (ولقد أعود إلى هذه النقطة فيما بعد بتفصيل أكثر) .

* * *

ـ ولقد سئلت :

ـ « أليست غريبة هذه الألوهية لماوتسي تونج في الصين ؟ » .

وقلت :

ـ « لقد كنت دائماً أستغرب هذه الألوهية لماوتسي تونج ، وكنت أجدها دائماً غير معقولة ، بل كنت أجدها في بعض الأحيان على نقيض مع الفكر الماركسي ذاته ، الذي تجري التجربة في الصين تحت راياته » .

ولكن المذهل أن ما يبدو مستغرباً أو غريباً من خارج الصين ، يبدو داخلها عادياً وطبيعياً .

ولقد شعرت بأن الناس في الصين يعطون « لماو » مكانة الإله بغير رهبة أو خوف ، وإنما بمزيج مثير من الحب والتقديس .

لقد وجدت الصين كلها تتحرك على إيقاع صادر من ذلك البيت الصغير وراء أسوار المدينة المحرمة ، حيث يعيش « ماو » ويفكر ويصدر تعاليمه .

الصين كلها تتحرك ـ بثمانمائة مليون فيها ـ على الإيقاع الهادئ أحياناً ، والهادر أحياناً أخرى ـ كما في وقت الثورة الثقافية ـ الذي يعزفه ماوتسي تونج .

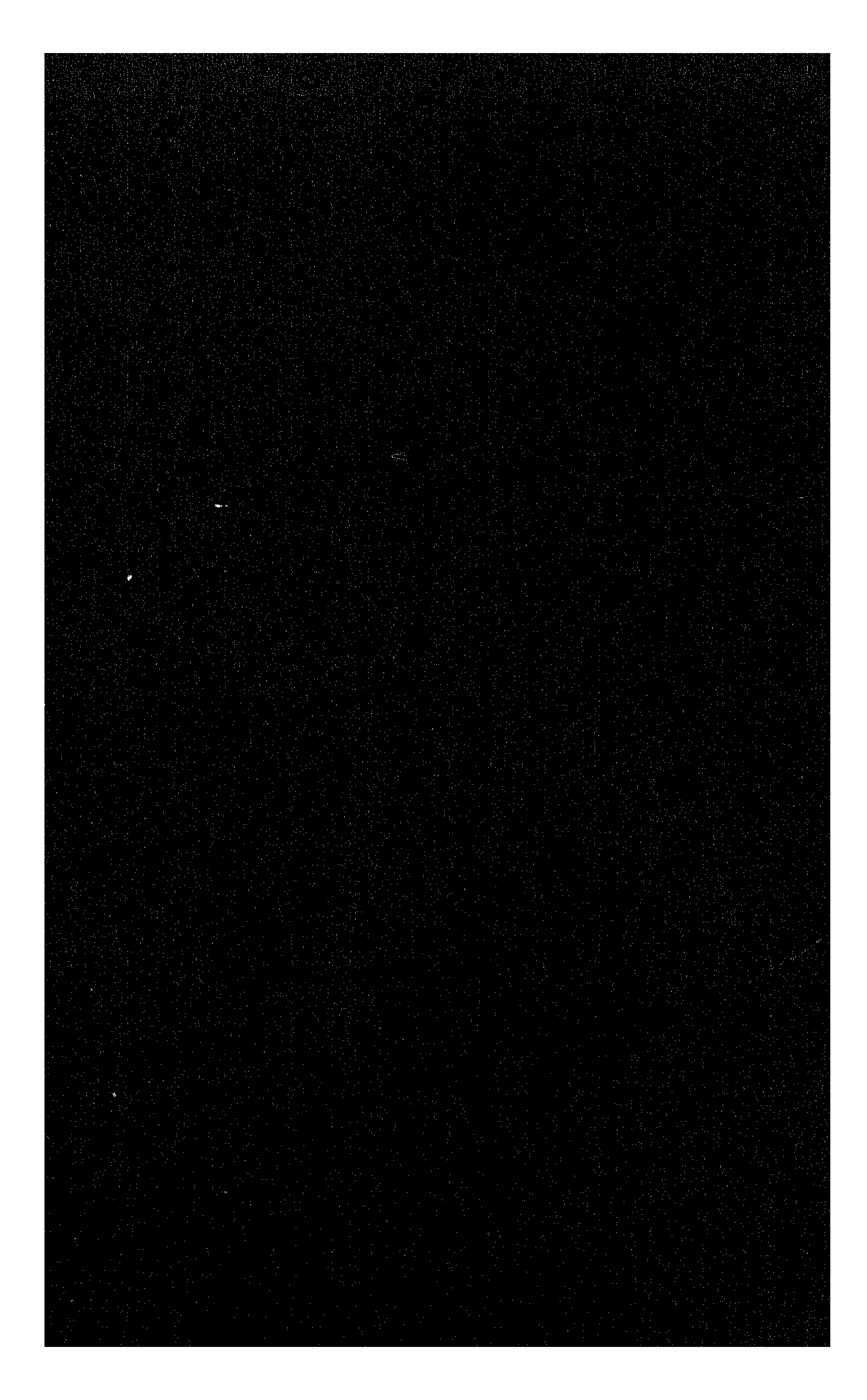
ويبدو أنه خبير بالموسيقى ، عارف بفنونها ، قادر على تطبيقها في السياسة .

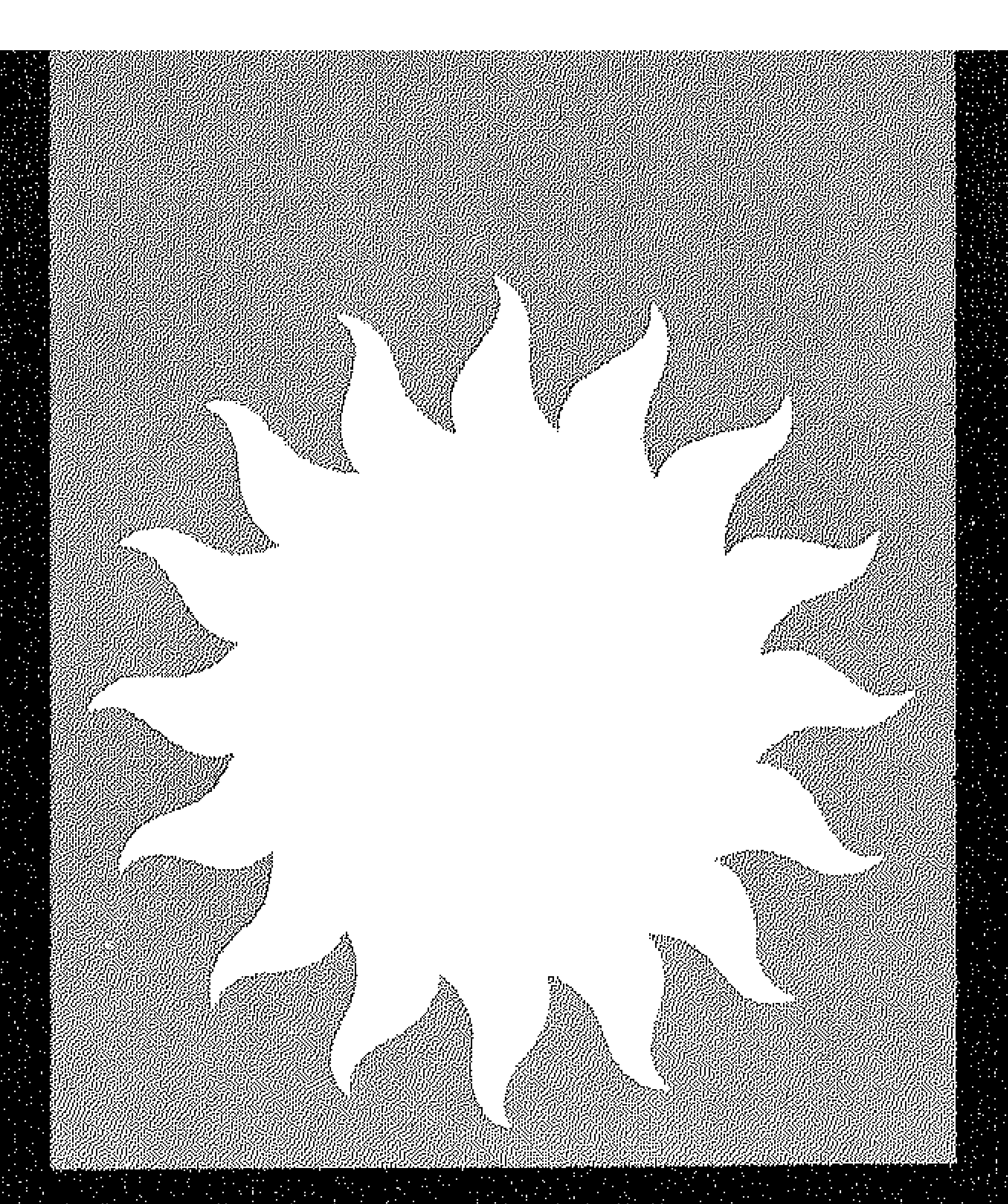
... كان هو القائل يوماً في أحد توجيهاته الشهيرة إلى أكثر شعوب العالم كثافة في السكان :

ـ تعلموا العزف على البيانو ... ينبغي للإنسان لكي يعزف على البيانو أن يحرك أصابعه العشر ، لا أن يحرك بعض أصابعه ويترك بعضها الآخر جامداً لا يتحرك ...

ولكنه إذا ضغط بأصابعه العشر دفعة واحدة فلن يستطيع أيضاً أن يعزف لحناً ...

فلأجل عزف موسيقى جيدة ، ينبغي أن تكون حركات الأصابع إيقاعية متناسقة ! ! » .





الشّرق أحمَر



شُواين لاي

"صُورة عَامّة"



إذا أحس أحد من خلال ما أكتب هذه المرة أن إعجابي ظاهر « بشواين لاي » رئيس وزراء الصين ، فهذا الإحساس صحيح . ولست أداريه ، ولا أحاول ، وإنما أعترف به منذ اللحظة الأولى لكي أريح نفسي ، ولكي أنبه الذين يقرأون ، لعلهم يستطيعون أن يفصلوا بين ما هو « ذاتي » ، وما هو « موضوعي » في سياق هذا الحديث !

والإعجاب يختلف عن الحب .

وفي حين أننا نستطيع أن نمارس الحب في غيبة العقل ، فإن الإعجاب لا يمكن أن يحدث بعيداً عنه ، أي أن الإعجاب لا بد أن تكون له أسباب عاقلة ، وإن لم يمنع ذلك من وجود أشياء أخرى في الإعجاب لا تدخل من باب العقل ، وإنما تنساب من خلال المشاعر .

وأكاد أقول إن الإعجاب ينبع من مصادر ثلاثة :

الأول : عملي صرف ، مرده إلى تقدير دور من نوليه إعجابنا في الحياة أو في التاريخ .

الثاني : فكري مجرد ، ينشأ من رؤيتنا لإنسان يفكر ويتحرك برؤية صافية ومنسجمة ، وبغض النظر عن النجاح أو الفشل .

الثالث : لا شعوري ، ينفذ إلينا بالإيحاءات والإيماءات وحدها .

* * *

وحين قابلت شواين لاي أخيراً ، فلقد كنت أتساءل قبل الموعد المحدد للمقابلة :

ــ « كيف سأجده هذه المرة ؟

وماذا فعلت به أوقات الأزمة ، خصوصاً خلال الثورة الثقافية ورياحها العاصفة ؟

وماذا فعلت به لحظات الانتصار ، خصوصاً حين جلس يتفاوض في بكين مع ريتشارد نيكسون ، الذي طرق بيده باب الصين مستأذناً في الدخول ، بعد حياة طويلة بناها على احتواء الصين وحصارها ؟

وأهم من ذلك ، ماذا فعلت به أعباء رئاسة الوزارة في الصين ، وقد مضى على تحمله لها أربعة وعشرون عاماً ، وأظنها أطول مدة قضاها رئيس وزراء في العصر الحديث ، وإذا تذكرنا أن ذلك كان في الصين ، حيث رئيس الوزراء مسئول عن ثمانمائة مليون من البشر ، وعن تجربة هائلة ، قدر له أن يكون مهندسها ومنفذها ، إذن فإن الأثقال لا بد أن تكون في حمل الجبال ! »

وكنت قد التقيت مع شواين لاي قبل ذلك مرتين :

مرة في باندونج سنة ١٩٥٥ ، وكان حديث شواين لاي وقتها مركزاً على نقطة واحدة ، هي أنه يريد أن يقنع دول آسيا وأفريقيا بأن الصين شريكة لها في النضال :

... برغم أنها شيوعية حمراء ، فهي جزء من حركة التحرر الوطني .

... وبرغم حجمها الهائل ، فإنها بلد متخلف يسعى إلى التقدم مثلما يسعى الآخرون .

وأعتقد أن شواين لاي نجح في ذلك نجاحاً بعيد الأثر .

وكانت المرة الثانية في القاهرة سنة ١٩٦٥ ، وكان « شواين لاي » قد قضى في القاهرة وقتها قرابة الاثني عشر يوماً في انتظار انعقاد المؤتمر الآسيوي الأفريقي الثاني بعد باندونج ، وكان مقرراً عقده في الجزائر ، في قصر الصنوبر ، الذي بني خصيصاً لهذا المؤتمر واتسع بعد ذلك لمؤتمرات دولية أخرى .

وأتذكر أن شواين لاي ركز في ذلك اللقاء معه على ثلاث نقط ، أعترف بأن الأيام أثبتت صحتها إلى أبعد مدى ، وكان حديثه عنها في ذلك الوقت المبكر شعاعاً نافذاً إلى المستقبل الذي لم يجئ بعد .

* كانت النقطة الأولى التي ركز عليها هي رأيه في محاولة الولايات المتحدة الأمريكية أن تحتوي الصين ، وأن تحاصرها .

وأتذكر يومها قوله :

ـ لا يهم ما يحاوله غيرنا ، وإنما الأهم ما نشعر نحن به في قرارة أنفسنا .

إذا كنا نعتقد أننا نمثل تياراً تاريخياً صحيحاً ، فلا بد أن نلزم مواقعنا ولا نتحرك منها ، وليس يهم أن ينكر الآخرون وجودنا ، لأن التجربة سوف تعلمهم ، وسوف يأتي يوم ـ مهما طال الوقت ـ يجيئون فيه إلينا معترفين بوجودنا ، مع العلم بأن وجود أية قوة لا يتوقف على اعتراف الآخرين بها ، وإنما يتوقف على اليقين الذي تجده داخل نفسها .

هل نحن على حق تاريخياً ... أم أننا لسنا على حق ؟ ... هذا هو السؤال !

وهل نحن قوة على الخريطة وحقيقة ... أم أننا لسنا قوة وحقيقة ؟... هذه بقية السؤال ! !

ما يفعله الآخرون من شأنهم .

أما شأننا نحن فهو أن ندافع عن مواقعنا حتى تجيء اللحظة التي يستيقظ فيها الغافلون . »

* وكانت النقطة الثانية التي ركز عليها هي رأيه في سياسة تصعيد الحرب التي لجأ إليها الرئيس الأمريكي ـ في ذلك الوقت ـ ليندون جونسون بالنسبة لفيتنام .

وأتذكر يومها قول شواين لاي :

ـ إننا نشعر بأن بعض أصدقائنا يخشون علينا من هذا التصعيد ، ونحن نختلف معهم .

نحن نريد أكبر قدر من التورط الأمريكي في فيتنام ، ونعتقد أنه كلما زاد عدد الجنود الأمريكيين في الهند الصينية ، فإن ذلك تأمين لنا .

كان أكثر ما نخافه هو أن تضرب الولايات المتحدة من بعيد ولا

يكون في متناول سلاحنا ، أو حتى أظافرنا أن تطول لحمها الحي .

اتركوا الولايات المتحدة تصعد ... ليصبح لها نصف مليون جندي ، أو حتى مليون جندي في فيتنام ، في النهاية فإن هذا الجيش الأمريكي سوف يصبح رهائن على الأرض الآسيوية ، وذلك يجعلهم بالنسبة لنا بوليصة تأمين .

ذلك سوف يجعلهم يحاذرون ويحرصون على حصر ميدان القتال ، وليس على توسيعه كما يتصور البعض ، لأنهم إذا أقدموا على تصرف من شأنه أن يؤدي إلى تدخل الصين ، فإنهم يعرفون أننا نستطيع أن نقذف إلى الميدان بملايين بعد ملايين من البشر ، وسوف تستطيع ملايينا أن تبتلع آلافهم ، أو حتى مئات الآلاف منهم وهم يفهمون ذلك .

تورطهم بالتصعيد مفيد لنا فاتركوهم ، لأن هذا التورط يعطينا أكبر قدر من الأمان ، ثم إنه يعطينا الفرصة للتأثير في المجتمع الأمريكي نفسه ، لأنه لا شيء يقلق أي مجتمع من المجتمعات مثل أن يرى نفسه ينزف ، وينزف كل يوم على أرض بعيدة ! » .

* وكانت النقطة الثالثة التي ركز عليها شواين لاي هي مناقشاته وقتها مع جمال عبد الناصر ، حول رغبة الاتحاد السوفيتي في الاشتراك في المؤتمر الآسيوي الأفريقي ، على أساس أن الاتحاد السوفيتي يعتبر نفسه قوة آسيوية بحكم امتداده إلى الشرق في آسيا .

وأتذكر يومها قول شواين لاي :

ـ « منذ متى يعتبر الاتحاد السوفيتي نفسه قوة آسيوية ؟

إنني أفهم مشاعر الرئيس عبد الناصر .

إن الروس يلحون عليه ، ثم إنه قد يرى في انضمام الاتحاد السوفيتي إلى العالم الآسيوي الأفريقي ـ قوة مضافة .

ولكني أختلف .

إن قلب روسيا في أوربا وليس في آسيا .

ثم إن روسيا تنتمي إلى العالم المتقدم ، وهي جزء من « المدينة العالمية » ، وأما نحن فإننا « الريف العالمي » ، وهناك تناقض لا شك فيه بين « المدينة العالمية » التي ينتمي إليها المتقدمون ، وبين « الريف العالمي » الذي ننتمي نحن إليه .

أمانيهم غير أمانينا ، ومشاكلهم تختلف عن مشاكلنا .

أكاد أرى في إلحاحهم أيضاً أنهم يريدون أن يحجبوا دور الصين ، وهذا منطق القوى الكبرى .

هم يتصورون أن الصين في وسط القوى الآسيوية الأفريقية ربما يكون لها دور خاص ، ويتصورون أنهم إذا حضروا فإنهم سوف يحجبون دور الصين .

وهذا منطق سياسة القوة ، ونحن لا نعتمده ، ونعتبر الصين على قدم المساواة مع أي دولة آسيوية وأفريقية ، لأن أمانينا ومشاكلنا واحدة .

أخشى أن كل ما سوف يحققونه هو عرقلة تقدم الحركة الآسيوية الأفريقية » .

كان ذلك سنة ١٩٦٥ .

ومن يومها :

* ذهب الرئيس الأمريكي إلى الصين ، حاملاً معه اعترافه بوجودها وحقيقتها وقوتها .

* واضطرت الولايات المتحدة إلى الانسحاب من تورطها العسكري في فيتنام أمام حرب ، ربما لم تنهزم فيها عسكرياً ، ولكنها لم تستطع قطعاً أن تنتصر .

* ثم إن الحركة الآسيوية الأفريقية نامت تماماً من وقتها .

وإذن ، كان شواين لاي على حق . . . أنصفه التاريخ تماماً عندما أكد صدق رؤيته .

وهذه المرة كنت أتساءل : « ماذا فعلت به الأيام ؟ »

ماذا فعلت به الأزمة ـ الثورة الثقافية كما قلت ـ وقد كان في خضمها يحاول وسط البركان الهادر أن يحافظ على كل ما يمكن الحفاظ عليه :

* صورة الصين أمام العالم الخارجي .

* إنتاج الصين حتى لا يتأثر بعد حد معين .

* عناصر في الصين لا يمكن تعويضها مهما كان الأمر ، وفي مقدمة هذه العناصر علماء الصواريخ وعلماء الذرة وغيرهما من فروع التكنولوجيا المتقدمة ، وأعتقد أنه حافظ عليهم جميعاً من حمم البركان الذي فجرته الثورة الثقافية ، وقلب الصين كلها رأساً على عقب .

ثم ماذا فعلت به الانتصارات :

* ذهاب نيكسون إليه ، وقبل ذلك دخول الصين إلى مكانها الطبيعي في الأمم المتحدة وإلى احتلال مقعدها الدائم في مجلس الأمن ، ووقوف

دول العالم طابوراً ممتداً في انتظار دورها لتقدم اعترافها بوجود وحقيقة وقوة الصين .

* انتهاء الحرب الفيتنامية بالطريقة التي كان يتصورها منذ وقت مبكر ، وحين كان كثيرون من زعماء آسيا يعتقدون أن الولايات المتحدة لن تخرج من الهند الصينية إلا وقد حققت أغراضها كاملة ، لأنها كقوة أعظم في هذا العالم ، لا تملك ترف التراجع .

* ثم ظل الصين الذي يعود إلى آسيا ويصل إلى أفريقيا .

* * *

ولعلي أعترف أنني قلت لنفسي :

« انه مهما كانت الحالة التي سأجده عليها ، فإن شواين لاي قد أدى دوره ، ويكفيه أنه آخر الباقين من جيل العمالقة .

إن « ماوتسي تونج » ارتفع إلى مكانة أخرى ، وأصبح ضوءاً يشع من بعيد .

وأما هو « شواين لاي » فإنه ما زال وسط الساحة .

ولقد شهد العالم منذ الحرب العالمية الثانية جيلين من العمالقة :

* جيل الذين قادوا الحرب العالمية إلى النصر ضد الفاشية : روزفلت ، وتشرشل ، وستالين ، وماوتسي تونج ، وشواين لاي ، وديجول .

* ثم جيل ظهر بعد ذلك الجيل الأول ، وكان أبرز عمالقته : عبد الناصر ، ونهرو ، وخروشوف ، وتيتو ، وأيزنهاور ، وكنيدي .

ولقد ذهب الكل . . . ومن لم يذهب ابتعد ، وبقي شواين لاي وسط

الصراعات والأزمات ، والمفاوضات والتسويات ، يشارك في تشكيل مختلف ، وصفه هو في حديثنا بعد ذلك بقوله :

ـ تسألني كيف أرى المتغيرات في الدنيا ؟

انقسامات جديدة . . . تحالفات جديدة . . . فوضى في كل مكان .

هذا هو رأيي ! »

* * *

ولم يكن وصول « شواين لاي » إلى مصاف الجيل الأول من العمالقة وصحبته بعد ذلك للجيل الثاني من العمالقة ، ثم بقاؤه وحيداً بعد الجيلين ، مصادفة أو مغامرة .

لقد جاء لأسرة أرستقراطية ، ولا تزال ملامح وجهه وحركات يديه تشير إلى عراقة أصل لم يطغ عليها تاريخه الثوري الحافل .

بدأ يدرس في جو الفوران والتراجع الذي صاحب الثورة على أسرة مانشو سنة ١٩١١ ، وأصبح متمرداً ، ودخل السجن لستة شهور وهو بعد طالب في الجامعة ، ثم سافر إلى باريس ، فإذا هو لا يستكمل دراسته ، وإنما يواصل تمرده ، وإذا هو يشارك في إنشاء فرع للحزب الشيوعي الصيني في أوربا ، ويتصل بماوتسي تونج ، وكان ماوتسي تونج حزيناً وقتها ، لأن الحلفاء الذين كانوا يريدون مشاركة الصين معهم في الحرب ـ كانوا يريدون أيادي عاملة في خدمة مجهودهم الحربي ، ولا يريدون جنوداً للقتال ، لأن الصيني في رأيهم لا يصلح للحرب .

وكان ماوتسي تونج يبعث إلى شواين لاي يقول :

ـ « إننا نبعث بكتائب من الصينيين ، ولكننا لا نريدهم أن يتحولوا

في أوربا إلى خدم أوطهاة ، وإنما نريدهم كتائب قتال » .

وعاد شواين لاي إلى الصين يشترك في انتفاضات بعد انتفاضات ، نشأت كلها من خيبة أمل الصين في الحصول على حقها الشرعي في مؤتمر فرساي للصلح .

وأفلت « شواين لاي » مرات من الموت بأعجوبة .

وتزوج ، وشبح الموت يطارده ، برفيقة كفاح هي « تنج ينج تشاو » .

وفي فترة من الفترات أصبح رئيساً للقسم السياسي في كلية « وامبا » العسكرية التي كان يديرها في ذلك الوقت « شيانج كاي شيك » .

واختلف معه ، وحارب ضده ، وكان يقود مجموعة جيش بأكمله .

ثم كان رفيقاً لماوتسي تونج في الزحف الطويل إلى كهوف ينان ، وبرز في ذلك الوقت ، باعتباره الوجه الدولي البارز للثورة الصينية .

وحينما تمرد الماريشال « شانج هوسين ليانج » على سياسة « شيانج كاي شيك » ، التي أراد بها أن يصفي الثورة الصينية أولاً ، ثم يستدير إلى مقاومة الغزو الياباني للصين ـ ثانياً ـ فإن الماريشال ليانج قبض على « شيانج كاي شيك » ، وطلب أن يأتي « شواين لاي » لمفاوضته وإقناعه بإقامة جبهة وطنية صينية تتجمع لمواجهة الغزو الياباني أولاً ، ثم تصفي خلافاتها الداخلية فيما بعد .

ونجح « شواين لاي » ، وعاد مرة أخرى إلى قيادة مجموعة جيش ضد اليابان ، وفي تلك الفترة ، استطاع « شواين لاي » أن يكسب للثورة الصينية صداقات لها قيمتها حتى في الولايات المتحدة نفسها . . . أقنع جورج مارشال رئيس أركان حرب الجيش الأمريكي ووزير

الخارجية الأمريكية فيما بعد ... وأقنع أساتذة كباراً مثل « أوين لاتيمور » ... وأقنع صحفيين لهم شأن مثل « إدجار سنو » .

ومن يومها ظل وجه الثورة الصينية البارز أمام العالم الخارجي .

وتولى رئاسة الوزراء بعد انتصار الثورة ، وظل على مقعده من يومها ، من مؤتمر جنيف إلى مؤتمر باندونج ، وحتى ذهب ريتشارد نيكسون بنفسه يدق باب الصين ، بعد أكثر من عشرين ساعة من مفاوضات متصلة قضاها شواين لاي مع هنري كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومي .

* * *

وأعترف أنني تجاوزت في طلباتي هذه المرة من شواين لاي .

طلبت أن أقابله ، وقال لي « بنج هوا » وهو مدير الصحافة الأجنبية في وزارة الخارجية الصينية :

ـ « إنه سوف يقابلك » .

وقلت :

ـ « إنني أريد وقتاً كافياً معه » .

وعاد « بنج هوا » يقول لي :

ـ « إنه سوف يعطيك كل الوقت الذي تطلبه » .

وقلت :

ـ « لدي طلب آخر ... إن معي في هذه الرحلة إلى الشرق الأقصى مجموعة من رفاقي ، وأريد إذنه لكي يحضروا المقابلة معي ، فمن بين

أهدافي في هذه الرحلة أن أتيح الفرصة لشباب جديد يرى بنفسه ويتابع ليكون مستعداً لأداء دوره في أي وقت » .

وعاد « بنج هوا » يقول لي :

ـ « إنه سوف يقابل المجموعة كلها ، ما دام ذلك هو طلبك » .

* * *

وجاء الموعد في الساعة التاسعة مساء ، أي في نهاية يوم عمل حافل ، والرجل ـ حتى لا ننسى ـ في الرابعة والسبعين من عمره ، وعليه مسئولية ثمانمائة مليون إنسان .

وهو لا ينسى هذه الحقيقة في لحظة من اللحظات ، وإنما يبقى الرقم الهائل معه طول وقته ، وحتى حين يناقشه أحد في استهلاك الفرد من اللحم في الصين فإنه يقول :

ـ في أي بلد من بلدان العالم فإن استهلاك الفرد من أي مادة من المواد مسألة محتملة،وأما في الصين فعلى الذين يتكلمون أن يحسبوا بالأرقام،لأن الأرقام لها في الصين دلالة خاصة،إذا زاد استهلاك الفرد من اللحم كيلوجراماً واحداً في السنة فمعنى ذلك بالنسبة لنا ٨٠٠ مليون كيلوجرام ! ! » .

وكان الموعد في صالون ملحق بمكتبه في قصر الشعب ، الذي يواجه بوابة السلام الإلهي الشهيرة في قلب بكين .

والمبنى جديد ، أنيق ، والغريب أن الذين بنوه بأيديهم هم موظفو رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية،والأغرب أن شواين لاي شارك بيديه في عملية البناء لكي يفرغ المبنى في الموعد المقرر له وهو تسعة شهور .

وكنت أخلع معطفي بعد أن دخلت المبنى الدافئ ، من برد بكين ليلتها ، وكانت درجة الحرارة فيه ست عشرة درجة تحت الصفر ، حينما لمحت شواين لاي بحلته الرمادية التقليدية يخرج من غرفة الصالون إلى البهو الخارجي لاستقبالنا وبجانبه مترجمته الخاصة « شين يويون » .

وفوجئت به تماماً يسألني عن بعض شئوني الخاصة بالتفصيل .

وقلت ونحن بعد في الردهة :

ـ « هل أستطيع أن أسألك كيف تجد الوقت لتتذكر هذا كله ؟

وابتسم شواين لاي وقال :

ـ « سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد ، ولكن عليك الآن أن تعرفني برفاقك ، وأن نقف معاً لصورة تذكارية » .

* * *

بعدها مشينا إلى باب الصالون الملحق بمكتبه .

وكان ما يزال يتحدث . . .

سألني :

ـ « هل يعقل أن يذهب جمال عبد الناصر من أيديكم وهو بعد دون الثانية والخمسين . . . إنكم لم تحسنوا المحافظة عليه . . . وتركتم الضغوط تعتصره »

وقلت :

ـ « هذا قضاء الله وقدره » .

ولم يبد عليه أنه اقتنع ، ولكنه واصل أسئلته على أي حال .

قال :

ـ « كيف حال أسرته وأولاده ؟ »

قلت :

ـ « بخير » .

قال :

ـ « لقد حزنت لأن بعض الذين عملوا معه لم يستطيعوا أن يتعلموا منه » .

قلت :

ـ « هذه هي الطبيعة البشرية وحكمها جائز على كل الناس وفي كل مكان » .

وقال :

ـ « هذه أول زيارة لك في الصين ... إنك ذهبت إلى الاتحاد السوفيتي خمس عشرة مرة ، ونحن نحصيها عليك » .

وقلت :

ـ « إنك تدهشني مرة أخرى ... إنني شخصياً لا أتذكر كم عدد زياراتي للاتحاد السوفيتي ، ولم يخطر لي إحصاؤها ».

وقال :

ـ « نحن أحصيناها ، وعليك أن تعوض هذا الخلل في الموازين » .

كان الصالون الملحق بمكتبه هادئاً ، لا حرس ولا سكرتارية ، ولا أوراق ، ولا تليفونات .

وكانت الجدران أنيقة ، في ألوان هادئة ، عليها لوحات من أشجار وزهور كأنها قصائد شعر صيني رقيق تجمدت في ألوان .

وكانت المقاعد مصفوفة في نصف دائرة ، وبين كل مقعدين منها مائدة صغيرة .

وأقبلت ثلاث فتيات بالفوط الساخنة التقليدية في الصين .

وأخذ كل منا فوطة يمسح بها يديه .

وكنت أراقب شواين لاي .

لم يتغير فيه شيء : قوامه المنتصب ... عيناه تلمعان في ذكاء ... يداه الرقيقتان تتحركان بالفوطة الساخنة في أناقة ... شعره مسه شيب خفيف .

وجاءت فناجين الشاي المغطاة ... نوع الشاي الذي يفضله وهو النوع المسمى باسم « بئر التنين » .

* * *

وعاد شواين لاي يتكلم :

ـ « تذكر أيام باندونج .

من بقي من الذين كانوا هناك ؟ »

وراح يستعرض بعض الأسماء ويقول :

ـ « عبد الناصر ونهرو ذهبا . . . آخرون اختفوا من على المسرح . . . هناك أيضاً من أخطأوا . . . هل تتذكر « أونو » ـ رئيس وزراء بورما وقتها ـ من سوء الحظ أنه يتعاون الآن مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ويعيش في تايلاند ويتآمر على نظام « ني وين » .

تغيرت الدنيا كثيراً من أيام باندونج » .

وعاد يقول :

ـ « فهمت أن لديك أشياء كثيرة تريد أن تسألني فيها . . . سوف أتحدث معك ، وسوف أترك لك تقدير ما ينبغي ـ أو ما لا ينبغي ـ نشره » .

* * *

وبدأنا نتحدث ، وكانت الساعة قد أصبحت التاسعة والربع .

وعندما وصلنا إلى الساعة الحادية عشرة والربع ، قلت له :

ـ « لقد مضت علينا الآن ساعتان . . . وأنا أعرف أعباءك . . . فهل ترى أن نكتفي بهذا القدر وأتركك تستريح ؟ »

ونظر إلى ساعته ، ثم نظر إلي وسألني :

ـ « هل تعبت ؟ »

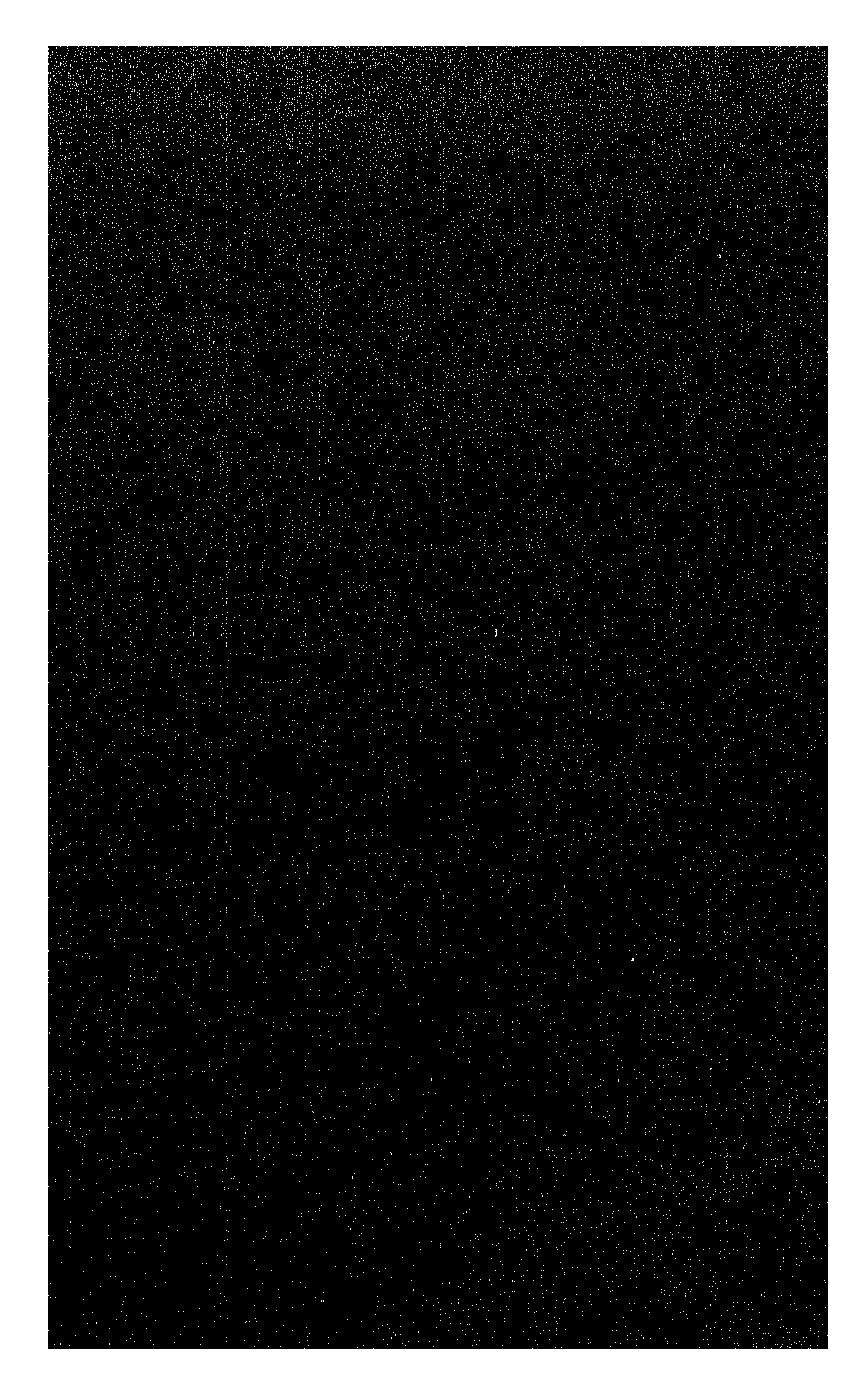
قلت :

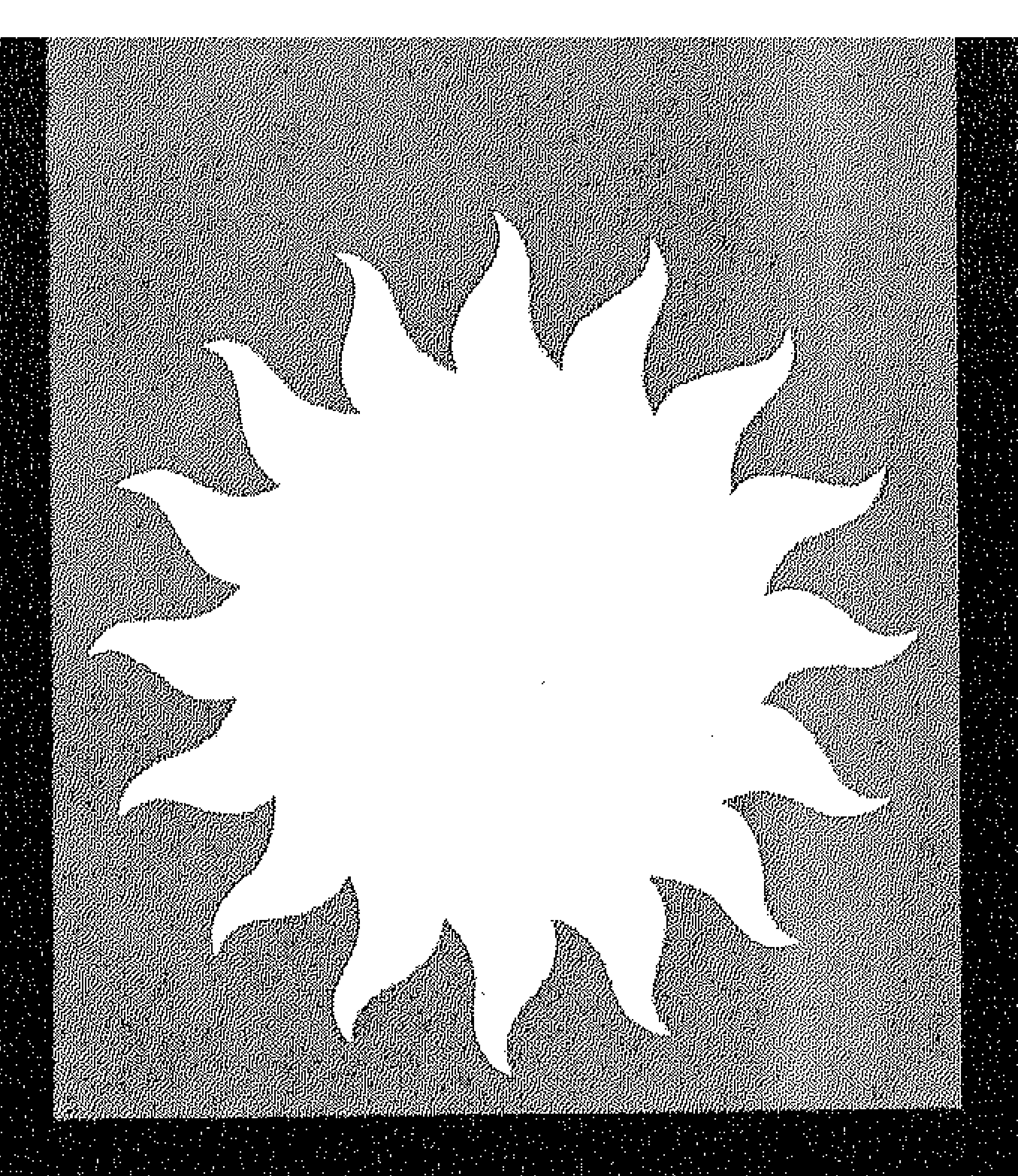
ـ « أنا لم أتعب ، ولكني أخشى أن أثقل عليك » .

قال :

ـ « ولا أنا تعبت ... دعنا نستمر » .

وامتد الحديث إلى الساعة الواحدة إلا ربعاً من الصباح .





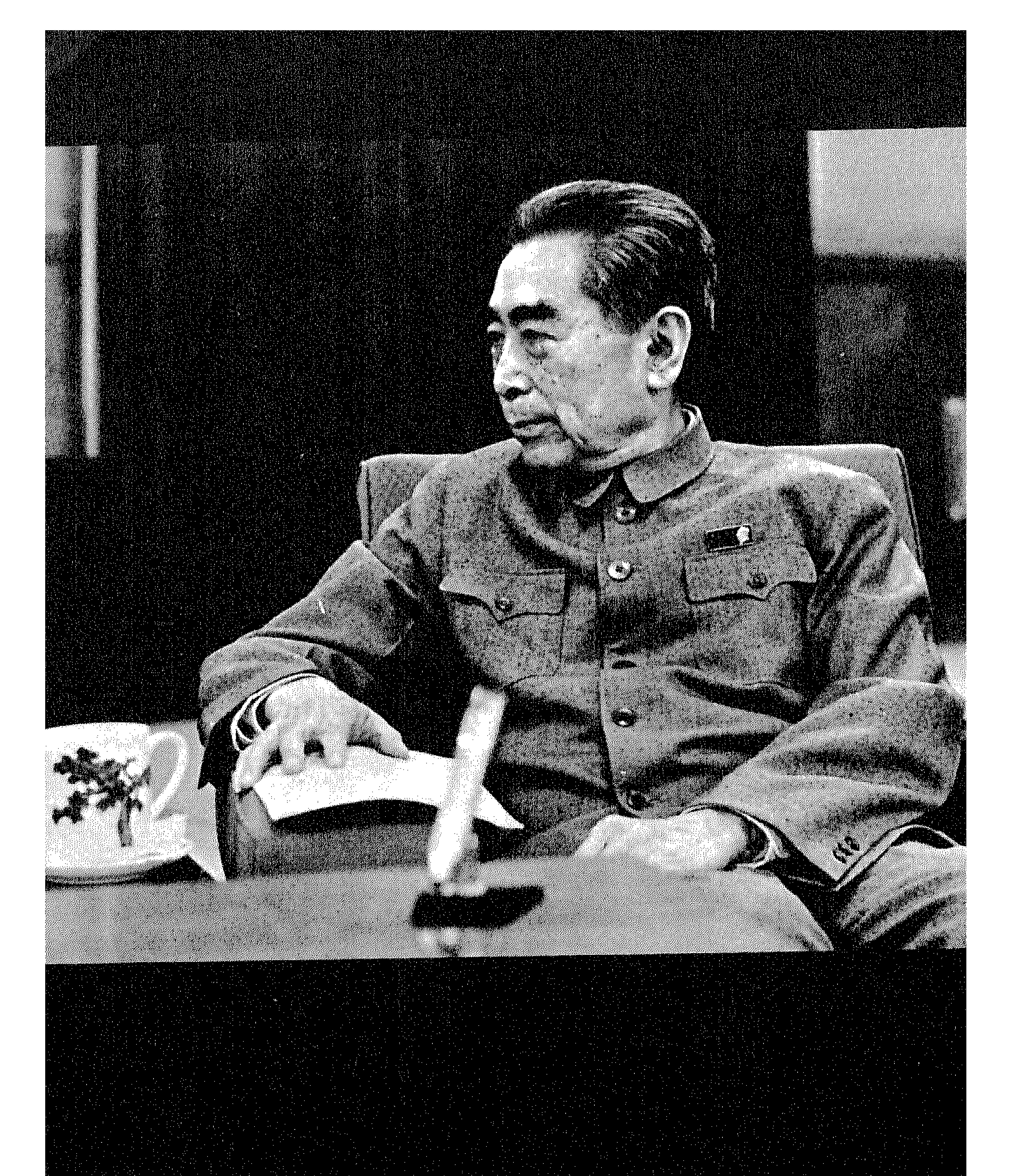
الشّرق أحمَر

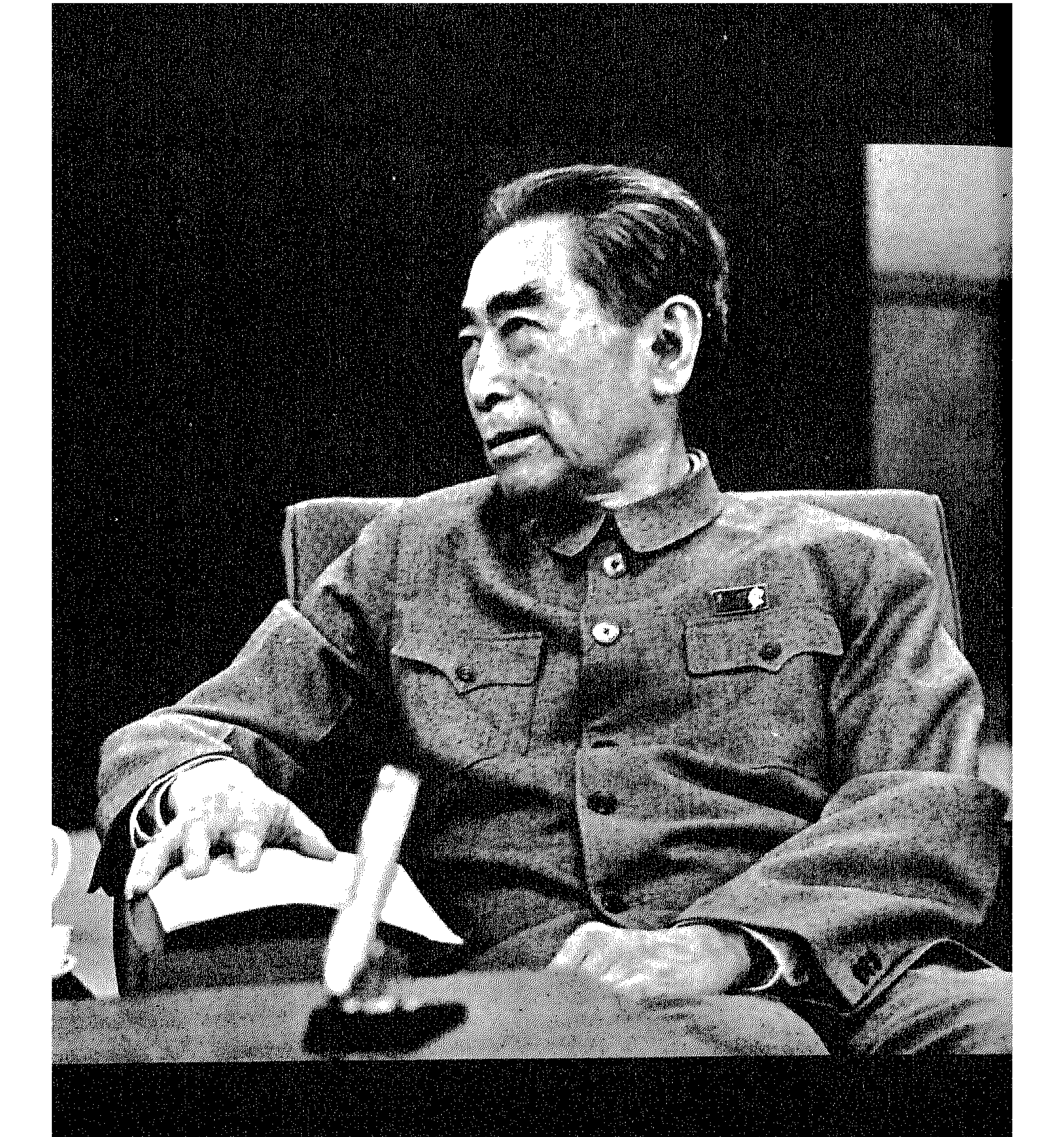


مُناقشة ممتدّة مَع شُواين لاي

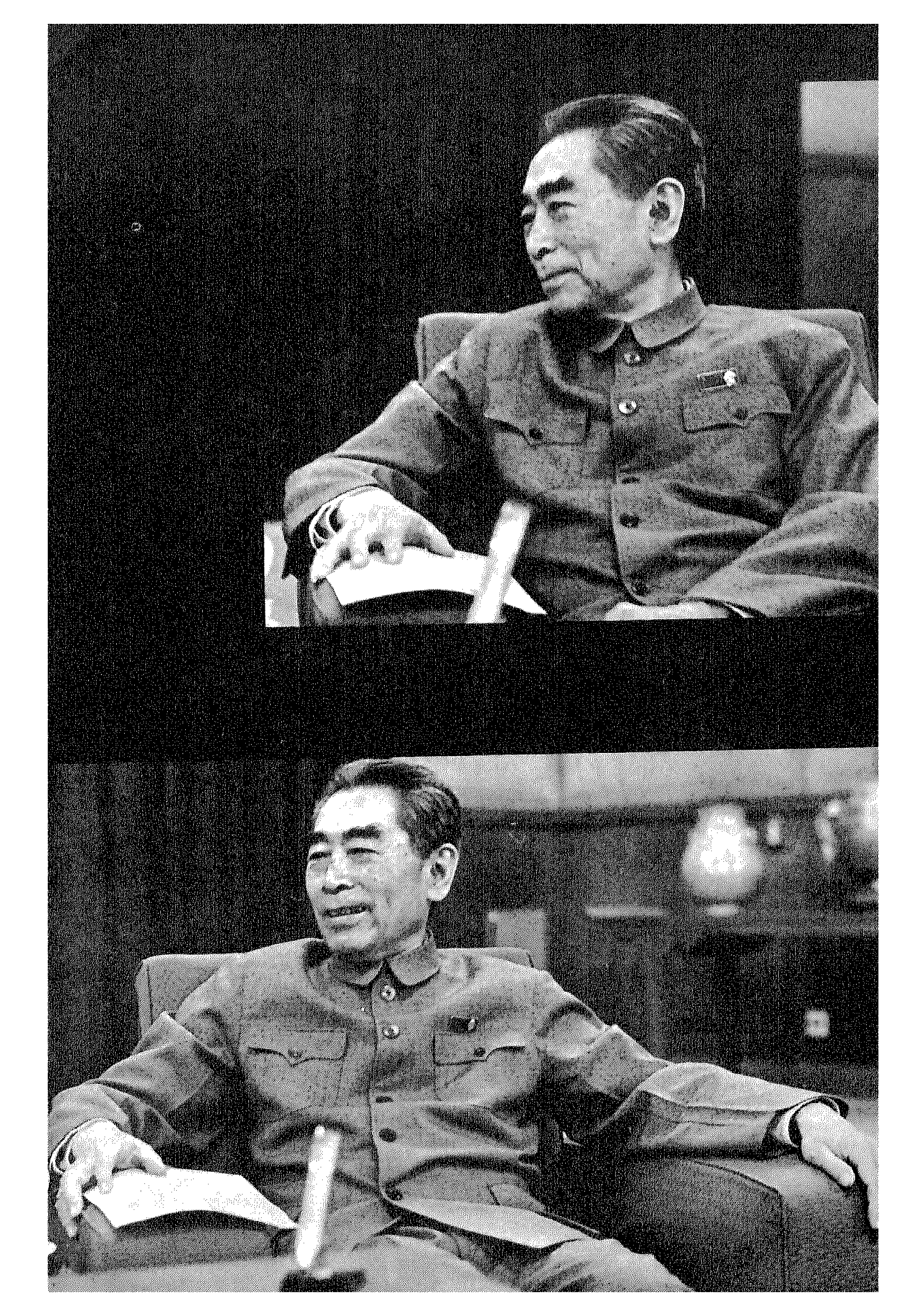


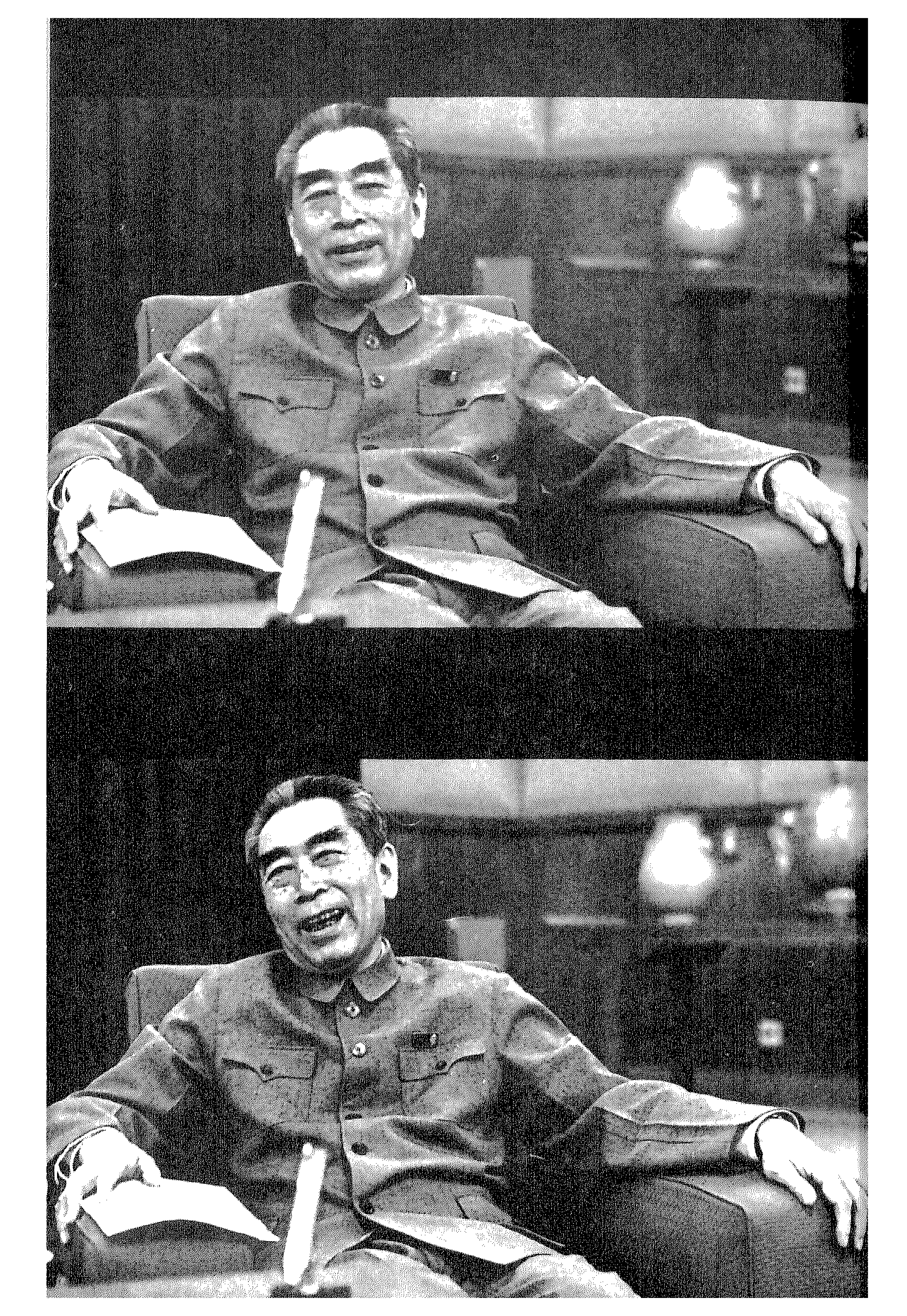
شواين لاي يتحدث إلى محمد حسنين هيكل
في بداية لقائهما في بكين





إن الذين يعرفون شواين لاي ، هذا الرجل الذي تجاوز عمره الرابعة والسبعين ، من بينها ربع قرن رئيساً لوزراء الصين ، يعرفون أنه محدث ساحر ... أفكاره تلم بالعصر كله ، ومشاكل العالم على أطراف أصابعه .





أظنني استطعت أن أستنتج الموعد المحدد لمقابلتي مع « شواين لاي » رئيس وزراء الصين ، من أول نظرة على برنامج زيارتي لبكين .

كان هذا اللقاء مع هذا الرجل الباقي من جيل العمالقة الأول ، بين ما طلبت قبل أن أحمل حقائبي من القاهرة إلى شنغهاي ، وكنت قد طلبت أيضاً أن تتاح لي الفرصة لكي أرى وأسمع كيف يعمل الحزب الصيني ويفكر ، وكيف تعمل الحكومة الصينية وتفكر ، وكيف يعمل الجيش الصيني ويفكر ، وطلبت أن أقابل أساتذة في الجامعات وصحفيين وكتاباً ، وطلبت أن أزور معاهد حزبية وسياسية ، وطلبت أن أشهد عمليات جراحية تجري بطريقة الوخز بالإبر ، وطلبت وطلبت وطلبت أشياء كثيرة ، من دخول المدينة المحرمة في بكين إلى النزول في شبكة الخنادق المحفورة تحت العاصمة استعداداً للحرب .

وأعترف أن جميع طلباتي أجيبت ، ووجدتها كلها مكدسة على برنامج الزيارة ، تملأ وقتي كله من السادسة صباحاً إلى منتصف الليل . . . كل يوم !

طلب واحد لم أجده محدداً على البرنامج ، وهو موعدي مع « شواين لاي » .

وعندما دققت في البرنامج وأعدت قراءته ، ظننت أنني استنتجت الموعد المحدد ، مع أنه لم يكن مدرجاً على صفحاته . .

كانت هناك أمسية متروكة بغير تحديد . ولأنني حاولت أن أفهم أسلوب الرموز الصينية ، فلقد طويت البرنامج ووضعته في جيبي ولم أقل شيئاً . .

ولم يضع استنتاجي ، ولم يصطدم بالخطأ ، فعند ظهر اليوم الذي كان مساؤه متروكاً بغير تحديد على البرنامج ، جاءني « شيانج شنج تسونج » نائب مدير قسم الصحافة الأجنبية بوزارة الخارجية يقول لي في أدب صيني جم :

ـ هل أستطيع أن أطلب إليك أن تبقى بعد ظهر اليوم في الفندق ولا تغادره . . هناك رسالة هامة سوف تبلغ إليك بعد الظهر » .

واحترمت أسلوب الرموز الصينية وقلت إنني سوف ألزم حجرتي في فندق الشعوب ، بشارع السلام السماوي في بكين ولن أبرحها حتى أتلقى الرسالة .

وفي الساعة السادسة مساء دق التليفون في غرفتي ، وكان « شيانج شنج تسونج » هو الذي يتكلم ليقول :

ـ أردت أن أطمئن فقط إلى أنك في غرفتك حتى نستطيع نقل الرسالة الهامة إليك فور تلقيها .. إنها لم تصل إلينا بعد ... ولكنها منتظرة في أي وقت من الآن » ..

وقلت :

ـ إنني في غرفتي أنتظر» .

ومرت ساعة ونصف الساعة ، ودق التليفون مرة أخرى ، وكان « شيانج شنج تسونج » هو الذي يتكلم مرة أخرى ليقول إنه قادم إلى غرفتي ، وجاء « شيانج » وإذا هو يقول :

ـ إن لديك موعداً هاماً هذه الليلة ، ولعلك تكون مستعداً ... إننا سوف نتحرك من هنا بعد ساعة ... فهل هذا يوافقك ؟ » .

وقلت متخابثاً ـ أعترف بذلك ـ :

ـ مع من موعدي ؟ ... إنك لم تخبرني على وجه التحديد » .

وبدا لي أنني خرجت على أسلوب الرموز الصينية ، لأن جفون شيانج اختلجت بسرعة ، ولكنه تمالك نفسه ليقول :

ـ إنني لم أخطر بذلك رسمياً ... ولست مخولاً بعد أن أقول شيئاً محدداً » !

ولم تكن هناك فائدة في متابعة الضغط ..

وتركني « شيانج » في غرفتي ليعود بعد ساعة ويقول :

ـ سوف نتحرك من هنا في ظرف ربع الساعة ! » ..

وقلت له متخابثاً مرة أخرى :

ـ إلى أين ؟ »

وفي هذه المرة كان شيانج مستعداً ... لم تختلج جفونه ، وإنما قال بابتسامة صينية غامضة :

ـ سوف أقول لك ونحن في السيارة » .

وعندما ركبنا السيارة ، ومضت بنا وسط أضواء شارع السلام السماوي في اتجاه بوابة السلام السماوي وقصر الشعب الذي يواجهها ، قال لي شيانج همساً :

ـ موعدك مع الرئيس شواين لاي ! » .

* * *

لقد بدأ لقائي مع الرئيس شواين لاي ـ كما قلت في مقال مسبق ـ في الساعة التاسعة مساء .

وفي الساعة الحادية عشرة ، أي بعد ساعتين ، خشيت أن أكون أثقلت عليه ، بعد يوم عمل حافل ، وفي سن الرابعة والسبعين ، وبمسئوليات تحمل على نفسها أعباء ثمانمائة مليون إنسان ، وفي وسط ساحة دولية تقف فيها الصين قوة ضخمة وسط قوى ضخمة ، وقلت له :

ـ هل ترى أن نكتفي بهذا القدر من الحديث وأتركك تستريح ؟ »
ونظر إلى ساعته ثم نظر إلي وسألني :
ـ هل تعبت ؟ »

قلت :
ـ أنا لم أتعب ، ولكني أخشى أن أثقل عليك ؟ » .

قال :

ـ ولا أنا تعبت ... دعنا نستمر» .

وامتد الحديث بعد ذلك إلى الساعة الواحدة إلا ربعاً من الصباح ، أي أنه امتد بطول أربع ساعات إلا ربع الساعة .

* * *

كان الحديث حواراً متصلاً ، شمل قضايا قريبة وبعيدة ، وطاف بغير قيود أو حدود على أبرز ظواهر العالم والعصر ، وتعرض لشخصيات ذهبت وشخصيات ما زالت على المسرح الدولي .

وأريد أن أضع بعض الملاحظات قبل أن أترك المجال للحوار نفسه وسياقه :

١ – إن الرئيس «شواين لاي» ترك لي ـ مشكوراً ـ تقدير ما يجوز أو لا يجوز نشره مما قال ، وقد حاولت أن أفعل ذلك ، وأتمنى ألاّ تكون أخطائي فيه فادحة ، وإذا حدث ذلك فاللوم علي وحدي .

٢ – إنه كانت هناك قضايا خلافية لم نستطع خلال الحوار أن نتفق فيها على رأي واحد ، ولكني بغير إلحاح شرحت وجهة نظري له ثم تركت له وجهة نظره تظهر في مكانها من الحديث وبحجمها فيه لأن هذا حقه .

٣ – إن الرئيس شواين لاي كان حاداً في كل ما يتعلق بالاتحاد السوفيتي ، وهذه مسألة تتعلق برؤية الصين للصراع الدولي الواسع ولدور النزاع الصيني ـ السوفيتي في هذا الصراع ، ومن الواضح أن هذا النزاع عنصر أساسي في تحريك سياسة الصين الخارجية .

وأنتقل بعد ذلك إلى محضر شبه كامل لمجرى الحديث .

كانت الدقائق العشر الأولى من الحديث مجاملات وذكريات ، وكان الحديث يدور باللغة الإنجليزية ، وتتولى ترجمته « شين يو يون » المترجمة الخاصة « لشواين لاي » ، وكانت تجلس على يمينه ، بينما كنت أجلس على يساره ، وكان هو يتابع أسئلتي بالإنجليزية ـ وهو يجيدها ـ ويتابع ترجمتها إلى الصينية ، ثم يتابع ترجمة إجاباته إلى بالإنجليزية ، وتدخل أكثر من مرة لتصحيح الترجمة برفق يلفت نظر « شين يو يون » إلى تعبير أكثر دقة ، واتهمها مرة وهو يبتسم ، بأنها تغالب النعاس بصعوبة ، وكانت « شين يو يون » تدافع عن يقظتها بغير خوف أو رهبة ، وتصحح ترجمتها للأسئلة والإجابات وفق ملاحظات شواين لاي ، وكانت كلها ـ للحق ـ بالغة الدقة والتحديد .

ووصلنا إلى صلب الحوار ، وقد مضى على النحو التالي :

ـ سؤال : سيادة الرئيس ، أريد أن أبدأ بسؤال عن الأزمة التي تعانيها حركة التحرر الوطني ...

أعتقد أنها تواجه أزمة بالفعل ، لأن هناك متغيرات كثيرة في العالم لم تؤقلم نفسها بعد عليها ، ويخطر ببالي ـ وربما ببال غيري كثيرين ـ أن استحكام النزاع الصيني السوفيتي يؤثر تأثيراً سلبياً في حركة التحرر الوطني ، لأنه يحرمها من وحدة أقوى أصدقائها وهو الجبهة المعادية للاستعمار وتماسكها .

إننا في أزمة الشرق الأوسط نستطيع أن نلمح أثر ذلك في الفارق بين ما واجهناه سنة ١٩٥٦ وما واجهناه سنة ١٩٦٧ .

سنة ١٩٥٦ ، كانت هناك وحدة في الجبهة المعادية

للاستعمار ، وكانت هذه الجبهة قوة مساندة لنا ، ولقد أحسسنا سنة ١٩٦٧ ، أن هذه الجبهة لم تؤد دورها بالفاعلية المطلوبة ، ويرى بعضنا أن انكسار هذه الجبهة بالنزاع الصيني السوفيتي ربما كان من ضمن الأسباب » ..

* شو اين لاي : هناك نقطة يجب ألّا تغيب عنا ، وهي أن نضال أي شعب، تحكمه بالدرجة الأولى الاستراتيجية التي يتبعها هذا الشعب نفسه لتحقيق أهداف نضاله ، وكل ما عدا ذلك من الخارج يجيء كعوامل مساعدة .

في سنة ١٩٥٦ ، كانت تجربتكم مجيدة ، وكانت استراتيجيتكم في رأيي ناجحة .

في ذلك الوقت ، فإن إيدن رئيس وزراء بريطانيا ، وجي موليه هذا الفرنسي الذي كان يدعي الاشتراكية ارتكبا خطأ كبيراً .

إن إيدن كان سياسياً قديماً ، وقد أدهشني أنه وقع في الخطأ الذي وقع فيه ، ولم يستطع إطلاقاً أن يقدر موقفه ، ولا أن يجري حساباته .

لقد أخفى كل شيء عن أمريكا ، وكان يجب أن يعلم أن أمريكا سوف تعارضه .

والذي حدث أن خروشوف استغل هذا الوضع .

كان خروشوف قد عرف أن أمريكا لا توافق على الغزو ، وكان يعرف أن الإنجليز والفرنسيين سوف يضطرون إلى الانسحاب ، وهكذا فإن خروشوف أطلق ـ بالإنذار السوفيتي ـ ما يمكن أن نسميه ـ بحق ـ بندقية فارغة وتظاهر بأنه يساعدكم .

« سؤال : هل أستطيع أن أسألك كيف كان يمكن

لخروشوف أن يعرف أن الانجليز والفرنسيين سوف يضطرون إلى الانسحاب ؟ » .

* شواين لاي : عرف ذلك من اتصالاتهم مع واشنطن ... إن خروشوف بنفسه اعترف بذلك للرئيس ماوتسي تونج عندما التقى به في موسكو سنة ١٩٥٧ ، بمناسبة مؤتمر الأحزاب الشيوعية العالمية الذي عقد في العيد الأربعين للثورة السوفيتية .

أنت تعرف خروشوف شخصياً .

وكلنا يعرف ماذا كان يمكن لخروشوف أن يقوله بعد نصف دستة من الكئوس ؟

في موسكو في ذلك الوقت ـ سنة ١٩٥٧ ـ كان خروشوف هو الذي اعترف بذلك بنفسه وللرئيس ماو شخصياً ... قال له إننا لم نغامر في السويس ، وإنما كنا نعرف أن الولايات المتحدة سوف ترغم بريطانيا وفرنسا على الانسحاب .

ولكن ما هو أهم من ذلك كله هو أن عبد الناصر رسم استراتيجية سليمة في السويس ، واعتمد أولاً وأخيراً على شعبه ، وأنا زرت بور سعيد بنفسي وشاهدت المتحف التذكاري في المدينة ، وعرفت كيف أن الشعب المسلح هو الذي قام بالدور الرئيسي في إحباط الغزو .

لو لم يكن الشعب قد وقف بقيادة عبد الناصر في بورسعيد ، فإن الخلاف بين واشنطن وبين لندن وباريس كان يفقد تأثيره .. وحتى بندقية خروشوف الفارغة كانت تفقد فرقعتها .

إن الاتحاد السوفيتي لم يستطع أن يعرف موقف أمريكا بالضبط سنة ١٩٦٧ .

وأمريكا استفادت من ضعف الاتحاد السوفيتي ، ولذلك كانت جرأتها أشد سنة ١٩٦٧ ، وكان ذلك شيئاً مؤسفاً ...

للحق ، فإن خروشوف كان يتكلم كثيراً وبصوت عال .

وأما بريجينيف فإنه أقل جرأة وأكثر ضعفاً ، ومع الأسف فإنه بدا أمام أمريكا وكأنه مثل الفأر .

[يتوقف الرئيس شواين لاي يستمع إلى الترجمة ، ثم لا تعجبه ترجمة « شين يو يون » لما قاله ويتدخل بنفسه بالحديث بالإنجليزية قائلاً :

– أنا لم أقل مثل الفأر فقط ...

أنا قلت إنه وقف مثل الفأر أمام القط]

واستطرد شواين لاي يقول :

– إن كثيرين تعلموا من التجربة التي دفعتم أنتم ثمنها سنة ١٩٦٧ .

إن التجارب التي يمر بها قادة وشعوب ، يستفيد منها آخرون : قادة وشعوباً .

« نوردوم سيهانوك » مثلاً كان أكثر حذراً بعد الدرس الذي تعلمه من تجربتكم سنة ١٩٦٧ .

إن أمريكا قامت بتدبير انقلاب ضد « سيهانوك » في كمبوديا ... لا شك أن أمريكا دبرت هذا الانقلاب بواسطة مخابراتها المركزية ، ولكنها رفضت أن تعترف بما دبرت .

إن « سيهانوك » كان في موسكو وعرف الروس أن انقلاباً وقع في كمبوديا ، ولكنهم لم يبلغوه بما وقع ... أبلغوه فقط في المطار وعند

الطائرة ... كانت أخبار الانقلاب ضده مذاعة في العالم كله ، ولكنهم لم يبلغوه في وقتها ، وربما قطعوا عنه الخطوط التليفونية لكي لا يقعوا في حرج .

إن « سيهانوك » جاءنا في بكين ، ووضعنا تحت تصرفه كل إذاعتنا وكل صحافتنا ليذيع منها بياناته وأفكاره ، وليوجه تعليماته إلى المقاتلين معه .

لقد أتحنا له الفرصة التي لم تتحها بريطانيا للجنرال ديجول في الحرب العالمية الثانية .

كان الإنجليز يحبسون ديجول تقريباً ويمنعونه من مخاطبة الفرنسيين .

نحن لم نعامل سيهانوك بهذه الطريقة ، ليس لأنه صديق قديم لنا من أيام باندونج ، ولكن لأنه رئيس دولة صغيرة حاول أن يعبر عن أماني شعبه .

ولكن أمريكا خانته ، وفرنسا لم تساعده ، وروسيا رفضت أن تعترف به ، ولهم الآن سفارة في بنوم بنه ، حيث حكومة أقامها انقلاب تم بمساعدة وتدبير المخابرات المركزية الأمريكية .

إن عبد الناصر أعطى اعترافه لسيهانوك برغم الأزمة التي كان فيها سنة ١٩٧٠ ...

كانت مصر من أوائل الدول التي اعترفت بسيهانوك ، وأصبح سفيرهم في ذلك الوقت في القاهرة وهو « سارين شاك » ، وزيراً لخارجية كمبوديا الحرة مع سيهانوك .

« سؤال : سيادة الرئيس ... معذرة إذا عدت إلى

الإلحاح على سؤالي الأصلي عن الأزمة التي تعانيها حركة التحرر الوطني ...

بعد باندونج والسويس ، كان هناك ازدهار في حركة التحرر الوطني .

ثم وقعت متغيرات كثيرة ، يبدو لي أننا لم نستطع تحليلها بالسرعة الواجبة ، ولا بالعمق الكافي .

ولقد كانت قمة الازدهار هي سنة ١٩٦٤ ، حينما شهدت القاهرة مؤتمراً عربياً على مستوى القمة في يناير ، ثم مؤتمراً أفريقياً على مستوى القمة في يوليو ، ثم مؤتمراً عربياً على مستوى القمة في سبتمبر [عقد بالإسكندرية] ، ثم مؤتمراً لدول عدم الانحياز على مستوى القمة في أكتوبر .

منذ ذلك الوقت تغيرت أشياء كثيرة .

انقضت ضربات الاستعمار والثورة المضادة واحدة بعد الأخرى ، وسقطت قلاع أفريقيا قلعة بعد قلعة .

وظل التراجع معنا حتى وقعت مأساة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، لقد كانت أكثر من هزيمة لمصر ... كانت هزيمة لحركة الثورة الوطنية كلها » .

* شواين لاي : لقد تدخلت عوامل كثيرة ...

هل تتذكر الأسباب التي أدت إلى عرقلة المؤتمر الأفريقي ـ الآسيوي الثاني ، وكان مقرراً عقده في الجزائر سنة ١٩٦٥ ؟

في ذلك الوقت جئت عندكم في القاهرة ، وقضيت أكثر من عشرة

أيام مع عبد الناصر ، في انتظار تذليل العقبات أمام المؤتمر ... ولكن المؤتمر لم ينعقد .

لقد كنت أتابع جو القاهرة سنة ١٩٦٤ ، والفوران الذي كانت تشهده .

أتذكر أنكم قبضتم على « تشومبي » جلاد لومومبا في الكونجو ، بينما كان كل رؤساء الدول الأفريقية مجتمعين في القاهرة ، وقد استمر المؤتمر في انعقاده وأصدر قراراته ، رغم أن تشومبي رئيس وزراء الكونجو وقتها ، وكان قادماً لحضور المؤتمر ، لم يدخل قاعته ، وإنما بعث به عبد الناصر إلى السجن ؟

[وقلت هنا :

– إن تشومبي لم يوضع في السجن ، وإنما احتجز في بيت ضيافة ، وقد ذهبت إلى هناك ورأيته وتحدثت معه بنفسي ، وكان في حالة سيئة من خشيته على حياته ، وخوفه من أن يحدث له شيء » .

وقال شواين لاي :

– لا بد أن ذلك كان منظراً مسلياً .. الصحفيون يرون أحياناً مشاهد مثيرة لا يستطيع غيرهم أن يراها » .

ثم استطرد شواين لاي :

– إن تشومبي على أي حال انتهى نهاية سيئة ... اعتقل بعد ذلك في الجزائر ومات في السجن».

وعاد الرئيس شواين لاي إلى سياق الحديث الأصلي بعد هذا الاستطراد :]

* شواين لاي ـ ما تقوله عن حركة التحرر الوطني صحيح ، علينا أن نذكر أن كل حركة إنسانية تشهد أوقات صعود كما تشهد أوقات هبوط ... ربما تغيرت بعض الظروف كما تقول ولم تستطيعوا متابعتها ولكني ألمح في الفترة الأخيرة أن حركة التحرر الوطني بدأت تنشط من جديد خصوصاً في أفريقيا . إن مصر تستطيع أن تقوم بدور بارز في حركة التحرر الوطني ، إنكم فعلتم ذلك دائماً ، وتستطيعون الاستمرار فيه الآن ... دوركم هو دور القيادة ولا بد أن تحملوا مسئولياتكم بكل ثقة .

واستطرد الرئيس شواين لاي مرة أخرى إلى نقطة فرعية قال لي :

– إن موبوتو رئيس الكونجو ـ زائير ـ موجود في بكين الآن وقد فهمت أنك قابلته بالأمس » .

وقلت :

– ذلك صحيح ... إن الرئيس موبوتو عرف أنني في بكين ودعاني إلى سهرة متأخرة معه كصحفي أفريقي » ..

وبدا كأن شواين لاي قد تذكر شيئاً كان في باله ... وقال :

– لقد نسيت أن أسأل موبوتو عندما قابلته عن سبب احتفاظه بمستشار عسكري إسرائيلي معه ؟ » ..

وقلت لشواين لاي :

– إنني وجهت نفس هذا السؤال لموبوتو أمس » .

وقال شواين لاي :

– كيف أجابك على سؤالك ؟ » .

قلت :

– لقد روى لي قصته عندما كان قائداً للجيش ثم وقع انقلاب تولى فيه السلطة ، بعد تدهور الأحوال العامة في الكونجو ، وكانت بعض الدول الأفريقية وبينها مصر تؤيد خصمه جيزنجا خلفاً للومومبا وحينئذ ـ هكذا قال لي موبوتو ـ « لم يكن أمامي إلا أن أستعين بالإسرائيليين وأخذت نواة لواء مظلات وذهبنا للتدريب في إسرائيل،ولقد عادوا جميعاً إلى الكونجو وهم يحملون معهم ذكرياتهم من إسرائيل وهكذا كانت البداية » .

وقال شواين لاي :

– غريبة ... نحن أيضاً كنا نؤيد جيزنجا ، وربما من ذلك ظل موبوتو حتى العام الماضي لا يعترف بالصين الشعبية وإنما يعترف « بشيانج كاي شيك » وما يسمونه بالصين الوطنية في تايوان .

لكن موبوتو قطع علاقاته بشيانج كاي شيك في العام الماضي وقدم اعترافه بالصين الشعبية وتحسنت علاقاته معنا حتى جاء هذه المرة لزيارتنا ... لا بد أن نشجع هذه الاتجاهات » .

واستطرد شواين لاي :

– إنني سوف أقابل موبوتو مرة أخرى غداً قبل سفره

من بكين وسوف أكلمه في موضوع صلته بإسرائيل » .

وقلت :

– إن ذلك يمكن أن يكون مفيداً » .

واستطرد شواين لاي :

– إن إسرائيل فيما أرى تواجه موقفاً صعباً في أفريقيا ... إن عيدي أمين في أوغندة بدأ خطوة موفقة بطرد الإسرائيليين من بلاده » .

واستدرك شواين لاي يقول :

– ما هي الدول الأفريقية التي تستعين بخبراء عسكريين من إسرائيل ؟ » .

ورحنا نعد هذه الدول معاً .

وقال شواين لاي :

– لا بد أن تتحركوا لمطاردة إسرائيل في أفريقيا » .

ثم استطرد شواين لاي يقول :

– نحن لم نعترف بإسرائيل ولم نجر معها أية اتصالات منذ قيامها بالرغم من أنهم حاولوا ، وبالرغم من أنهم صوتوا هذه المرة الأخيرة تأييداً لدخولنا إلى الأمم المتحدة » .

ومضى شواين لاي وهو يشير بيده إلى « تشياو كوان هوا » نائب وزير خارجية الصين وكان رئيساً لوفدها غير العادي إلى الأمم المتحدة بعد دخولها إلى المنظمة الدولية ـ وقال شواين لاي :

عندك هنا رئيس وفدنا في الأمم المتحدة ... إن مندوب إسرائيل حاول أن يقابله مرتين عندما كان في نيويورك ولكنه رفض، وهذا هو موقفنا » .

وقلت :

– إنني فهمت أن الإسرائيليين بعثوا إلى بكين برسل ورسائل من أجل إقامة علاقات معكم ... أظن أن السياسي الفرنسي منديس فرانس حمل إليكم عندما زار بكين رسالة من تل أبيب ... فهمت أيضاً أن بعض وزراء الخارجية من أوربا الغربية الذين زاروا الصين أخيراً حملوا أيضاً رسائل من تل أبيب » .

وقال شواين لاي :

– منديس فرانس تحدث فعلاً في هذا الموضوع ... ولكن أحداً غيره لم يحمل إلينا رسائل ... صحيح أن البعض حاولوا فتح الحديث في الموضوع ولكننا قلنا لهم بوضوح إننا غير مهتمين » .

ولاحت ابتسامة على وجه شواين لاي وقال :

– هل تعرف أنه لا يوجد في الصين يهود على الإطلاق الآن ؟ » .

قلت :

– أعرف ذلك » .

وقال شواين لاي :

– كان في الصين كلها اثنان من اليهود أحدهما اسمه « ساسون » والآخر اسمه « خاتون » وكانا في شنغهاي يعملان بالتجارة وقد مات أحدهما ورحل الثاني،ونحن صادرنا أملاك الاثنين .

بيت ساسون في شنغهاي هو مقر لجمعية الصداقة السوفيتية الصينية،وبيت خاتون أصبح بيت ضيافة » .

واستطرد شواين لاي :

– هذان هما كل اليهود في الصين ولم نعرف غيرهما » .

واستدرك مرة أخرى :

– عندما قامت إسرائيل وتقدمت لعضوية الأمم المتحدة لم تكن الثورة قد انتصرت بعد في الصين ولم نكن موجودين في الأمم المتحدة ... لو كنا موجودين لاعترضنا على دخول إسرائيل ولكن لسوء الحظ أن شيانج كاي شيك صوت بالموافقة ».

وابتسم شواين لاي وهو يقول :

– الاتحاد السوفيتي أيضاً صوت بالموافقة ! »

وحاولت أن أعود بالحديث مرة أخرى إلى مجراه الأصلي .

ـ« سؤال : سيادة الرئيس ، قد تأذن لي أن أختلف معك في تقييمك للنشاط البادي الآن في حركة التحرر الوطني .

إن حركة التحرر الوطني فيما أرى مضروبة الآن .

ويبدو لي أن بعض ما نراه الآن في أفريقيا مجرد واجهات براقة ، أو هي جزر منعزلة .

سوف أكون صريحاً وأقول لك إن الدول الصغيرة لم تعد الآن تستطيع ممارسة دورها في التأثير العالمي بأمان .

إن الدول الصغيرة لا تستطيع أن تمارس دورها في هذا العالم منفردة .

الدول الصغيرة مثل الفرد العادي لا بد أن يمارس دوره من خلال انتمائه واتصاله بغيره على أساس وحدة المصلحة .

الفرد العادي يؤدي دوره من خلال مجتمع ... من خلال حزب ... من خلال قبيلة أو أسرة .. من خلال ناد فكري أو سياسي ـ مثلاً .

الدول الصغيرة نفس الشيء ... لا بد لها من درع أو غطاء تمارس دورها من ورائه .

كانت لنا في يوم من الأيام حركة التضامن الآسيوي الأفريقي . .

كانت لنا في يوم من الأيام حركة الدول غير المنحازة .

كنا نستطيع من وراء هذه الحركات أن نمارس أدواراً تتعدى طاقة أي دولة واحدة بمفردها وكنا نستطيع أن نجعل رأينا مسموعاً في الساحة الدولية .

الآن تعرضت كل هذه الدروع لأقسى الضربات .

أين حركة التضامن الآسيوي الأفريقي ؟

أين حركة الدول غير المنحازة ؟

لقد حدث شيء آخر أشد صعوبة وهو اتجاه الوفاق على القمة الدولية خصوصاً اتجاه الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

ونحن نعاني من أثر ذلك عملياً في منطقتنا ... في أزمة الشرق الأوسط .

وإذا كنا نتحدث عن حالة اللاسلم واللاحرب التي تمسك بخناق أمتنا العربية الآن فلعلي أقول لك إنها في بعض جوانبها أثر من آثار المتغيرات الدولية الجديدة وأهمها الوفاق على القمة بين الكبار .

دعني أذكرك ـ يا سيادة الرئيس ـ بأن الحرب الحديثة تحتاج إلى أسلحة متطورة،ومن هذه الناحية فإن أزمة الشرق الأوسط لا يمكن عزلها عن القوى العظمى في عالمنا باعتبارها المنتج الوحيد للسلاح المتطور .

هكذا نرى أمامنا في أزمة الشرق الأوسط مشكلتين :

الأولى ـ أن الغطاء أو الدرع الدولي الذي كنا نمارس من ورائه حركتنا العالمية مضروب .

الثانية ـ أن الوفاق على القمة يفرض على الأزمة عند القاعدة قيوداً مرهقه .

وهكذا ترى الشعوب التي تعيش صراعات أو أزمات ساخنة نفسها في مأزق ، ولست أقول بذلك إن الطرق مسدودة أمام مثل هذه الشعوب ولكن أقول إنها تواجه

مواقف صعبة .. بالغة الصعوبة ؟ » .

* شواين لاي : الحقيقة أنني كنت أتحدث عن أفريقيا السوداء في هذا الصدد .

هناك في منطقتكم أفريقيا السوداء إلى الجنوب .

وهناك العالم العربي .

وأنتم في مصر ـ واقعاً ـ تنتمون إلى العالم العربي ، كما أنكم مرتبطون بأفريقيا ... ألم تكن مصر أول بلد عربي يحصل على استقلاله . أوَ لم تكن أول بلد افريقي يحصل على استقلاله ؟

عندما كنا نتكلم فقد كنت أركز غلى أفريقيا السوداء وحركات التحرير فيها ورأيي أن هذه الحركات تتصاعد والموقف هناك يتحسن وهناك اتجاه ظاهر إلى الاتحاد والمقاومة .

في الماضي كانت دول أفريقيا السوداء مختلفة فيما بينها حول قضية الحوار مع النظام العنصري في جنوب أفريقيا ... والآن يرفض أكبر عدد من هذه الدول فكرة الحوار .

في الماضي كانت دول غرب القارة في تعارض مع دول شرق القارة ... وهذا الموقف انتهى الآن وحين حاول البرتغاليون غزو غينيا وقاوم سيكوتوري فإن أغلبية دول أفريقيا السوداء شرقاً وغرباً أدانت الغزو.

في الماضي كان هناك عداء شديد بين زائير والكونجو برازافيل والآن تخف حدة هذا العداء .

قبل شهور كانت الحرب على وشك أن تنشب بين أوغندا وتانزانيا

والآن وبوساطة دول أفريقية فإن التوتر على حدود البلدين أقل .

لجنة تصفية الاستعمار اجتمعت في لوساكا ثم في أديس أبابا واتجاه اللجنة طيب .

واللجنة التحضيرية لمؤتمر دول عدم الانحياز اجتمعت في دار السلام ثم لوساكا ، واجتمعت أخيراً لجنة وزراء الخارجية في جورج تاون في جيانا .

وكان اجتماع جيانا أفضل من اجتماع لوساكا وكان اجتماع لوساكا أفضل من اجتماع دار السلام .

وأنتم أعضاء في كل هذه المؤتمرات. أنتم مؤسسون في كل هذه الحركات، في حركة الوحدة الأفريقية وفي حركة عدم الانحياز .

* سؤال ، قد نتناقش طويلاً حول هذا كله وحول قيمته العملية في ظروف العالم المتغيرة ومع ذلك فدعني أركز على أزمة الشرق الأوسط ؟

* شواين لاي : إن هناك الآن اتفاقاً حول مشكلة فيتنام، ولكم أن تتذكروا أن الحرب هناك استمرت طويلاً، وقد كتبت عدة مرات في هذا الشأن للرئيس جمال عبد الناصر وقلت له : « ليس أمامكم إلا أن تعتمدوا على أنفسكم ... وعلى أصدقائكم أن يساعدوكم » .

ومن سوء الحظ أننا بعيدون عنكم .

هناك مثل صيني يقول : « إن الماء الذي يأتي من مكان بعيد لا يستطيع أن يشارك في إخماد الحريق القريب » .

كان يجب على الاتحاد السوفيتي وهو قريب منكم أن يقدم لكم ما تحتاجون .

إننا لا نبيع السلاح ولكن نقدم ما لدينا منه لأصدقائنا الذين يقاتلون. هكذا فعلنا مع الذين يقاتلون في فيتنام ولاوس وكمبوديا .

لم نفعل مثل ما فعل « شيلوك » في قصة « شكسبير » عن « تاجر البندقية » الذي يتقاضى دينه من لحم مدينه الحي .

كان ذلك جائزاً في القرن السادس عشر ولكنا الآن في نهاية القرن العشرين .

نحن لا نتصور أن الدولة التي ولد فيها لينين تبيع السلاح للذين يقاتلون دفاعاً عن حريتهم .

نحن نعرف على أي حال ماذا واجهتم مع الروس لأننا عشنا نفس المشكلة معهم من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٦٣،ومع ذلك إني أتحدث عن الماضي .

دعنا نتحدث عن ظروفكم .

إنني زرت مصر وأعرف طبيعتها .

[تدخل شواين لاي عندما قالت المترجمة وهي تنقل عنه « إنني زرت مصر مرة وأعرف طبيعتها»] .

وقال لها ضاحكاً :

– ماذا تقولين؟... أنت تغالطين في الحساب ... إنني لم أزر مصر مرة واحدة ولكن زرت مصر سبع مرات .

وكان هذا التدخل من شواين لاي بالإنجليزية .

وبعدها عاد إلى الصينية يواصل حديثه :]

* شو اين لاي : طبيعة مصر وظروفها تجعل الحرب الشعبية معضلة ولكن تذكروا أن الحرب في أي نوع من أنواعها ليست مسألة سهلة .

إن فيتنام لم تكن تواجه مشكلة سهلة .

لقد كانت لديهم فرصة الجبال والغابات والأنهار ولكننا نعرف أنه خلال الحرب العالمية الثانية قذف الألمان فوق بريطانيا بثمانين ألف طن من القنابل ، وفي ١٠ سنوات فإن الأمريكيين قذفوا فيتنام بأربعة ملايين طن ... أي أكثر مما تعرضت له بريطانيا في حربها ضد الألمان بخمسة آلاف مرة .

وفي أواخر ديسمبر الماضي وفي عشرة أيام فقط ركز الأمريكيون ضربهم على فيتنام الشمالية وألقوا عليها أربعين ألف طن من القنابل ... أي أن الفيتناميين تلقوا في عشرة أيام فقط نصف ما تلقته بريطانيا طوال الحرب العالمية الثانية كلها ... أربع سنوات .

كيف يمكن لأي بلد أن يجد طريقته في القتال ؟

ظروف كل بلد تختلف ولكن في كل البلاد علينا أن نعتمد على حكمة الشعب وهو يستطيع أن يجد وسيلته في القتال .

نحن لم نحارب مع الفيتناميين ولكن أعطيناهم الأسلحة .

ولقد قلت للرئيس الأمريكي نيكسون حين جاء إلى هنا :

– إذا واصلتم الحرب ضد فيتنام ، فلدينا التزام بأن نواصل تزويدهم بالسلاح » .

وكان من المستحيل أن نطلب من الفيتناميين ثمن ما أرسلنا إليهم

من الأسلحة ، كنا نقدم لهم ما لدينا بدون ثمن وكنا نعتذر لهم بصدق لأن ما نرسله إليهم أقل من جهدهم البطولي ، كما أنهم بتضحياتهم كانوا أسرع من جهدنا في توصيل السلاح إليهم .

إنني قلت للرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون :

– لا يمكن أن يقوم بيننا تفاهم إلا على أساس تسوية مشكلة فيتنام أولاً » .

وأسألك الآن :

– ماذا فعل الاتحاد السوفيتي لكم ؟

إن أمريكا بعيدة ولكنها تعطي كل شيء لإسرائيل .

والاتحاد السوفيتي قريب ولكنه لا يقدم لكم ما فيه الكفاية ويتاجر في السلاح .

[واستطرد شواين لاي في نقطة فرعية ... سأل :

– كم كان عدد اليهود في فلسطين قبل وعد بلفور ؟ »

وقلت :

– كانوا سبعين ألفاً فقط » .

وقال :

– والآن أصبحوا ثلاثة ملايين في إسرائيل .

ثم قال شواين لاي :

– ليس لدي شيء ضد اليهود كيهود ولكننا ضد الصهيونية.

وابتسم ثم استطرد :

– كان ماركس من أصل يهودي .. وأينشتين كان يهودياً. واتصلت الابتسامة وهو يقول :

– كيسينجر أيضاً يهودي »

لكن هناك عدداً كبيراً من اليهود ضمن عتاة الرأسمالية وهم قمة الخطر.

إن إسرائيل دولة لم تصنعها أحكام الطبيعة ولكنها دولة صنعتها حماقة الإنسان .

صنعها البريطانيون بوعد بلفور ، ثم ساعدتها الولايات المتحدة ، وفرنسا ، والاتحاد السوفيتي أيضاً لم يكن بعيداً ، كان الاتحاد السوفيتي يستطيع أن يمنع قرارات التقسيم ، وكان يستطيع أن يمنع دخول إسرائيل للأمم المتحدة .

الأمم المتحدة ليست لها حسنات كثيرة ... وقيام إسرائيل أكبر سيئاتها .

* سؤال : سيادة الرئيس ، قد يكون مناسباً أن أنتقل إلى نقطة أخرى ... لقد وصلنا في الحديث إلى الأمم المتحدة وأريد أن أسألك عن تصورك لدور الصين فيها .

إن الصين كانت قوة ثورية فوارة وكان مما ساعدها على ذلك أنها بقيت خارج الشرعية الدولية وكان هذا يعطيها مرونة أكثر في الحركة .

والآن هل ستصبح الصين بعد دخولها الأمم المتحدة

جزءاً من « المؤسسة الدولية » ؟

ثم هناك مسألة أخرى

إن الصين وهي خارج الأمم المتحدة كانت تطالب بتغييرات أساسية في نظامها تجعلها أكثر اتساقاً مع ضرورات المستقبل وأكثر فاعلية ، والآن والصين داخل الأمم المتحدة ، وفي مقعد دائم العضوية في مجلس الأمن فإن الكل يتساءل : ماذا ستفعل الصين ؟ »

* شواين لاي : إن الأمم المتحدة يجب أن تمثل شعوب العالم كله على نفس المستوى ، وفي الحقوق والواجبات مهما اختلفت أحجام الدول وقوتها وإذا كان لا بد أن تصبح الأمم المتحدة ممثلاً حقيقياً للشعوب وعلى هذا الأساس الذي أوضحته ... إذن فإن نظامها لا بد أن يتغير ... هذا رأينا ، ولكننا ما زلنا بعد ندرس الموضوع .

إننا دخلنا الأمم المتحدة بطريقة لم نكن نتوقعها وفي وقت لم نكن مستعدين له .

كان تقديرنا ذلك الوقت أن مشروع قرار الولايات المتحدة الذي يعرقل دخولنا في الأمم المتحدة سوف تتم الموافقة عليه ، كما كان تقديرنا أن المشروع الألباني الذي يفتح أمامنا باب الأمم المتحدة سوف يسقط .

وكان كيسينجر ـ مستشار نيكسون ـ عندنا هنا في بكين عندما كان التصويت جارياً ، وكان يبدو على ثقة من أن مشروع القرار الأمريكي سوف ينجح وأن مشروع القرار الألباني سوف يسقط .

ولم يناقشنا في ذلك ، ونحن لم نناقشه .

وفي صباح يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧١ كان كيسنجر على وشك أن يركب طائرته بعد انتهاء زيارته لنا وسمعنا من الإذاعات العالمية ووكالات الأنباء أن مشروع القرار الأمريكي الياباني سقط وأن مشروع القرار الألباني هو الذي تمت الموافقة عليه وبهذا جرى طرد شيانج كاي شيك وأصبح الطريق مفتوحاً أمام دخول الصين بأغلبية أكثر من ثلثي أصوات الدول الأعضاء في الأمم المتحدة .

كان ذلك بعيداً عن توقعاتنا وكان بعيداً عن توقعات كيسنجر كانت النتيجة مفاجأة لنا وجلسنا نبحث كيف نتصرف .

هل نذهب .. ؟ أو ننتظر ؟ .

هل نضع شروطاً لدخولنا .. ؟ أو نتقدم على الفور لاحتلال مقعدنا ؟ .

وكان الرئيس ماوتسي تونج هو الذي حسم المناقشة حين سألنا جميعاً :

– من هم هؤلاء الذين تحدوا أمريكا وصوتوا لصالحنا أليسوا هم الدول الصغرى .. من العالم الثالث ؟

وإذن كيف نستطيع أن نخذلهم ونتأخر عنهم ونتركهم ينتظرون »

وذهبنا إلى الأمم المتحدة وكنا خائفين من أكوام الورق التي سوف تنهال علينا وحاولنا أن نتعلم شيئاً عن الأمم المتحدة وراح وفدنا يسأل الدول الصديقة التي تعرف الأمم المتحدة وخباياها .. كان بين من سألناهم وقتها رياض وزير خارجيتكم .

هذا ما حدث .

والآن فإن الأمم المتحدة في مفترق الطرق ..

هل ستسيطر القوى العظمى على الأمم المتحدة أم أن المنظمة سوف تتطورلتصبح أمماً متحدة بكل الدول وعلى قدم المساواة ؟ »

* سؤال : سيادة الرئيس ألا يمكن اعتبار الصين واحدة من القوى الأعظم الآن وما هو في رأيك تعريف القوة الأعظم ؟ » .

* شواين لاي : أريد أن أعيد طرح السؤال عليك أنت .. كيف تستطيع أن تضع تعريفاً للقوة الأعظم ؟

* جواب : أنت الآن تحولني من سائل إلى مسئول ومع ذلك فسوف أحاول الإجابة .

قد أضع مجموعة مواصفات لأي دولة تستحق وصف القوة الأعظم .

هناك في رأيي أربع مواصفات وقد يكون هناك غيرها ولكن ما يخطر على بالي الآن أربع كما قلت أعدها لك على النحو التالي :

١ ـ مقعد دائم في مجلس الأمن [والصين لها هذا المقعد] .
٢ – قوة نووية رادعة [والصين لديها السلاح النووي] .
٣ – إمكانية اقتصادية ضخمة [وهذا متوافر للصين] .
٤ – قوة بحرية [وليس هذا بعيداً عن متناول الصين] .

هذا هو تصوري لمواصفات ما يمكن أن نسميه القوى الأعظم في هذا العصر » .

* شواين لاي : إنني أختلف معك .. القوة الأعظم « حالة »، وليست مجرد « مواصفات » .

القوة الأعظم هي ممارسة سياسة القوة والذي يمارسها الآن طرفان هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وهما تريدان معاً أن تسيطرا على العالم .

لقد تحدث الأمريكان والروس عن نزع السلاح فهل نزعوا سلاحهم .. لقد زادوا من فاعلية سلاحهم ولم ينتزعوه !

إنهم يريدون نزع سلاحنا نحن وليس نزع سلاحهم .

إن الذين يريدون الدفاع عن أنفسهم هم الذين يحتاجون إلى زيادة قدراتهم ، وأما الذين يقومون بالعدوان فإنهم الذين يجب نزع سلاحهم.

الدول الصغرى ليس لديها ما يكفيها للدفاع عن نفسها .

ولكن الدول الكبرى هي التي تزيد من تسليحها .

إنهم يعرفون أن الأسلحة النووية سوف يستحيل استخدامها بكثرة ما ينتج منها ومع ذلك فهم يزيدون من مخزونهم .

في نفس اليوم الذي وقعوا فيه اتفاق الحد من إنتاج بعض الأسلحة النووية أعلنوا أنهم سوف يتوسعون في إنتاج بعضها الآخر ، هذا ما قاله ليرد الوزير الأمريكي الذي خرج من منصبه الآن .

لقد طالب بزيادة في ميزانية إنتاج الأسلحة وحدد مطالبه بما لا يقل عن مائة بليون دولار .

كانت لديه الشجاعة على الأقل ليعترف بالحقيقة وهذا طيب لأنه يتيح لنا فرصة أن نعارضه وأن نكشف نواياه .

ولكن الاتحاد السوفيتي لا يفعل ذلك .

يدعي الاتحاد السوفيتي أن ميزانيته للسلاح ٢٠ بليون دولار ويقول إن هذا المبلغ يمثل عشرة في المائة من ميزانيته ... ومن الذي يستطيع تصديق هذا القول .

في الاتحاد السوفيتي على أي حال رجل واحد قال الصدق وهو سوسلوف رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس السوفيت الأعلى .

إن سوسلوف قال : إن أمريكا تتصرف من موقع القوة ، والاتحاد السوفيتي يتحتم عليه هو الآخر أن يتصرف من موقع القوة » .

إننا أمام الأمم المتحدة كشفنا أساليب القوى العظمى وقام ممثل الاتحاد السوفيتي هناك جاكوب ماليك وصب اللعنات على رءوسنا وكان غاضباً جداً .

إنهم يتحدثون عن نزع السلاح النووي وفي نفس الوقت يزيدون إنتاجهم منه .

كيف يمكن لأحد أن يفعل ذلك .
يقول شيئاً ويتصرف بعكسه .
لكنهم يريدون إرهاب العالم والسيطرة عليه .

* سؤال : هل تتوقع أن يسير اتفاق باريس بشأن فيتنام في طريق ناجح ؟ » .

* شواين لاي : لا بد أن ننتظر لنرى ... إننا أحسسنا أن نيكسون يريد إنهاء الحرب ولكن تجار الأسلحة لهم صوت عال ونفوذ بعيد .

إن أمريكا وضعت تحت تصرف حكومة فيتنام الجنوبية ٢٦٠٠ طائرة .

لماذا ؟ .

ومن في العالم يملك هذا العدد من الطائرات ؟

هل لديكم أنتم هذا العدد من الطائرات ؟

ـ جواب : سيادة الرئيس .. أتمنى لو كان لدينا هذا العدد ».

* شو اين لاي : إنها طائرات حديثة ولا أستبعد أن يذهب الإسرائيليون إلى سايجون الآن ليتدربوا عليها .

* سؤال : سيادة الرئيس ... إننا جميعاً نتحدث عن متغيرات وقعت في هذا العالم وفي هذا العصر فهل أستطيع أن أسألكم عن أهم هذه المتغيرات في رأيكم ؟ »

* شو اين لاي : هذه قصة طويلة ولكي أجعلها قصيرة فإني أكتفي بأن أصف لك نتائجها كما نراها من هنا .

هناك الآن في العالم انقسامات جديدة ، وهناك تحالفات جديدة ، وهناك فوضى [أو تفاعلات عنيفة] في كل مكان .

إن أحوال العالم لن تهدأ .

إن الشعوب تتمنى ذلك ... ونحن نتمناه وأنتم تتمنونه ... كل الشعوب تريد السلام ولكن السلام لن يأتي بهذه البساطة .

السلام لن يجيء لمجرد أننا نريده .

ولكن السلام يمكن أن يجيء إذا استطعنا أن نحميه .

إن حماية السلام لن تتحقق بمجرد الخوف من الحرب .

بالعكس نحن نعتقد أن مجرد الخوف من الحرب عامل يجري استغلاله ضد السلام .

هذه هي نقطة ضعفهم الرئيسية في الاتحاد السوفيتي .

عندما يسمعون كلمة الحرب يخافون ، وقد استغلت الولايات المتحدة هذا الخوف من جانبهم ولعبت عليه .

لماذا لا نجد أمريكا خائفة .. ولماذا يخاف الاتحاد السوفيتي بدعوى حرصه على السلام ؟

إنهم يدعون أحياناً أمام الكل أنهم لو تحركوا بقوة فإن الحرب العالمية الثالثة سوف تنشب ... لا تصدق أن الحرب العالمية الثالثة سوف تنشب !

إن الحرب العالمية الثالثة قد تنشب على الأعصاب وتسقط المواقع بدعوى الخوف على السلام .

إن الروس يقولون أحياناً إن الأمريكيين يغامرون وأما نحن ـ هم أقصد ـ فهم ضد المغامرة .

هذا ليس صحيحاً .

عندما وضعوا الصواريخ على القواعد في كوبا سنة ١٩٦٢ ألم تكن هذه مغامرة ؟

لقد كانت مغامرة

وعندما اكتشفها كيندي سنة ١٩٦٢ فإنهم انتقلوا بسرعة من المغامرة إلى الهرب .

لقد فقدوا ثوريتهم !

* سؤال : سيادة الرئيس ... هناك موضوع هو من شئون الصين الداخلية ، وهو خاص بالثورة الثقافية ، وكان بعض رفاقي الذين جاءوا معي إلى هنا يتناقشون حوله ، وتساؤلهم هو : كيف يمكن أن تقوم ثورة ثانية في بلد تحكمه الطبقة العاملة فعلاً ؟

* شو اين لاي : هذه قضية مهمة ... وأريد أن أشرحها بالتفصيل .

... عندما قدم ماركس نظريته ، كان يرى بضرورة استيلاء البروليتاريا على السلطة لإزالة الاستغلال ، وكان رأيه أن تطور الصناعة هو الذي سيعطي المناخ الأنسب لهذه الثورة البروليتارية .

وشهد ماركس بعينيه تجربة كميونة باريس ، وكيف قامت ، وكيف انهارت ، وكتب عدة مقالات يلخص فيها التجربة .

إن ماركس لم يعش ليرى ما يحدث في القرن العشرين ، حيث تسيطر الإمبريالية بالصورة التي رأيناها فيه ، وحيث استطاعت هذه الإمبريالية أن تثير حربين عالميتين في قرن واحد قسمت بهما العالم .

لكن لينين عاش جزءاً من هذه القصة ، وكانت مؤلفاته عن الاستعمار من روائع الفكر الإنساني ، ونظرياته ما زالت سليمة ، وقد مات مبكراً ولم يشهد عملية التطبيق ، خصوصاً أن الحرب الأهلية شغلته في السنوات الأولى بعد نجاح ثورة أكتوبر السوفيتية .

وانتقلت المسئولية إلى ستالين ، وستالين كان ماركسياً عظيماً ، وكانت رؤيته نفاذة ، برغم أخطاء وقع فيها ولا يمكن إنكارها ، ولكننا لا نستطيع أن نتركها لكي تطمس تاريخه كله .

إن ستالين أكد أنه يمكن في دولة واحدة بناء قاعدة للاشتراكية ،

وفعلاً فإنه فعل ذلك ونجح فيه ، ومعيار نجاحه هو صمود الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ضد الفاشية ، وبدون هذا الصمود فإنه كان مستحيلاً إنقاذ أوربا .

إن أوربا كانت في حالة يرثى لها ، وكان هتلر قد جرد بريطانيا من سلاحها ، وإن كان قد وقع في الخطأ من وجهة نظره حين لم يعبر القنال الإنجليزي ويحتل بريطانيا التي لم يكن لديها ما تدافع به عن نفسها ... كان أنتوني إيدن في ذلك الوقت وزيراً للجيش ، وقد قال لي بنفسه عندما قابلته في مؤتمر جنيف سنة ١٩٥٤ : « إن بريطانيا لم يكن لديها شيء تدافع به عن نفسها ، وإنهم جمعوا بعض بقايا السلاح القديم ليقفوا به على الشواطئ ، ولو أن هتلر بعث بفرقتين من فرق المظلات لاستسلمت بريطانيا » .

إن الاتحاد السوفيتي كان لفترة طويلة هو القوة الوحيدة التي اشتبكت مع الفاشية في أوربا ، وتغلغل الجيش الألماني حتى وصل إلى ستالينجراد وموسكو ولينينجراد ، ولكن خسائر هذا الجيش الألماني كانت عالية ، وكانت الحرب على الجبهة الشرقية تعتصر قواه ، وكانت هي التي لعبت الدور الرئيسي في هزيمته النهائية .

إن الأوربيين جميعاً يعترفون بذلك ، وقد ناقشناهم فيه .

والأمريكيون لا ينكرونه .

لهذا فإننا نقدر دور ستالين ، ولهذا فإننا نضع صورته جنباً إلى جنب مع صور ماركس وإنجلز .

إنني سمعت أنكم تساءلتم : لماذا نضع صورة ستالين ... ضمن الصور التي نرفعها ، وهذا هو السبب ... وألبانيا أيضاً تفعل نفس الشيء .

لا يمكن إنكار دور ستالين .

وقلت إن ستالين كانت له أخطاء .

بين أخطائه في رأينا دستور سنة ١٩٣٦ .

إنه أخطأ حين تصور عدم وجود خطر من عودة الطبقات إلى الاتحاد السوفيتي ، وتصور أن الصراع الطبقي قد أمكن حله في إطار الدولة السوفيتية .

وهذا خطأ فادح .

هناك خطر العودة إلى الطبقية .

وهناك صراع طبقي في الاتحاد السوفيتي ، لأن هناك فئة مميزة .
ولقد تنبهنا نحن في الثورة الصينية إلى هذا الخطأ ، وكان الفضل للرئيس ماوتسي تونج .

وأتذكر عشية تحرير بكين أن الرئيس ماو جمعنا وقدم إلينا تقريراً مهماً ، ضمنه بعض ملاحظاته على المرحلة الجديدة التي كان علينا أن نواجهها .

قال الرئيس ماو في ذلك الوقت :

– لقد كنا حتى الآن نحارب ونناضل في الريف وسط الفلاحين ونعيش حياتهم ، ولكننا الآن سوف ندخل إلى المدن الكبرى ونتسلم السلطة ، وهناك خطر فادح من المغريات التي يمكن أن تقابلنا . . . إن الصراع بين الرأسمالية والطبقة العاملة سوف يكون حاداً في المدن . . . وإذا جلسنا على قمة السلطة وسمحنا لأنفسنا بامتيازاتها ، فإننا قد نجد أنفسنا ننحاز إلى الرأسمالية ضد الاشتراكية » .

إن نجاح الثورة لا يعني أن المتناقضات قد تم حلها ، لأن هذه المتناقضات قد تطوق الثوار أنفسهم ، وبالتالي تنحرف الثورة .

خذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، لقد أقاموا ديمقراطية .

ولكن نابليون جاء بعد سنوات وقضى على الديمقراطية .

وخذ حركة الاستقلال الأمريكي ، وخذ الحرب الأهلية الأمريكية ، لقد سقطت كل القيم التي حارب من أجلها الثوار ، وانتهى الأمر إلى إقطاع واحتكار .

وإذن لا يمكن أن نقول بأن نجاح الثورة الاشتراكية في بلد وإقامة السلطة الثورية فيه ، كفيل بمفرده بحماية الثورة .

ليس ذلك صحيحاً ، لأننا سوف نجد أمامنا طبقة جديدة تتولى الإدارة وتحصل لنفسها على امتيازات غير مشروعة .

أليس ذلك ما حدث في الاتحاد السوفيتي ؟

إن ذلك سوف يؤدي إلى تحريف بعيد الخطر يتجاوز حد الامتيازات ويصل لكي يصبح منطقاً يسعى إلى السيطرة في المجتمع وفي العالم .

هل يمكن أن تتصور أنه بعد خمسين سنة من الثورة لا يزال الاتحاد السوفيتي عاجزاً عن حل مشكلة الزراعة .

إن لديهم صناعة ، ولكنها صناعة ليست جيدة .

لديهم أسلحة نووية هائلة ومتقدمة ، وهم يتنافسون على الفضاء ، ولكن ما هو جدوى ذلك إذا لم تحل مشكلة الزراعة ، وإذا عجزت الصناعة عن توفير مستوى جيد من الإنتاج لصالح الشعب ؟

خطأ ستالين أنه قال في دستور سنة ١٩٣٦ ، إن التناقضات الطبقية قد حلت ، وهذا أعطى المجال لتحريفات خروشوف .

... الصراع الطبقي سوف يستمر .

... حركة المتناقضات هي حركة التقدم .

وقيمة أي عقيدة سياسية هي بمقدار رؤيتها لحركة المتناقضات في المجتمع ، وفي العالم ، وفي توجيهها لصالح التقدم وقواه .

إن الثورة الثقافية في الصين كانت عملية ضرورية لإزاحة الطبقة الجديدة ، واستطاعت أن تحرك ملايين الناس . كان التحرك من القيادة من فوق ، ومن الشعب على القاعدة ، واحتاجت إلى وقت طويل ، وتعرضنا فيها لخسائر كبيرة ، ولكن هذا ليس مهماً .

عندما يجري الإنسان عملية جراحية ، فإنه يفقد بعض الدم ، وهذا ثمن ضروري للشفاء ، وبعد الشفاء ، فإن الصحة تستطيع أن تعطي حياة أقوى وأنظف وقوة اندفاع تعوض ما ضاع .

لقد كان السؤال الذي أجبنا عليه هو :

— هل نعطي السلطة للبيروقراطية وامتيازاتها ، أم نعطي السلطة للثورة وفكرها ؟

وقد أعطينا السلطة للثورة وفكرها .

وقد فعلنا ذلك بقوة الجماهير التي دعاها الرئيس ماو إلى المشاركة في الثورة بتوجيهاته الأربعة المشهورة :

* ارفعوا اللافتات والشعارات بأكبر الحروف .

* ادخلوا في مناقشات عميقة وطويلة .
* اطرحوا كل المسائل بحرية .
* عبروا عن أفكاركم وقوموا بتقييمها علناً .

وهذه المبادئ سوف توضع في دستورنا الجديد .

دستور الصين الجديد سوف يعطي العمال حق الإضراب ... لماذا لا يكون لهم حق الإضراب إذا أحسوا بأن الإدارة سيئة ؟

إن الثورة لا تقف ضد هذا ، ولكن الثورة المضادة هي التي تخافه .

ويجب أن تكون الحرية للشعب وليست لأعدائه .

ولقد مارسنا تحريك قوى الشعب كلها أثناء الثورة الثقافية ، وكانت هذه القوى هي التي كشفت دور « ليو تشاو تشي » ـ رئيس الدولة ـ ولين بياو ـ قائد الجيش ـ .

إن الجماهير هي التي تحركت وكشفت .

صحيح أن النظام اختل بعض الوقت ، وصحيح أنه كانت هناك عناصر سيئة تريد إثارة الاضطرابات بدون هدف ثوري ، ولكن ذلك يمكن تجاوزه .

إن بعض العناصر السيئة وصلت إلى حد أنها استولت على وزارة الخارجية نفسها سنة ١٩٦٧ ، واضطر الرئيس ماو بنفسه ، واضطررت أنا أيضاً إلى التدخل .

وحدثت تجاوزات .

أحرقوا منزل القائم بالأعمال البريطاني .
وأوشكوا على الدخول في مغامرة لاحتلال هونج كونج .

ولكن ذلك كله حوصر وصفي ، وأصبحت المسائل الآن واضحة .

ونحن لا نقول لأحد إن الثورة الثقافية في الصين نموذج قابل للتقليد في أي مكان ، وإنما نقول للآخرين هكذا رأينا المشكلة ، وهكذا وضعنا الحل لها ، وليس ضرورياً على الآخرين أن يتخذوا نفس الطريق ، وإنما لهم دائماً أن يشخصوا مشاكلهم ، وأن يجدوا الحلول الملائمة لظروفهم ، ولهم في ذلك أن يدرسوا تجربة الآخرين .

لقد فهمت أنك اشتركت في مناقشات كثيرة عن الثورة الثقافية ؟ » .

* جواب : ذلك صحيح . لقد قلت ان اهتمامي هذه المرة سوف يكون بالناس وبالأفكار أكثر منه بزيارة المصانع والمنشآت .

كان رأيي أن التجربة الحقيقية هي في الناس وأفكارهم ، وأما المصانع والمنشآت فهي متماثلة في العالم كله .

* سؤال : هل أستطيع أن أعود بك مرة أخرى إلى أزمة الشرق الأوسط ؟ » ..

* شواين لاي : لا بد أن أعترف لك بتقصيرنا في الاهتمام بأزمة الشرق الأوسط ، لكني أتصور أنه بعد حل مشكلة فيتنام ، فإن الاهتمام سوف يتحول إلى الشرق الأوسط والبحر الأبيض .

ونحن نؤيد موقفكم ، لكن تأييدنا لسوء الحظ ليست له الفاعلية المطلوبة .

إنني قرأت تعبيراً كتبته في مقالاتك عن « حالة اللاسلم واللاحرب » ونحن استخدمنا هذا التعبير بعد ذلك حتى في الأمم المتحدة .

وأنتم في موقف صعب بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وهذا هو الذي يصنع حالة اللاسلم واللاحرب كما كتبت أنت عنها ، ورأينا أن الموقف سوف يستمر إذا لم تكن هناك صيغة ملائمة لمواجهة الأزمة ... وعليكم أن تدرسوا ، وتدرسوا بعمق ...

ونحن نرى أن البترول سوف يكون مسألة مهمة في السنوات القادمة ، وجزءاً كبيراً والصراع سوف يدور عليه .

شيء طيب أن يكون لدى العرب بترول .

وشيء مؤسف أيضاً .

شيء طيب لأنه ثروة تستطيعون بها بناء أمتكم .

وشيء مؤسف لأن الصراع عليه عنيف .

أريد أن أسألك عن البترول العربي .

[وغاص الحديث في مناقشة فرعية عن البترول العربي ، أجبت فيها على كل سؤال وجهه إلي شواين لاي .
وساد الصمت بعض الوقت وشواين لاي يفكر في الأرقام الفلكية لحسابات البترول العربي ... وفجأة بدأ يسأل سؤالاً آخر] .

* شواين لاي : أريد أن أسألك عن رأيك فيما ينبغي عمله لحل أزمة الشرق الأوسط ؟

* جواب : سيادة الرئيس ... في الحقيقة أنني قلت رأيي باستمرار ، ولم أتوقف عن قوله ، رغم مشاكل كثيرة تعرضت لها .

لقد تصورت منذ البداية أن قوانين العالم والعصر لا تعطينا

ولا تعطي لأي نزاع دولي آخر حلاً ... إلا الحل السياسي الذي يدخل استعمال القوة المسلحة كعنصر من عناصره .

وهذا يختلف عن الحل الديبلوماسي الذي يبدأ وينتهي في المحافل الديبلوماسية وحدها ، كما أنه يختلف عن الحل العسكري الذي يبدأ وينتهي في ميدان القتال وحده .

وكان الحل السياسي في رأيي يتركز في عدة نقاط :

* جبهة داخلية متماسكة وقوية بثقتها بنفسها ، وإيمانها بهدفها .
* أكبر حشد ممكن من طاقة الأمة العربية وإمكانيات العمل العربي المتاحة .
* انفتاح على العالم قادر على الحركة المرنة والمستنيرة ، قادر على أن ينفع ويضر ، يمنح ويمنع .
* استعداد بالقوة المسلحة ، تهيئتها بالكامل واستخدامها عند اللزوم ، وكنت منذ أول يوم أقول إن العدو الإسرائيلي لن يتحرك من المواقع التي يحتلها من أرضنا إلا إذا خلعناه منها بالقوة ، أو تأكد أن لدينا من القوة ـ ومن قدرة استعمالها ـ ما يجعل ذلك ممكناً .

إن آخرين اختلفوا معي ، وربما كانوا أكثر تطرفاً ، ولكن العصر كان في رأيي عصر العقل والتخطيط البعيد المدى ، وكانت خشيتي دائماً أن تكون أكثر الآراء تطرفاً هي غطاء لأكثر المواقف استسلاماً » .

* شواين لاي : إنني أفهم ما قلت ، وإن كنت أريد أن أضغط بشدة على أول نقطة ذكرتها أنت ، وهي الجبهة الداخلية المتماسكة

والسليمة ، هذه هي نقطة الارتكاز في كل كفاح ، وهي الأساس في أي نجاح .

هناك شيء آخر يتصل بذلك ، وهو روح السكان المدنيين إذا نشب القتال .

إن الروح المعنوية للسكان المدنيين مهمة ، وأظنها في تجربتنا متصلة بشيئين :

* حفر الخنادق لكي تشعر الجماهير أن لديها ملاجئ أمان من الخطر .

* تخزين المواد ، وخصوصاً الحبوب .

كانت هذه هي استراتيجية الرئيس ماو .

إن سلامة جبهتكم الداخلية وتماسكها هو الذي يعطيكم إمكانية حشد الجهود العربية ...

هناك مسألة أخرى وهي توحيد الفلسطينيين .

ونحن نعرف أن الحديث في هذه القضايا سهل من بعيد ، ولكنكم أنتم الذين تعيشون التجربة ، واعتقادنا هو أنكم في لحظة تاريخية تواجهون فيها مشكلة « شجاعة الاعتماد على النفس » .

إن هناك عوامل إيجابية كثيرة لصالحكم .

هناك قواكم الذاتية الوطنية والعربية .

وهناك الموقف الدولي ، وهو حافل بالمشاكل والمتناقضات ، ويجب أن تستفيدوا من هذه المتناقضات لحل قضاياكم .

إن وزير خارجية الصين سوف يسافر في جولة واسعة في شهر مارس ، وسوف يزور مصر خلالها ، وسوف يكون مهما أن نسمع منكم وأن تسمعوا منا ...

يظهر أننا سنعود إلى عصر الاعتماد على وزراء الخارجية ، وسوف يزداد دورهم في الفترة المقبلة ... في وقت من الأوقات كاد هذا الدور يتلاشى بكثرة اللقاءات على مستوى القمة .

فهمت أيضاً أنكم سوف تبعثون إلينا بوفد حكومي .

* جواب : إنني سمعت عن ذلك أيضاً وأعتقد أنه سيحدث »

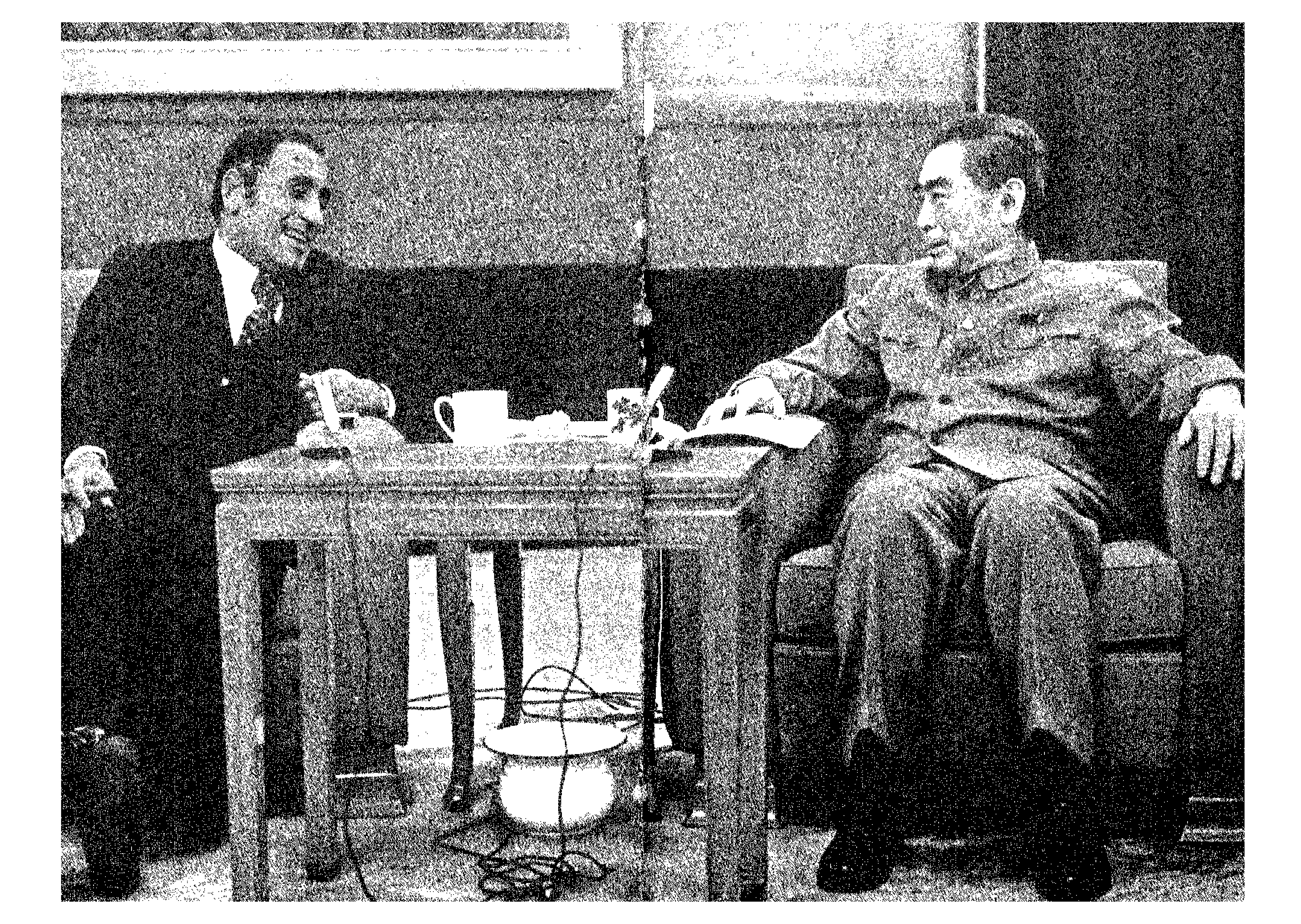
* شواين لاي : أرجو أن تكون الأمور قد اتضحت أكثر على المسرح الدولي حين يجيء هذا الوفد .

وبهذه المناسبة : متى ستكون زيارتك القادمة للصين ... إنك زرت الاتحاد السوفيتي خمس عشرة مرة ، ونحن أحصيناها عليك ، ولكنك لم تجئ إلى الصين قبل هذه المرة ... لماذا رحلاتك كلها في اتجاه واحد ؟

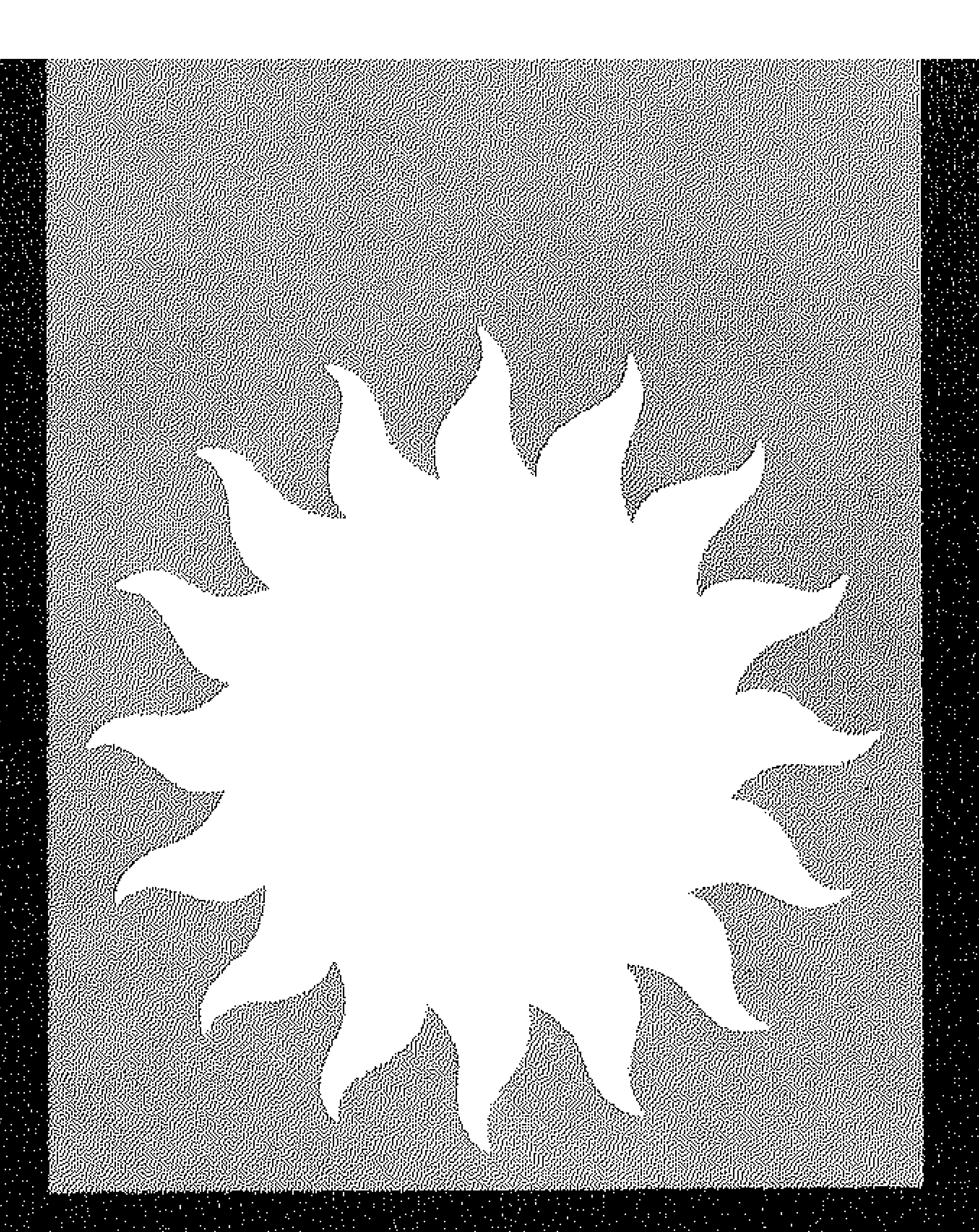
* جواب : لم يكن ذلك مقصوداً ... ولكنه حكم الظروف ، وبالنسبة للصحفي ، فإن الرياح تحمله دائماً إلى حيث تجري الحوادث .

وقال الرئيس شواين لاي ، وابتسامة صينية غامضة على شفتيه وبريق يلمع في عينيه ، مع تلك الساعة المتأخرة من الليل :

ـ ... هناك رياح شرقية أيضاً !







الشّرق أحمر



السّياسة الخارجيّة للصّين

عندما تحدد موعد زيارة الرئيس ريتشارد نيكسون للصين ، اقترح عليه مستشاره لشئون الأمن القومي « هنري كيسنجر » أن يقابل بعض الشخصيات العالمية التي تعرف تاريخ وشخصية الصين ، وتستطيع بهذه المعرفة أن تعطي للرئيس الأمريكي بعض المفاتيح لعلها تنفعه في دخول أبواب مغلقة .

وكان من بين الذين اقترح « كيسنجر » على « نيكسون » أن يقابلهم ، أديب فرنسا ومفكرها العظيم « أندريه مالرو » ، وهو من دارسي الحضارة الصينية ، فضلاً عن أنه استطاع توثيق صلات فكرية مع الثورة الصينية وواتته الفرصة لكي يقابل ويتحدث طويلاً مع « ماوتسي تونج » ، قبل أن يبتعد هذا الرجل الأسطوري عن حياة كل يوم ، ويتحول إلى ضوء يشع من بعيد سارياً في أفلاك النجوم .

ودعي « أندريه مالرو » فعلاً إلى عشاء في البيت الأبيض مع « ريتشارد نيكسون » ، وجلس الرئيس الأمريكي تلميذاً أمام أستاذ يتلقى عنه ويحاول أن يفهم .

وكان من بين ما قاله أندريه مالرو لريتشارد نيكسون في تلك الليلة :

ـ إن أكبر خطأ يقع فيه أي طرف يتعامل مع الصين ، هو أن يتصورها متلهفة على أي شيء .

إن الصين مثلاً ليست في عجلة من أمرها بشأن حقها في دخول الأمم المتحدة ، كما أنها ليست متلهفة على شيء يغريها به الآخرون .

إن الصين بلد صبور.

بلد صبور جدا .

لقد انتظرت عشرين سنة خارج الأمم المتحدة ، وهي على استعداد لأن تنتظر عشرين سنة أخرى .

ولقد أنكرتم على ثورتها الاعتراف بها عشرين سنة ، وهي على استعداد لأن تنتظر عشرين سنة أخرى .

الصين كما قلت لك بلد صبور . . . صبور جداً » .

* * *

وأتذكر أنني سمعت الرئيس السوفيتي إليكسي كوسيجين يروي ، ويعيد رواية حوار داربينه وبين ماوتسي تونج في آخر زيارة قام بها للصين في فبراير سنة ١٩٦٥ .

كان إليكسي كوسيجين يقول :

-« إنني ذهبت إلى ماوتسي تونج أقترح عليه أن نناقش خلافاتنا حتى نستطيع تصفيتها » .

وفوجئت « بماو» يقول لي :

ـ إننا نحتاج إلى عشرة آلاف سنة لكي نستطيع تصفية ما بيننا » .

وقلت له :

ـ وإذا بذلنا جهداً مكثفاً . . . ألا نستطيع أن نختصر هذه المدة المخيفة في بعدها ؟ »

وسكت « ماو » قليلاً ثم قال لي [والمتحدث هنا هوكوسيجين] :

ـ ربما لو بذلنا كل جهدنا . . . فإننا قد نتمكن بمعجزة من اختصار ألف سنة ! »

وكان كوسيجين يضيف :

ـ ماذا نفعل؟. . . لقد جعلوني شخصياً أشعر باليأس من إمكان تسوية نزاعنا معهم.ومن الذي سيعيش عشرة آلاف سنة؟. . . ومن الذي يريد أن يبذل كل جهده اليوم ليختصر ألف سنة تجيء بعد تسعة آلاف سنة ؟

وكيف يمكن أن نفهم أناساً يفكرون على هذا النحو؟. . . وكيف نستطيع أن نتعامل معهم ؟ ! »

* * *

وعندما خرجت من الصين راكباً القطار الشهير في كل القصص عن مغامرات الشرق ـ بين كانتون وهونج كونج ، حرصت على أن ألتقي

بعدد من الخبراء في شئون الصين ، الذين اتخذوا من هونج كونج قواعد يتسمعون فيها على ما يجري في ذلك البعد الشاسع أو يسترقون النظر عبر ما يسمونه ستار « البامبو » .

وأظن أن « هونج كونج » تضم أكبر عدد من الخبراء في شئون الصين والمتابعين لأمورها فلقد ظلت لسنوات طويلة أهم مراكز التنصت والمراقبة للتطورات ، خصوصاً حينما كانت الصين مغلقة بالكامل أمام كل الزوار.

ولقد دعاني القنصل المصري العام في هونج كونج الأستاذ علي برعي إلى فنجان شاي في بيته مع عدد من هؤلاء الخبراء .

وفي شرفة مطلة من قمة جبل على المدينة التي تترامى وسط الخلجان الزرقاء ، وتضيء أنوارها ببريق الألماس والياقوت والزمرد ، قال لي أحدهم :

ـ هناك حقيقتان يجب ألا تنساهما عن الصين :

* الأولى : أن كل صيني يعتقد أن الصين هي مركز العالم، ولعلك تعرف أن الترجمة الحرفية في الصينية لكلمة « الأجانب » تعني بالضبط « البرابرة » ! . . . وقد تتذكر خطاب الملك جورج الثاني ملك بريطانيا ، حينما بعث إلى إمبراطور الصين « شين لونج » يعرب فيه عن رغبته في إقامة علاقات تجارية بين بريطانيا والصين .

كان رد الإمبراطور الصيني بالحرف :

ـ إن الصين لديها كل ما تحتاج إليه ، وهي ليست في حاجة للتجارة مع البرابرة ! »

* الثانية : هي أن كل صيني يعتقد أن الحق معه ، وأن هذا الحق

سوف يصل إليه مهما طال الزمن ، والمهم بالنسبة له هو أن يعطي للتاريخ فرصة كاملة .

ولعلك تتذكر المثل الصيني الشائع الذي يقول :

ـ لا تنتقم . . . اجلس على حافة النهر وانتظر . . . وذات يوم سوف يجيء التيار حاملاً معه جثة عدوك ! ! »

* * *

وقد يكون غريباً أن أبدأ حديثاً عن السياسة الخارجية للصين بهذه القصص الثلاث ودلالاتها وإشاراتها ، ولكني وجدتها معبرة أكثر من غيرها عن القسمات البارزة في سياسة الصين تجاه العالم الخارجي :

(١) أن الصين صبورة ، عملية جداً في صبرها ، لا يستفزها شيء ، ولا حتى عواطفها وشعورها .

[من ذلك مثلاً أنها تقبل حتى الآن بوجود قطعة منها وهي هونج كونج مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني بينما هي قادرة على تحريرها بمجرد إبداء الرغبة في ذلك .

خطاب واحد ، من سطر واحد إلى الحاكم العام البريطاني في هونج كونج ، ويحمل الرجل حقائبه بعد أن يطوي فيها العلم البريطاني ويرحل] .

وعندما سألتهم في بكين :

ـ لماذا تقبل الصين بقوتها الراهنة ، ومركزها الدولي الحالي ، ببقاء جزء من ترابها خارج سيادتها ؟ »

كان ردهم ببساطة :

ـ هذا الأمر ليس مدرجاً الآن على جدول المهام العاجلة بالنسبة لنا».

وسألت نفس السؤال في هونج كونج ، ووجهته إلى المستشار السياسي للحاكم البريطاني العام في المستعمرة ، وكان رده :

ـ[هي الآن فيما يبدو لنا أنفع لهم .

ـ هي الطريق الأساسي لتجارتهم وكل ما يحصلون عليه من العملات الأجنبية .

ـ هي الآن معرض لكل منتجاتهم ، يراها العالم دون أن يزعجهم بالذهاب إليهم .

ـ هي الآن ملتقى لكل منتجات العالم أمامهم ، يرون عن طريقها كل ما يريدون رؤيته من منجزات التكنولوجيا الحديثة ، دون أن يذهب مندوبو الشركات إليهم ويقيموا فوق أرضهم . وفي كل الأحوال فهم يعتقدون ـ وهذا صحيح ـ أنها تحت تصرفهم ... حين يريدونها يحصلون عليها] .

(٢) إن الصين تحسب بدقة خطواتها ، وتتعلم في هدوء من تجاربها وتجارب غيرها .

[من ذلك مثلاً أنها حرصت على البقاء بعيداً عن الاشتراك المباشر في حرب فيتنام التي دارت لأكثر من عشر سنوات على حدودها،وكان كثيرون يهاجمونها ... وكان كثيرون يتهمونها،ولكنها لم تسمح لأحد بأن يستدرجها .

كانت تدرك أن الحرب المسلحة في العصر الحديث محظور يجب تجنبه إلا في حالة الضرورة القصوى ... حالة الدفاع عن النفس فقط .

وعندما سألت في بكين :

ـ ألم يكن صعباً عليكم أن تمسكوا بأعصابكم إزاء التصاعد الأمريكي المستمر بالقرب منكم ، وعلى مرأى ومسمع ... ؟ »

كان الرد الذي قاله لي أحد كبار المسئولين الصينيين :

ـ لقد تعلمنا الدرس في حرب كوريا .

في حرب كوريا تدخلنا بأنفسنا في القتال .

وعندما تدخلنا وجدنا أنفسنا في اضطرار إلى انتظار العون من الاتحاد السوفيتي .

وكان العون يتأخر أحياناً ، وكنا نتمزق ، ونعاني ، وكنا أحياناً نغضب ونستجدي ولكن كان علينا أن نتحمل ، لأننا في ميدان القتال ، ولأن الأسلحة الحديثة تجيئنا من السوفيت .

الحكيم يتعلم الدرس من تجربة غيره .

والعاقل يتعلم الدرس من مرة واحدة .

وأما الذي يقع في الفخ مرتين ، فإنه ليس حكيماً ، وليس عاقلاً .

وهكذا فإننا تعلمنا شيئاً مهماً .

لا يكفي أن يكون في يدنا ما نطلق به الطلقة الأولى في الحرب ، وإنما يجب أن يكون في يدنا ما نطلق به الطلقة الأخيرة في الحرب ... ويجب أن يكون ذلك في يدنا ، وليس في يد غيرنا ، مهما كنا وكانوا] .

(٣) ان الصين تفهم حركة التاريخ وتعتمد عليها .

وعندما يجيء إليها تيار التاريخ ـ مفاجأة أمام الآخرين ـ فإنه بالنسبة لها لا يكون مفاجأة ...

عندما يجيء إليها تيار التاريخ ـ فجأة في رأي آخرين ـ فإنها تفتح له الباب في هدوء ، وكأنه زائر جاء في موعده .

[وكان ذلك بالتقريب هو التعبير الذي استعمله « ماوتسي تونج » في تبرير دعوته للرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ، وكان قول ماوتسي تونج في ذلك الوقت :

ـ إننا سمعنا طارقاً يدق باب الصين » .

وسألناه :

ـ من الطارق ؟ »

وجاء الرد :

ـ ريتشارد نيكسون » .

وفتحنا له الباب .

هكذا ذهب ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة إلى الصين ، حاملاً معه اعترافه .

وهكذا ذهب تاناكا رئيس وزراء اليابان إلى الصين حاملاً معه اعتذاره !]

* * *

والصبر ليس موقفاً سلبياً ، والاستفادة من التجربة يقظة مستمرة ، كما أن انتظار تيار التاريخ لا يتحقق أثناء النوم !

إن الصين خلال ذلك كله حققت وحدتها ، وبنت نفسها ، وعززت قوتها ، حتى وصلت إلى مصاف القوى الأعظم في هذا العصر .

شوط طويل طويل قطعته .

وكانت صيحة « ماوتسي تونج » الشهيرة تدفعها إلى العمل ، وإلى مزيد من العمل ، وكانت الصيحة الشهيرة هي قوله :

« كم من الأعمال الكبيرة تصرخ وتنادي من يتحمل بمسئولياتها .

أمسكوا بالساعة ... أمسكوا باليوم ! »

وتغير وضع الصين .

تغير كثيراً منذ ذلك اليوم الذي جلس فيه « فرانكلين روزفلت » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية ، يناقش مشاكل ما بعد الحرب ، ويتحدث عن إنشاء الأمم المتحدة ، ويناقش بعض مستشاريه في الدول التي يكون لها حق العضوية الدائمة في مجلس الأمن ، وكان بعض هؤلاء المستشارين يرشحون الصين لمقعد دائم في مجلس الأمن ، ولم يكن روزفلت مقتنعاً ...

ثم قال أخيراً :

ـ أي مستقبل يمكن أن يكون للصين ... وأي دور تستطيع أن تؤديه في العالم الجديد ؟

على كل حال سوف أوافق على أن يكون للصين مقعد دائم ...

وسوف أوافق لغير الأسباب التي سمعتها منكم .

سوف أوافق حتى لا يقول العالم إن كل أصحاب المقاعد الدائمة في

مجلس الأمن من الشعوب البيضاء ، من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا .

سوف أعطي الصين مقعداً دائماً لمجرد أن يكون هناك مقعد دائم للملونين في مجلس الأمن ! »

تغير وضع الصين كثيراً منذ ذلك الوقت .

وتغيرت الصورة كلها ، إلى درجة لم تكن تخطر على البال ، بفضل المقدرة على الصبر ، والاستفادة من التجربة ، والثقة بتيار التاريخ ، وبناء القوة الذاتية .

* * *

وتنكر الصين حتى الآن ، وبتواضع مثير ، أنها أصبحت قوة عظمى .

لكن ما تراه العين لا تجدي الكلمة في إنكاره !

والذي تراه العين هو أن العالم الآن فيه خمس من القوى الأعظم : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، في المقدمة ووراءهما الصين ، واليابان ، ثم أوربا الغربية المتجهة إلى الوحدة .

وإخال أنهم في الصين ـ برغم كل ما ينكرون ـ يدركون هذه الحقيقة الماثلة في العالم المعاصر ويرسمون على أساسها :

* هم يدركون أن هذه القوى الخمس الأعظم على القمة العالمية ، وإن تفاوتت الدرجات بينهم .

* وهم يدركون أن المستقبل المرئي ـ ما بين عشر سنوات وعشرين سنة ـ سوف يكون محكوماً بالتوازنات بين هذه القوى الخمس الأعظم .

* وهم يدركون استحالة الحرب العالمية على القمة بين الكبار ، مع تسليمهم بأن التفاعلات لن تتوقف ، خصوصاً في العالم النامي .

* وهم يدركون أن هذه التفاعلات سوف تكون ميادين الصراع الصامت بين الكبار على النفوذ السياسي وعلى المصالح الاقتصادية .

* وهم يدركون أن هذه التفاعلات يجب أن تكون مضبوطة ومحكومة بما لا يؤدي إلى صدام مباشر بين الكبار .

* وهم يدركون من ذلك كله أن حالة التوازن يجب أن تراعى بحذر ودقة ، لأن اختلال حركة الموازين قد يأتي بما لا يريده أحد ، لأنه قد يفتح الباب لما لا يطيق تحمله أحد .

ولقد كان « شواين لاي » رئيس وزراء الصين بارعاً في وصفه لشكل المتغيرات الجديدة في العالم حين سألته عنها ، وكان رده :

ـ تحالفات جديدة ، وانقسامات جديدة ، وفوضى ـ أو تفاعلات عنيفة ـ فيما عدا ذلك كله من بقية العالم ! »

* * *

والآن كيف ترسم الصين وتمارس سياستها الخارجية تجاه غيرها من القوى الأعظم [تحالفات جديدة ، وانقسامات جديدة] ، ثم تجاه بقية العالم عدا الكبار [فوضى ـ أو تفاعلات عنيفة ـ في كل مكان] .

* * *

في ظني أن الصين ، وبتشخيصها الحذر والدقيق لأحوال العالم المعاصر ، تريد بالدرجة الأولى أن تكسب وقتاً تستكمل فيه بناء قوتها .

إن لديها قوة نووية ، ولكن الولايات المتحدة لديها أكثر ، والاتحاد السوفيتي لديه أكثر .

ثم إن طاقتها الاقتصادية تنمو ، ولكن نمو اليابان أسرع ، كما أن نمو أوربا الغربية أعمق ... هذا فضلاً عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي اقتصادياً .

لذلك تريد الصين أن تكسب وقتاً تحقق فيه المساواة الكاملة بينها وبين غيرها .

وتدرك الصين ــ فيما أتصور ــ أن حالة التوازن على القمة الدولية حالة طارئة ، مؤقتة ، تفرضها ظروف تاريخية بعينها ، ولكنها ــ أي حالة التوازن الراهنة ــ ليست دائمة .

وفي ذلك يقول ماوتسي تونج :

ــ إن بعض الناس يتصورون خطأ أن التوازن هو القاعدة ، وأن اختلال التوازن هو الاستثناء وليس ذلك حقيقياً ، والحقيقي هو العكس .

خلل التوازن ــ بالصراع ــ هو القاعدة .

والتوازن ــ بتعادل القوى ــ هو الاستثناء .

حالة التوازن ثبات ، وذلك معاد للحركة وهي قانون الوجود !

انظروا إلى القمر : ما هي المدة التي يتوازن فيها ويصبح بدراً ، أي دائرة كاملة تماماً .. ؟

ليلة واحدة في الشهر !

وفي غير هذه الليلة ، فإن خلل التوازن هو القاعدة » .

هكذا تتصور الصين ـ فيما أظن ـ أن حالة التوازن الدولي الراهنة هي فرصتها لكسب الوقت ولتحقيق المساواة الكاملة مع غيرها من الكبار ، وعلى هذا الأساس تمارس سياستها :

(١) عداؤها الأول موجه ضد الاتحاد السوفيتي ، والأسباب كثيرة شرحتها من قبل ، وأفاض فيها غيري : صراع وطنيتين ... نزاع حدود ... خلاف عقائدي مستحكم ، وخلاف العقائد أقسى وأعنف ما يكون عندما تنقسم العقيدة الواحدة ، لأن الانقسام يتعدى درجة الاختلاف ، ويصل إلى درجة الخيانة !

والمبارزات بين الصين والاتحاد السوفيتي مستمرة ، وصلت إلى حد السلاح يوماً ، ثم نزلت إلى تبادل الاتهامات الفلسفية ، وتواضعت أحياناً إلى لذعات السخرية .

وكنت أصعد سور الصين العظيم ذات يوم ، وإلى جانبي « بنج هوا » مدير الصحافة الأجنبية بوزارة الخارجية الصينية ، وهو من ألمع سفراء الصين ...

وقال لي :

ـ لقد وصل بهم الحال يوماً ـ يقصد السوفيت ـ إلى درجة أن قالوا لنا إن حدود الصين الطبيعية يجب ألّا تتعدى سور الصين العظيم ! »

وقلت :

ـ وماذا كان ردكم ؟ »

قال :

ـ كان ردنا عليهم إذا كان ذلك صحيحاً فإن حدود روسيا الطبيعية

يجب ألّا تتعدى أسوار الكرملين ! » .

وأضاف « بنج هوا » بغير ابتسامة :

ـ سور الصين العظيم كان يحيط بدولة على أي حال ... وأما سور الكرملين فليس في داخله إلا قصر ! ! »

وكانت الصين في يوم من الأيام تخشى ضربة إجهاض لقوتها الذرية النامية ، تشترك فيها الولايات المتحدة وروسيا ، تحت دعوى وقف « الخطر الأصفر » وقتل « التنين » قبل أن ينفث نيرانه ، هكذا قالوا لي في الصين .

ثم كانت الصين في وقت من الأوقات تخشى ضربة إجهاض من روسيا وحدها لحل كل المشاكل دفعة واحدة ، ولكي تكفي نفسها عناء حشد أربعين فرقة مدرعة طول الوقت على حدود الصين .

وكانت خشية الصين على أشدها أثناء تسوية مشكلة الأمن الأوربي ، وقلقها من أن يطمئن الاتحاد السوفيتي إلى علاقاته في الغرب ، ومن ثم يتفرغ بالكامل إلى تسوية مشاكله في الشرق !

وربما كان ذلك الاعتبار من أهم عوامل التقارب الصيني الأمريكي .

(٢) إن العلاقات المتزايدة بين الولايات المتحدة والصين هي أغرب العلاقات بين القوى في هذا العصر ، وربما في التاريخ .

عقائد مختلفة أشد الاختلاف .

حضارات متباعدة أشد التباعد .

مصالح متصارعة حتى الأمس القريب ، حين كان الخط الأساسي الأول في سياسة الولايات المتحدة هو حصر الصين واحتواءها وإسقاط

النظام الثوري فيها بأي وسيلة ولو بالقوة إذا سنحت لذلك فرصة مأمونة .

ومع ذلك فإن الأبواب لم تفتح فقط بين البلدين ، وإنما تجري الآن عملية إزالة الأسوار أيضاً .

ولقد عرفت على سبيل المثال أن الصحفي الأمريكي الشهير جوزيف ألسوب كان يزور الصين قبلي ، وسألتهم في بكين :

ـ كيف سمحتم له أن يجيء وقد بنى تاريخه الصحفي كله على العداء للثورة الصينية ، وكان من أعنف الصقور في الولايات المتحدة تحريضاً على غزو الصين ؟ »

وقلت :

ـ إن « ألسوب » صديقي ، وأنا بالطبع لا أحرض عليه ، كما انني لا أحرض على أي رفيق في مهنة القلم ... ولكني فقط أريد أن أفهم ؟ »

وكان الرد :

ـ إن الخط الجديد للرئيس ماو يقول :

« افتحوا كل الأبواب .

إن الذين كانوا أعداءنا قد يتخذون موقفاً أكثر اعتدالاً .

والذين كانوا معتدلين قد يصبحون أصدقاء .

والذين كانوا أصدقاء سوف يتأكد ويتقرر موقفهم معنا وتثبت رجاحة رأيهم » .

وعلى وجه اليقين فإن أهداف كل من الصين والولايات المتحدة تبدو

واضحة في هذا التقارب .

* الصين تريد تعزيز موقفها تجاه الاتحاد السوفيتي بالتقارب مع الولايات المتحدة .

* والولايات المتحدة تريد أن تمارس لعبتها الدولية ، خصوصاً في آسيا ، على الصراع بين الاتحاد السوفيتي والصين .

(٣) وتجاه اليابان ، فإن سياسة الصين بالقطع تغيرت .

وأتذكر عندما قابلت الرئيس ماوتسي تونج في موسكو في نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، وكانت هذه آخر زيارة له إليها ، إنه قال ضمن ما قال خلال مناقشة طويلة في قاعة المرمر بقصر الكرملين :

ــ إن الخطر المخيف في العالم الآن هو عودة العسكرية اليابانية ! »

وأضاف ماو وقتها :

ــ وعودة العسكرية الألمانية » .

ثم قال :

ــ إن الرأسماليين يبعثون إلى الحياة مرة أخرى بكل قوى العسكرية الفاشستية » .

وفي هذه المرة في بكين ، فإنني لم أسمع أحداًيشير إلى خطر العسكرية اليابانية،وتاريخها القريب مع الصين مشهور ومذكور .

وكان الاتحاد السوفيتي يتصور ــ فيما قدرت من بعيد ــ في بداية سنة ١٩٧٢ ، أن بمقدوره أن يلعب على الخلفية التاريخية القريبة لعلاقات اليابان مع الصين ، ولكن الصين تحركت في نهاية العام بسرعة ، واستقبل

تاناكا رئيس وزراء اليابان ـ في بكين ـ استقبالاً حافلاً ، نقلته الأقمار الصناعية طوال الوقت إلى طوكيو ، وكان قادماً فيما يقول الصينيون : ليقدم اعتذاره عن مساوئ العسكرية اليابانية .

ويبدو أن الاعتذار كان مقبولاً .

والأغرب أن « تاناكا » ذهب إلى الصين مستعداً لدفع بلايين الدولارات على شكل تعويضات عن الماضي للصين ، وإذا به يفاجأ بشواين لاي رئيس وزراء الصين يقول له :

ـ نحن لا نريد تعويضات ... نريد أن نفتح صفحة جديدة في علاقاتنا ، وليذهب الماضي إلى النسيان » .

وربما تعتقد الصين أن بمقدور إمكانياتها الذرية الحالية أن تردع اليابان ، خصوصاً بقربها منها ، وتعرضها كمجموعة جزر كثيفة لخطر داهم من أي تعرض ذري ... فضلاً عن أن تجربة هيروشيما ما زالت في أعماق الضمير الياباني ، كأنها كابوس داهم في كل ليلة !

(٤) وتحاول الصين أن تقفز عبر الاتحاد السوفيتي إلى أوربا الغربية ، وتعتقد الصين أن ديجول كان ببصيرته التاريخية أول من اكتشف بوضوح ، ودعا بأعلى صوت ـ إلى ضرورة فتح باب الشرعية الدولية أمامها .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الصين تعتقد أن أوربا الغربية الموحدة يمكن أن تساعدها في حركتها المرنة ، وداً مع الولايات المتحدة وجفاء مع الاتحاد السوفيتي .

وأكثر من ذلك ، فإن بعض العارفين بشئون الصين يرون أنها تعتقد أن أوربا الغربية الموحدة تملك قوة جذب خاصة بالنسبة لأوربا الشرقية الموالية للاتحاد السوفيتي .

ومن ثم فإن أوربا الغربية الموحدة تستطيع التأثير في الاتحاد السوفيتي عندما تشد أوربا الشرقية إليها بأقرب مما هي الآن بالنسبة للاتحاد السوفيتي .

وقد تشعر الصين في قرارة نفسها باحترام حضاري تجاه أوربا لا تستطيع قبوله بالنسبة للولايات المتحدة ، أو بالنسبة للاتحاد السوفيتي .

وقد تشعر الصين أن التكنولوجيا الأوربية يمكن أن تصبح متاحة لها بحرية أكبر وأوسع .

. . . .

. . . .

ذلك كله في فترة التوازن الدولي الحالي الاستثنائية ـ في التقدير الصيني ـ والمؤقتة ، وعبرها فإن الصين لا بد أن تكون على قدم المساواة مع غيرها .. تكسب الآن وقتاً لكي تستعد للأوقات المتغيرة !

* * *

ونصل الآن إلى ما وراء القوى العظمى [إلى ما وراء التحالفات الجديدة والانقسامات الجديدة] ونتقدم إلى بقية العالم خارج هذا النطاق ، خصوصاً العالم النامي [حيث الفوضى ـ والتفاعلات العنيفة ـ في كل مكان] .

وفي هذا المجال ، فهم هناك للإنصاف لا يخدعون أحداً .

يقولون وقد قالوها لي :

ـ اعتمدوا على قواكم الذاتية واستلهموا الحكمة من شعوبكم » .

ويقولون وقد قالوها لي :

ـ إننا على استعداد لأن نساعدكم بما نستطيع ، ولكن طاقاتنا ما زالت محدودة ، واهتماماتنا العملية في حدود آسيا حتى الآن ، والماء القادم من بعيد لا يطفئ الحريق القريب » .

ويقولون وقد قالوها لي :

ـ ادرسوا بوعي متغيرات العالم واستخلصوا لأنفسكم منها ما تشاءون » .

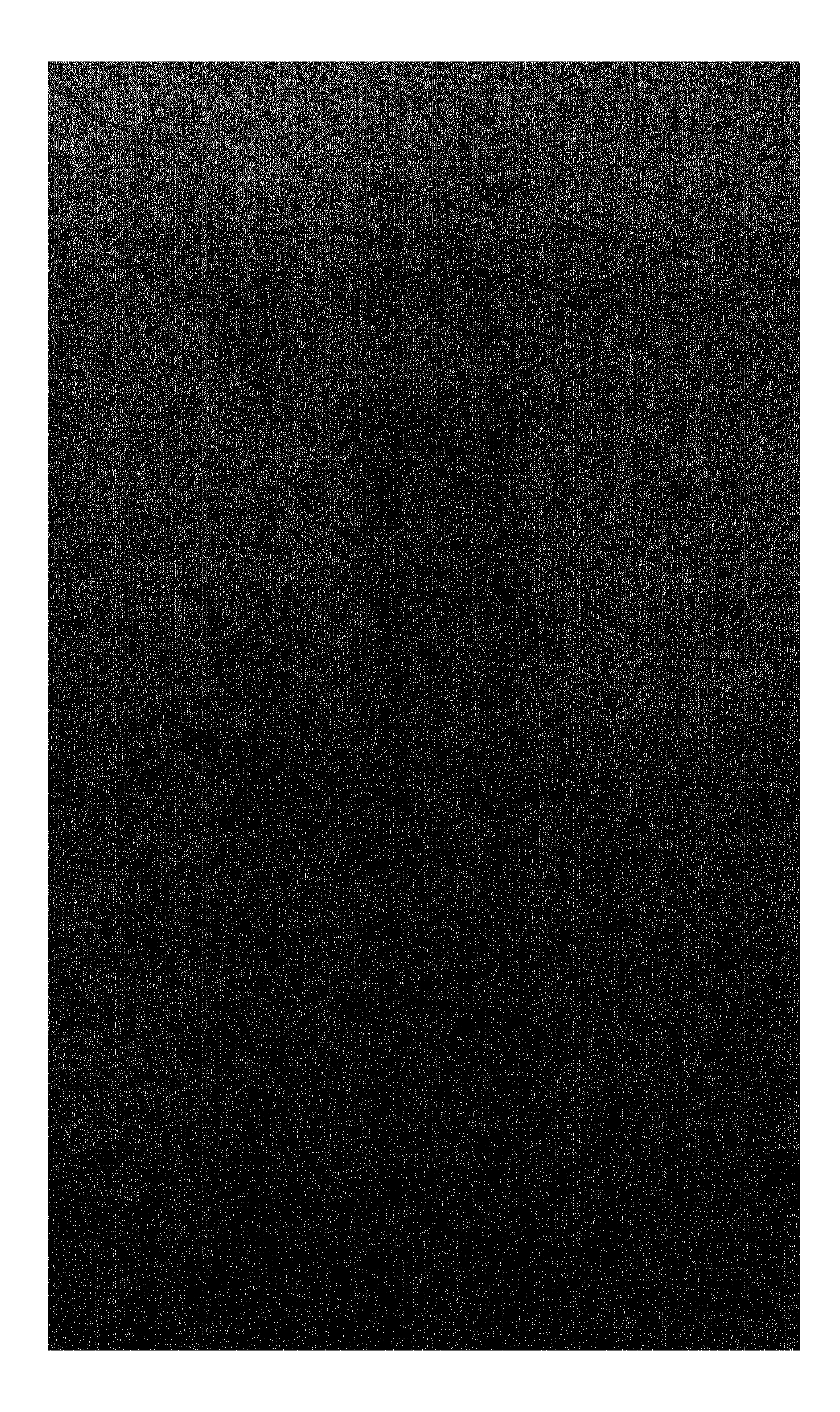
وتبقى في مذكراتي صورة لوحة مكتوبة بالحروف الصينية وبخط ماوتسي تونج ، رأيتها في قيادة الفرقة ١٩٨ ، وقد دعاني قائدها لحضور مناورة عسكرية قامت بها فرقته .

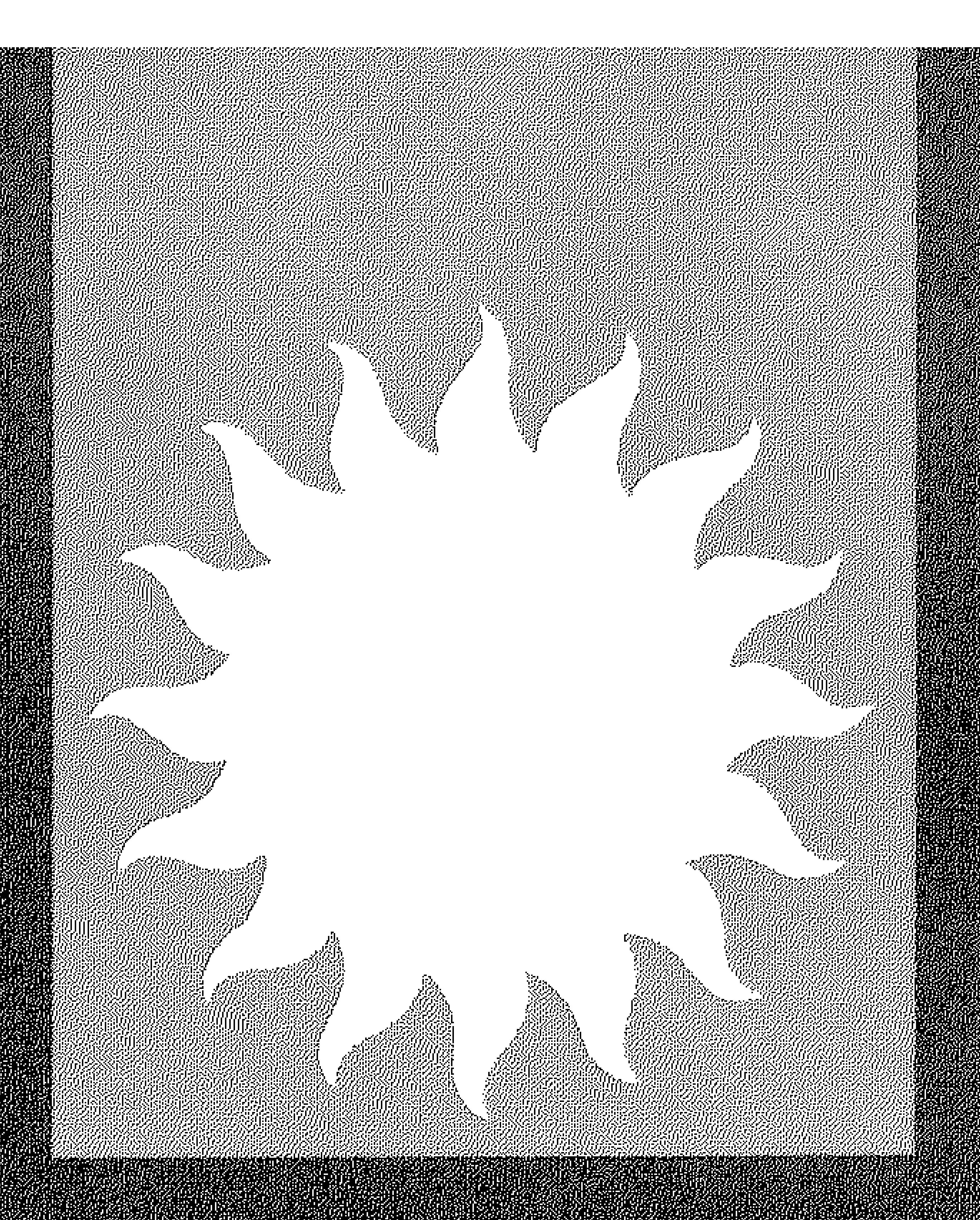
وسألته : ماذا تقول هذه اللوحة ؟ »

وقال لي :

ـ تحمل توجيهاً من ماوتسي تونج إلى الجيش الأحمر ... تعلمه القتال وتعلمه السياسة ، وفيها يقول ماو :

« احملوا السلاح دفاعاً عن حدودكم ، وتأملوا في نفس الوقت أحوال العالم وراء هذه الحدود ... وافهموا » .





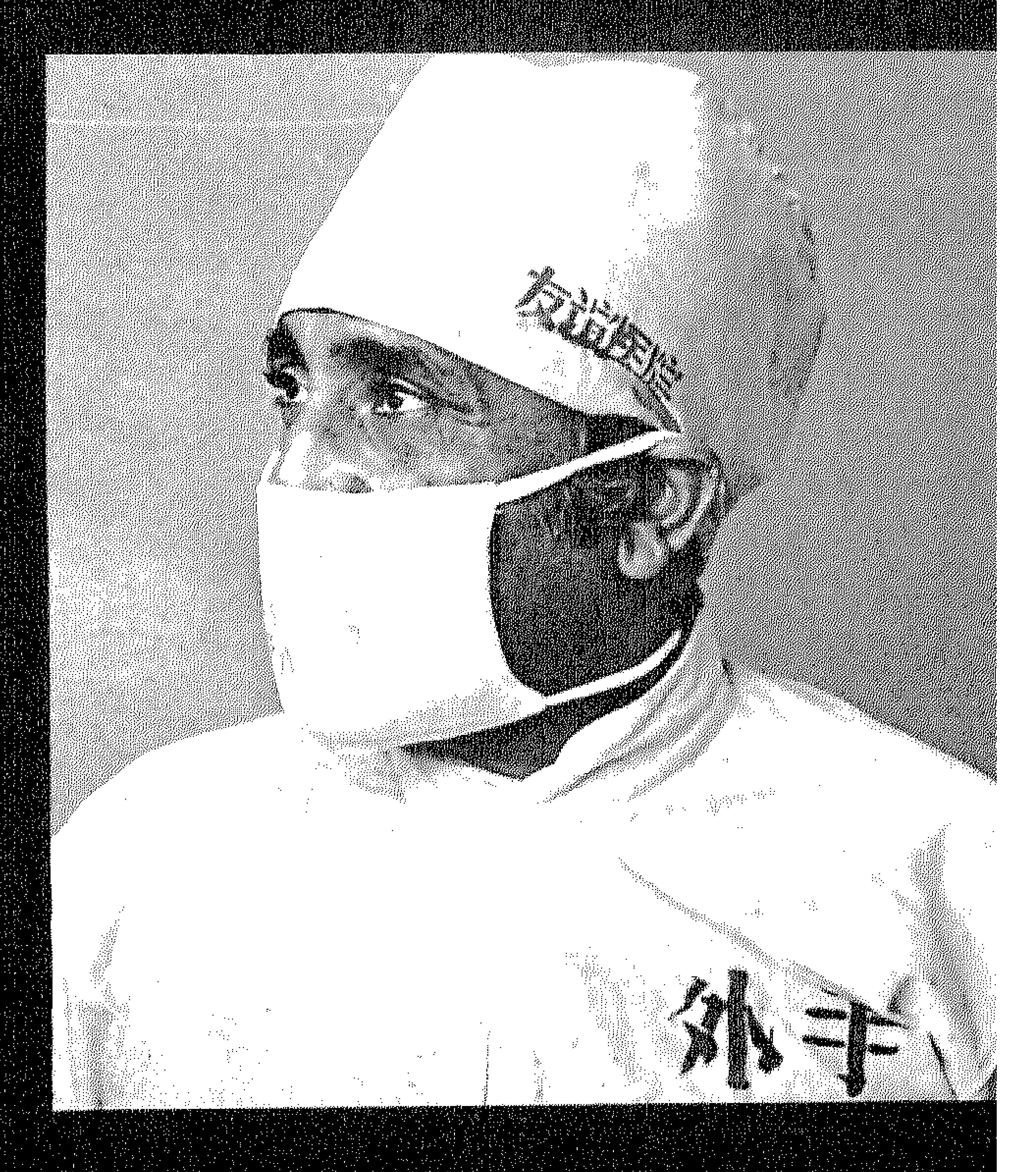
الشرق أحمر

东方红

الإبر والبشر



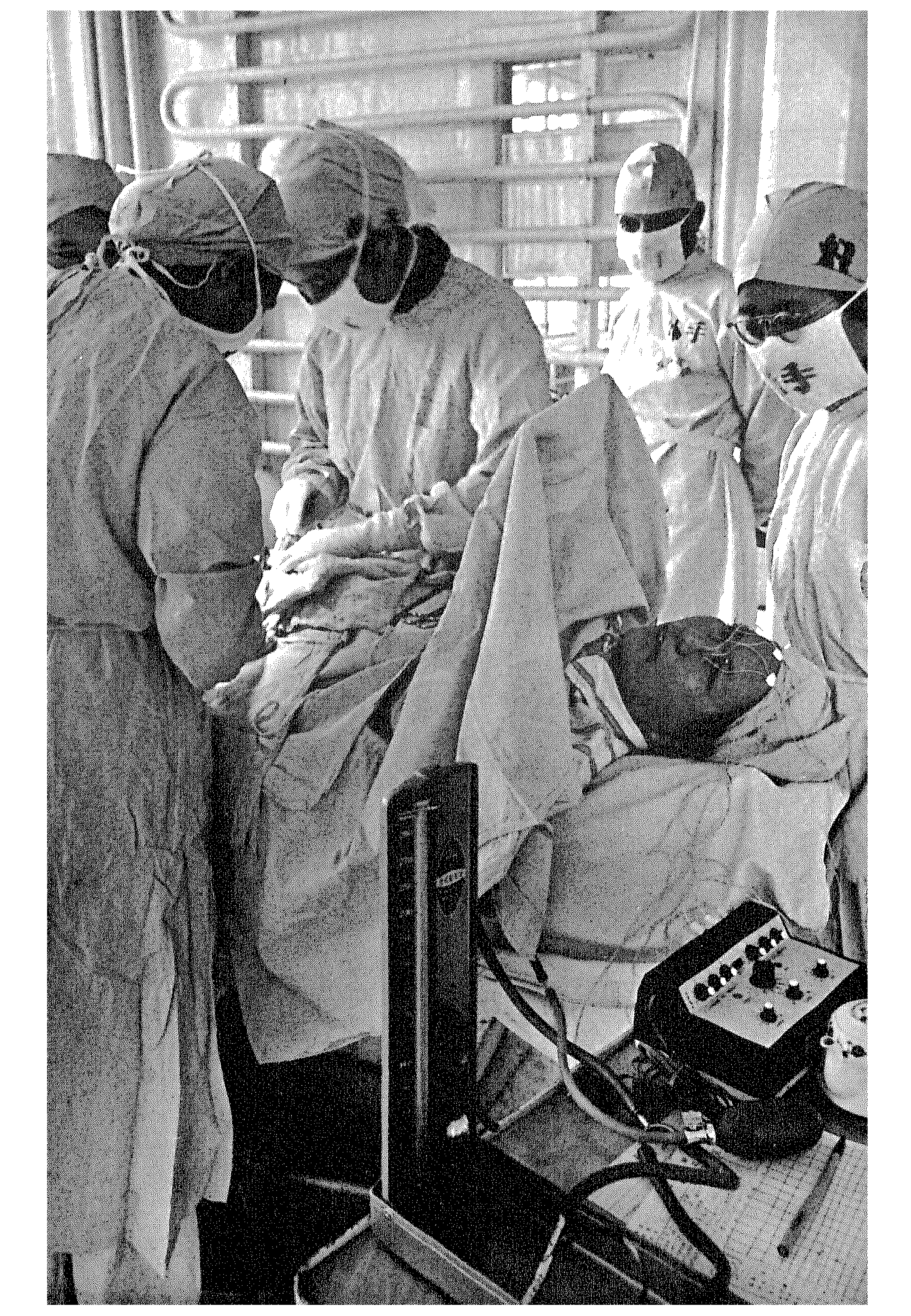
الدكتور شيانج نموذج لبعث إنسان جديد في الصين كانت لديه كل المغريات في أمريكا ، ولكنه وجد نفسه وسط شعبه ، وترك كل شيء وراء ظهره .



محمد حسنين هيكل بالملابس الطبية المعقمة أثناء حضوره ثلاث من العمليات الجراحية الكبيرة والدقيقة جرت كلها بطريقة الوخز بالإبر .

◄

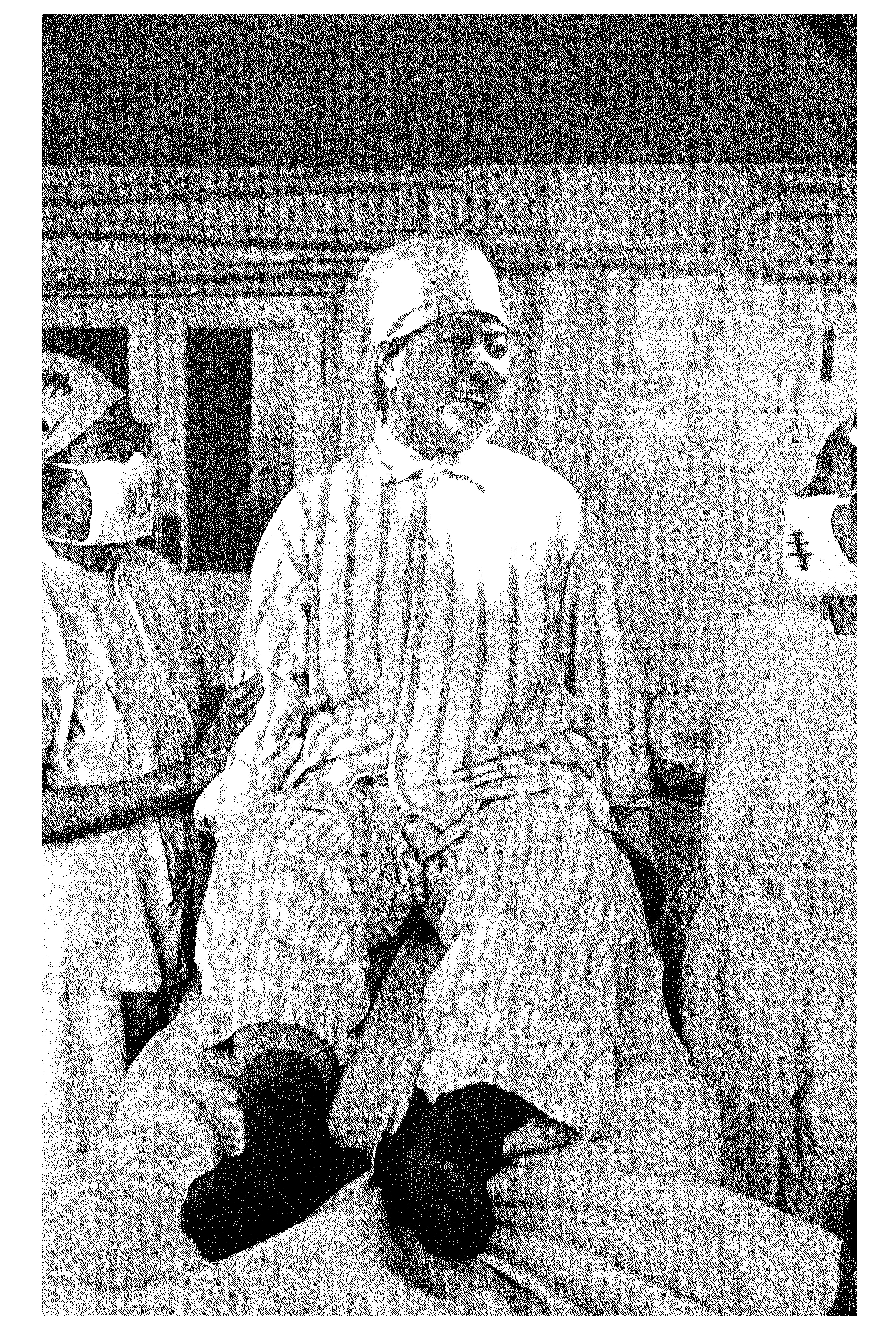
استرخت هذه السيدة الصينية بتخدير الإبر والأطباء يجرون لها عملية استئصال ورم في بطنها .





إحدى الممرضات تحمل الورم الكبير الذي جرى استئصاله تحت تأثير الوخز بالإبر .

بعد انتهاء العملية مباشرة المريضة جالسة تضحك مع أطبائها وممرضيها وتجيب على أسئلة كثيرة .



لا أعرف ماذا هو تماماً ، ولكني رأيته في أكثر من مكان في الصين !

ولست أستطيع أن أجد الوصف الدقيق له ، لأنه « حالة » أكثر منه « شيئاً » محدداً .

وقد أسميه « حالة عودة الروح إلى أمة » ، أو « حالة شعور أمة بأنها عثرت على نفسها » ، أو « حالة إحساس أمة بدورها » ...

واحدة من هذه الحالات ، أو ربما مزيج منها جميعاً !

* * *

وقلت إنني رأيت هذه الحالة في أكثر من مكان في الصين .

ولعلي أقول إن أكثر مكان رأيت فيه هذه الحالة بشكل حي ومثير ، كان هو « مستشفى السلام » في بكين ، ذات صباح باكر ، هبطت

درجة الحرارة فيه إلى عشرين درجة تحت الصفر .

وفي الليلة السابقة اتصل بي « بنج هوا » مدير الصحافة الأجنبية في وزارة الخارجية يقول لي :

ـ إنك طلبت أن تشاهد عملية جراحية تتم تحت تأثير الوخز بالإبر ؟ »

وقلت :
ـ نعم ، ولكن أحد مساعديك وهو « شيانج شينج تسونج » ، ذكر لي أن هذه العمليات لا تجرى كل يوم ، لأن الأمر يتوقف على استجابة المرضى ، وبعضهم لا يزال يتردد » .

وقال « بنج هوا » :
ـ الحظ معك فيما يبدو ، لأن هناك غداً ثلاث عمليات جراحية سوف تجرى تحت تأثير الوخز بالإبر ، وسوف تجرى كلها صباح الغد في مستشفى السلام،وتستطيع أن تشاهدها جميعاً إذا استيقظت في الوقت المناسب » .

وقلت :
ـ إنني سوف أكون في مستشفى السلام مع الفجر إذا اقتضى الأمر ، لأنني أريد أن أرى بعيني » .

* * *

كل المستشفيات في بكين تحمل أسماء لها رنين : « مستشفى السلام »... « مستشفى الصداقة » ... « مستشفى المحبة بين الشعوب » ... إلى آخره !

وعلى باب مستشفى السلام في بكين ، والرياح تهب في الصباح

الباكر بقسوة ، ولسعاتها أشبه ما تكون بضربات سياط من ثلج ، كان الدكتور « تشيانج وي هو سيون » واقفاً في انتظاري يقدم نفسه ، باعتباره : « نائب رئيس اللجنة الثورية في المستشفى » .

رجل تجاوز الخمسين ، ملامحه صينية محددة التقاطيع ، قامته منتصبة ، حيويته ظاهرة لأول وهلة ...

وأعترف ـ آسفاً ـ أنني لم أقدره حق قدره في اللحظات الأولى للمقابلة .

قلت لنفسي :

ـ ماذا سيكون ؟ نائب رئيس اللجنة الثورية في مستشفى السلام ... سيكون طبيباً متسيساً ، أو سياسياً متطبباً ، وهذه أحسن الفروض ... وسوف يكون ما أسمعه منه ترديداً حماسياً لنفس العبارات الإنشائية التي يزيدون ويعيدون فيها ـ أحياناً ـ في الصين ، ومع ذلك فليقل كل ما يريد أن يقوله ، وليكن الإصغاء إليه تدريباً آخر في الصبر ، ولكن المهم بعد ذلك أن أرى ما أريد أن أراه » !

* * *

وذهبنا إلى غرفة الاستقبال ، وجلست معه . أسمعه يتحدث عن مستشفاه ، وفي البداية كان ما سمعت هو ما توقعت .

«كل المستشفى الكبير في خدمة الجماهير ... مسئولياته تتسع لعلاج قرابة سبعمائة ألف متردد عليه في السنة ، لأغراض متعددة ، من الكشف السريع إلى العمليات الجراحية المعقدة ... ثم تطبيق تعاليم ماوتسي تونج في الطب ! »

ووجدت أننا وصلنا إلى العبارات الإنشائية بأسرع مما قدرت ، وقررت

ألا أسكت ، وقلت :

ـ دكتور تشيانج ... هل نتحدث في الطب أم في السياسة ؟

أنت رجل علمي بوصفك طبيباً ، وبهذا الوصف فإنني أريد أن أسألك ما هو دخل تعاليم « ماوتسي تونج » في علاج الأمراض ، وفي إجراء العمليات الجراحية ؟ »

وتوقعت أن يضيق « الدكتور تشيانج » بسؤالي المباشر على هذا النحو ، ولكن الرجل للحق ، ابتسم بهدوء وقال :

ـ إنني أتحدث عن الطب يا سيدي ...

إن الرئيس ماو قال لنا :

« اخدموا الشعب ، وعيشوا حياته ، وتعلموا منه » .

وهذا ما نحاول تطبيقه » .

واستطرد الدكتور تشيانج :

ـ إنني أعرف ما يمكن أن يكون قد خطر على فكرك وأنت تسمعني ... مثل ذلك فكرت فيه أنا أيضاً في يوم من الأيام ، عندما قررت العودة من الولايات المتحدة الأمريكية ، لكي أعمل وأعيش في الصين » .

وسألته مندهشاً :

ـ ماذا كنت تفعل في الولايات المتحدة الأمريكية ؟ »

ورد الدكتور تشيانج :

ـ إن أسرتي كانت تقيم هناك في كاليفورنيا ، وقد درست الطب شخصياً في جامعتها ، وحصلت من هناك على درجة الدكتوراه في طب الأطفال ، وعرضوا علي أن أعمل أستاذاً لطب الأطفال في جامعة

كاليفورنيا وقبلت لفترة ، ولكنني أحسست بنداء الصين ، وركبت باخرة من سان فرانسيسكو وعدت إلى وطني ، وكان ذلك في بداية نجاح الثورة في تحرير الصين » .

وأمسكت بالفرصة وقلت :

ـ دكتور تشيانج ، ألا نستطيع أن نتحدث بالإنجليزية ، ونوفر الوقت الضائع في الترجمة من الصينية وإليها ...

إنك تثير فضولي في أشياء كثيرة ، وأتمنى أن يكون حديثي معك مباشراً » .

ورد بإنجليزية مدهشة :

ـ كما تشاء يا سيدي » .

واستطرد :

ـ ولكن دعني أقدم لك تمهيداً سريعاً عن استخدام الوخز بالإبر وإجراء العمليات الجراحية تحت تأثيره ... إن العمليات الثلاث التي ستشهدها سوف تبدأ بعد دقائق ، ولا بد أن ننتقل إلى مسرح العمليات ، وهو من ثلاث غرف متصلة ، وكل واحدة منها سوف تشهد عملية جراحية يجرى التخدير فيها بواسطة الوخز بالابر .

كنت قد ذكرت أمامك قول الرئيس ماو :

« اخدموا الشعب ، وعيشوا حياته ، وتعلموا منه » .

عندما نطبق ذلك في الطب فسوف آخذ الوخز بالإبر كنموذج عملي .

الوخز بالإبر في الصين قديم .

وفيما عدا استخدام الوخز بالإبر في علاج بعض الأمراض ، فلقد ثبت أن الوخز بالإبر في بعض مواضع الجسم يمنع الإحساس بالألم تماماً .

إننا لم نستطع بالعلم الحديث أن نجد تفسيراً كاملاً لذلك .

وكنا بين أحد أمرين :

أن نترك التجربة حتى نستطيع الوصول إلى أعماقها ونكشف كل خباياها .

أو أن نمارسها وفقاً للقواعد القديمة التي ثبت نجاحها ، ثم ندرس ونحاول أن نستكشف من خلال الممارسة .

إذا كنا نريد أن نتعلم من الشعب ، فإننا لا نستطيع أن نلقي إلى البحر بتجاربه .

علينا أن نمارس طبقاً لهذه التجارب .

وعلينا أن ندرس ، وأن نزيد علمنا كل يوم بما ندرسه ، حتي نصل إلى وضع القانون العلمي الذي يشرح ويسبب وينظم كل شيء بالنسبة للوخز بالإبر .

إن هناك آراء كثيرة .

بعض هذه الآراء يقول إن الإبر عندما تغوص في أعصاب معينة تعزل إشارات الألم الصادرة من المخ .

وهناك آراء أخرى .

ولكن الثابت المجرب أمام عيوننا ، هو أن الوخز بالإبر في مواضع

معينة يحقق عزل الألم بالكامل ، ومن ثم تجرى العملية الجراحية لأي مريض وهو في كامل وعيه وإدراكه ، دون إحساس بالألم .

هذه مسألة مهمة لعدة أسباب :

* هناك مرضى لا تستطيع قلوبهم أن تتحمل وطأة أدوية التخدير المعروفة مضاعفاتها .

* هناك عمليات جراحية يتمنى فيها الجراح لو استطاع أن يحصل على تعاون المريض الواعي معه بينما هو يجري له العملية الجراحية .

* هناك ظروف واجهناها كثيراً ، ولم تكن هناك الأدوية المخدرة الكافية بينما الإبر في متناول أيدينا باستمرار .

هناك مشكلة واحدة في إجراء العمليات تحت تأثير الوخز بالإبر، وهذه المشكلة هي أن المريض يكون أحياناً في حالة توتر نفسي لأنه يشعر بكل ما يجري حوله ويراه بعينيه ، بينما ضرورات نجاح العملية الجراحية تقتضي أن يكون المريض مستريحاً تماماً ومسترخياً .

لكن المزايا في كثير من الحالات تفوق المشاكل .

والمسألة في النهاية تتوقف على رغبة المريض ، ونحن لا نفرض عليه شيئاً .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نجرب ؟... لماذا لا تستمر التجربة حتي نتوصل إلى القانون ؟... وإذا توصلنا إلى القانون العملي في هذه المسألة فإن ذلك سوف يكون إسهاماً عالمياً في فرع من أهم فروع الجراحة ...

ألا توافقني ؟ »

* * *

ولم ينتظر الدكتور تشيانج حتى أجيب عليه ، ولعله لاحظ أنني كنت أفكر فيما يقول وأنتظر بفارغ صبر ما سوف أرى ، ومن هنا فإنه استطرد :

ـ سوف نذهب الآن إلى قاعات العمليات ... قبلها سوف نمر على غرفة التعقيم ، وسوف أرجوك أن تخلع ملابسك وأن ترتدي ملابس طبية معقمة ».

وسألني فجأة :

ـ هل تخشى من منظر الدم ؟ »

وقلت :

ـ إنني كنت في يوم من الأيام مراسلاً حربياً ، وأرجو ألّا أكون قد نسيت ما تعلمت من معايشة المأساة الإنسانية العظمى : أعني الحرب ».

وقال دكتور تشيانج :

ـ إذا أحسست في أي لحظة أنك لا تستطيع أن تتحمل ، فلك أن تشير إلي ، وسوف نخرج على الفور من غرف العمليات » .

وتوجهنا عبر ممر طويل من قاعة الاستقبال إلى غرفة التعقيم ، وكان كل شيء معدّاً ، بما في ذلك ملابس طبية معقمة خرجنا بها في اتجاه غرف العمليات الثلاث .

وهناك كانت لحظة البداية على وشك أن تجيء .

* * *

وطفت مع الدكتور تشيانج بالغرف الثلاث :

* على مائدة العمليات في الغرفة الأولى مريضة اسمها « تينج يا فانج » ،

عمرها ٤٦ سنة ، أظهر الفحص،كما كشفت الأشعة ، عن وجود ورم في بطنها يحتمل أن يكون خبيثاً .

وبعد خمس إبر تغرس في الرأس والأنف ، سوف يفتحون بطنها ويستأصلون الورم .

* على مائدة العمليات في الغرفة الثانية مزارع شاب اسمه « لو يانج في » عمره ٢٤ سنة ، أظهر الفحص،كما كشفت الأشعة،عن وجود ورم في غدة رقبته .

وبعد ثلاث إبر تغرس في الأذن ، فإنهم سوف يفتحون رقبته ، على طول المسافة بين الأذنين ، ثم يستأصلون الورم .

* على مائدة العمليات في الغرفة الثالثة عامل في مصنع من مصانع المعادن اسمه « ليانج لي » ، وقد حدث له أثناء عمله أن طارت شظية معدنية واستقرت داخل قرنية العين .
وبعد ثلاث إبر تغرس في رأسه ، فإنهم سوف يفتحون قرنية العين ويحركون كتلة مغناطيسية مركبة على جهاز خاص ثم يجيئون بها أمام القرنية المفتوحة لتشد بجاذبيتها شظية المعدن المستقرة فيها .

* * *

ووقفت في ركن من غرفة العمليات الأولى مع الدكتور تشيانج أرقب ما يجري .

الإبر توضع في مكانها بواسطة ممرضة مدربة .

المريضة تتكلم مع الممرضة .

يجيء الطبيب المكلف بإجراء الجراحة لها ويتحدث معها ...

البطن كله مكشوف ، وإحدى الممرضات تجري عليه بمادة مطهرة ...

الجراح يمسك مبضعه ومن حوله مساعدوه ...

ويمضي المبضع الحاد على البطن يشقه تماماً ...

والمريضة تراقب ما يجري وتتكلم وتبتسم ...

وأنا في ذهول ، لا أصدق ما أراه بعيني ...

ويهمس الدكتور تشيانج في أذني :

ـ هل ننتقل إلى قاعة العمليات الثانية ... العملية التي تراها الآن سوف تستغرق ساعة ؟ »

وأنتقل إلى الغرفة الثانية معه ، وهناك نفس المنظر : الجراح يفتح رقبة « لو يانج في » وهو أيضاً يبتسم ويتكلم .

ونذهب إلى الغرفة الثالثة .

ثم نعود إلى حيث بدأنا ... إلى حيث « تينج يا فانج » ، وأجد الجراح يقول لها :

ـ « تينج يا فانج ... إننا استأصلنا ورماً كبيراً من بطنك ، ولكن هناك ورماً آخر أصغر منه ما زال مختفياً وسط الأمعاء ، وأريد منك أن تساعديني بأن تضغطي حتي يبرز هذا الورم المختفي » .

وتبتسم « تينج يا فانج » وتروح تضغط بعضلات بطنها المفتوح .

وتضغط ... وتضغط ...

وفجأة يقفز وسط الدم ورم آخر صغير يستأصله الجراح بدوره .

وأقول للدكتور تشيانج :

ـ دعنا نذهب الآن من هنا » .

* * *

ونذهب إلى غرفة التعقيم ونحن بعد بملابسنا الطبية ، ولكننا نزيح الأقنعة عن أفواهنا وأنوفنا ونجلس لنتحدث .

وأقول صراحة لمن حولنا من المرافقين والمترجمين ، إنني أريد أن أتحدث وحدي مع الدكتور تشيانج ، وأريد أن يكون حديثي معه مباشراً وصريحاً .

ويبتسم الدكتور تشيانج ويقول :
ـ إنني أتصور ما تفكر فيه ، وسوف أحاول قدر ما أستطيع أن أشرح لك ما تريد أن تسمعه مني » .

واستطرد :
ـ أظنك سوف تسألني هل أنا باق هنا باختياري ، أم أن أحداً يفرض على الإقامة هنا .

سوف أقول لك بأمانة .

كان في استطاعتي أن أبقى في الولايات المتحدة .

إنني بعد أن عدت إلى الصين زرت الولايات المتحدة أكثر من مرة ، وتلقيت عروضاً كثيرة للعمل بها ، ولكني اعتذرت .

كنت أشعر أن نداء الصين أقوى من أي نداء .

قد يقال لي إن مغريات الحياة المادية هناك كثيرة ، ولكن صدقني

هي لا تعني بالنسبة لنا هنا ما تعنيه بالنسبة لغيرنا .

إنني زرت عدداً من زملائي الأساتذة في جامعة كاليفورنيا ، ورأيت كيف يعيشون .

كل واحد منهم لديه بيت كبير .
ولديه سيارتان أو ثلاث .
وبعضهم لديه يخوت في البحر .

أنا هنا أعيش في غرفتين اثنتين .

ولا أملك سيارة ، وإنما أملك دراجة .

وليس لدي يخت ، وليس ذلك من أماني .

لقد أحسست أن هناك شيئاً في الصين يريد أن يعطي لشعبها حياة جديدة ، واعتقدت أن علي واجب المشاركة في صنع هذه الحياة .

لقد حاولت أن أطبق تعاليم ماو .

قال : « اخدموا الشعب » ، وبذلت كل جهدي .

وقال : « وعيشوا حياته » ، وتطوعت لمدة سنتين للعمل في الريف مع فيلق من فيالق الإنتاج .

تسألني أليس ذلك ضياعاً لوقتي كمتخصص؟وأقول لك :

ـ إنني تعلمت الكثير من العمل في الريف مع الفلاحين .

فهمت أشياء كثيرة كانت غائبة عني .

أدركت كم كنا بعيدين عنهم ، نشخص أمراضهم وكأننا في السماء ،

ونصف لهم الدواء وكأننا وسط النجوم .

وهذا خطأ .

لا تستطيع أن تعالج أحداً إلا إذا عشت حياته ، إلا إذا فهمت جوانب هذه الحياة وزواياها ، إلا إذا عرفت كيف يفكر ، وكيف يشعر ؟

أقول لك أيضاً إنني اكتشفت أشياء كثيرة .

تعلمت أكثر مما كنت أتصور عن الأعشاب الصينية وأثرها في العلاج .

سألت نفسي :

ـ لماذا نضع ثقتنا كلها في الأقراص بأشكالها المختلفة ، وفي الكبسولات بألوانها المتعددة ولماذا ننسى الطب التقليدي الذي جربته شعوبنا آلاف السنين ووجدت فيه شفاء ؟

لماذا لا نبحث فيه ؟ لماذا لا ندرس حوله ؟

هل يدهشك لو قلت لك إن أكثر من ثلاثة أرباع الدواء الذي نصفه للمرضى في الصين كلها هو الآن من الأعشاب الصينية ؟

لقد اقتنعت هناك أيضاً بفكرة الرئيس ماو عن « الأطباء الحفاة » .

لو حاولنا أن نخرج أطباء على أعلى درجات التخصص لكل مرض ولكل مريض في الصين لعجزنا .

ولكننا نستطيع أن ننجح إذا استطعنا أن نجد لكل حاجة ما يلبيها تماماً ... لا أكثر ولا أقل .

معظم أمراض الريف صداع ، ونزلات معوية ، ونزلات برد .

ما هي الضرورة لأعلى درجات التخصص ؟

إن الرئيس ماو اقترح أن ندرب من بين الفلاحين من يستطيعون علاج هذه الحالات ، بحيث لا تزيد مدة التدريب عن ستة شهور أو سنة على أكثر تقدير .

ولدينا الآن مئات الألوف ممن نسميهم الأطباء الحفاة .

هم ليسوا حفاة من الأحذية ...
ولكنهم حفاة من الشهادات العليا المتخصصة ...

والريف لا يحتاج إلى أكثر من ذلك في أمراضه العادية ، وأي واحد من الأطباء الحفاة يستطيع أن يحول إلى أقرب مستشفى ما يرى أنه غير قادر على علاجه .

هناك الآن ، كما قلت لك ، مئات الألوف من الأطباء الحفاة على طول وعرض الريف الصيني.وهم يحملون عبء ثمانين في المائة على الأقل من الخدمة الصحية لثمانمائة مليون إنسان في الصين ، ولك أن تتصور مقدار الجهد الذي كان لازماً لو أخذنا بالمنطق التقليدي ، ولم نسمح بالممارسة الطبية على أي مستوى إلا لخريجي كليات الطب في الجامعة » .

واستطرد الدكتور تشيانج :

ـ تسألني ... أليس في أعماقي صراع بين عالمين ... عالم رأيته في الولايات المتحدة ، وعالم أعيشه هنا في الصين ؟

دعني أعترف لك .

خطر لي ذلك في البداية .

ولكن ذلك لم يطل أمده بالنسبة لي وعاد إلي استقراري النفسي .

لا أحد يرغمني على ما أفعله هنا .

لقد عشت في أمريكا ، ولكني صيني .

وأنا هنا أعيش في الصين ... لا أعيش على أرض الصين فقط ، ولكني أشعر أنني أعيش حياة الصين .

حينما أركب الدراجة كل يوم من البيت إلى المستشفى ، وأندفع بها وسط آلاف من راكبي الدراجات الذاهبين إلى أعمالهم في الصباح الباكر ، أشعر أنني جزء من كل ... أشعر بالانتماء الحقيقي .. انتماء قطرة إلى تيار متدفق : إن القطرة قادرة على أن تجد نفسها في التيار المتدفق ، كما أن التيار المتدفق قادر على أن يجد نفسه في كل قطرة منه».

ويستطرد الدكتور تشيانج :

ـ تسألني أيهما النداء الذي يشدني أكثر ...؟

نداء الثورة أو نداء الصين .

الحقيقة أنني لا أفرق بين الاثنين .

لو كانت الثورة بغير الصين لما شدتني إليها بالوطنية .

ولو كانت الصين بغير الثورة فلست أعرف كيف كان يمكن أن أقاوم وحدي ، ربما كنت وجدت من السهل علي أن أقيم في أمريكا .

هناك صلة ما بين الوطن ... وبين القيم السائدة في المجتمع الذي يعيش ويعمل على أرض هذا الوطن .

أليس هذا صحيحاً ؟ »

وقلت :
ـ دكتور تشيانج ... ذلك صحيح إلى أبعد الحدود ! »

* * *

ومضت دقيقة صمت ... ولم أكن أعرف فيما يفكر هو ، لكني كنت أعرف أين كانت أفكاري .

وفتح باب غرفة التعقيم ، ودخل أحد الأطباء يقول :
ـ ألا تريدون أن تروا المرضى بعد أن انتهت عملياتهم ؟ »

وقلت :
ـ هل سنضع مرة أخرى أقنعة التعقيم ؟ »

وقال الدكتور تشيانج :
ـ لا داعي لذلك الآن ، لأنهم سوف يجيئون إلينا هنا في طريقهم إلى أسرتهم في عنابر المستشفى » .

وبينما كنت لا أزال أنتظر معنى ذلك ، إذا بالمريضة التي كان بطنها مفتوحاً منذ ساعة ، جالسة على سرير فوق عجل تضحك وتتحدث .

وإذا ذلك الشاب الذي رأيت رقبته تقطع من الأذن إلى الأذن يمشي على قدميه ويهز يدي مصافحاً .

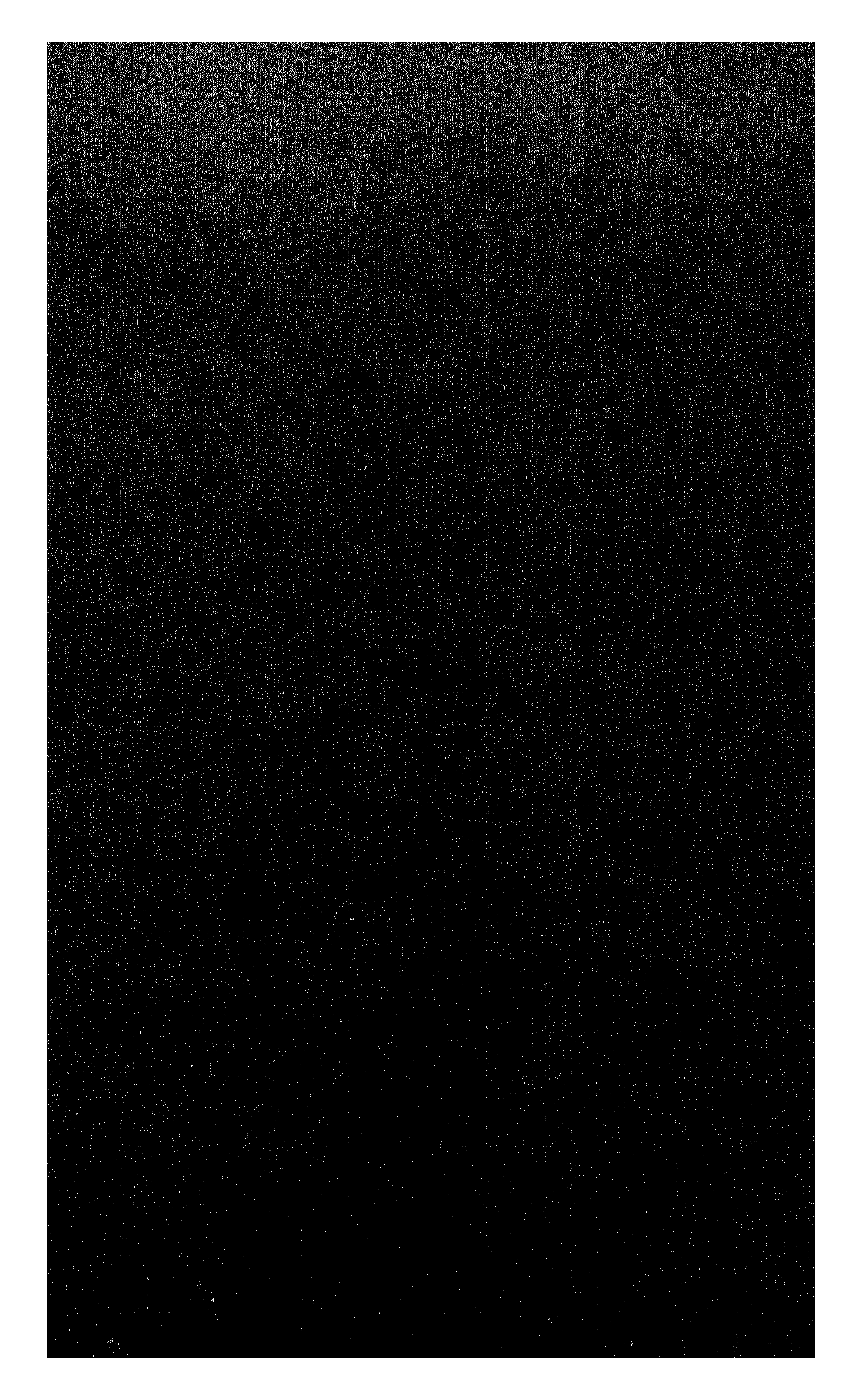
وإذا الثالث بضمادة على عينه ، التي شهدت عملية جراحية معقدة ، يمشي هو الآخر في أعقابهما .

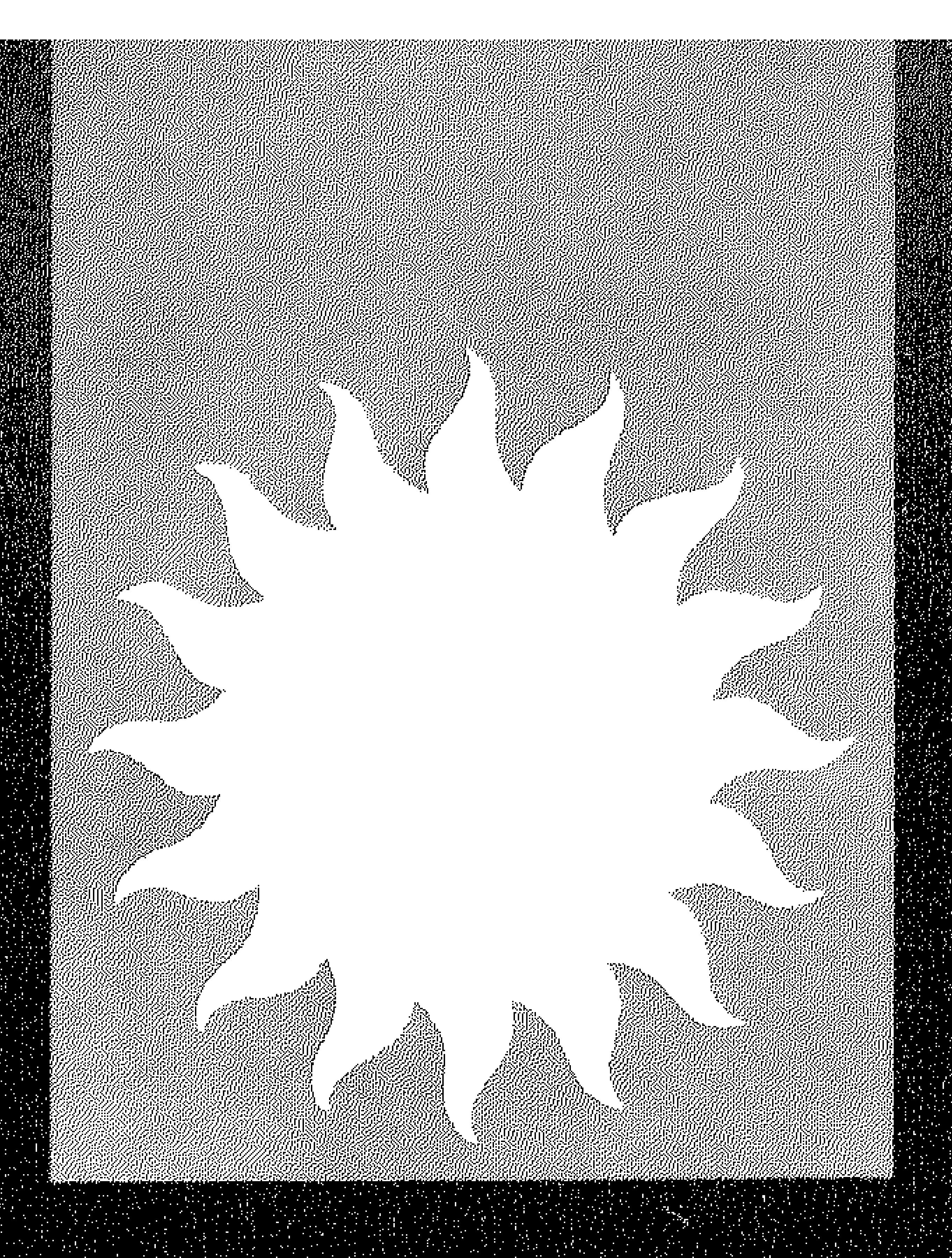
وقال الدكتور تشيانج :

ـ هذه أول تجربة ترى فيها الجراحة تحت تأثير الوخز بالإبر ... على أي حال أنت أول زائر جاءنا إلى هذا المستشفى من مصر » .

وقلت له :

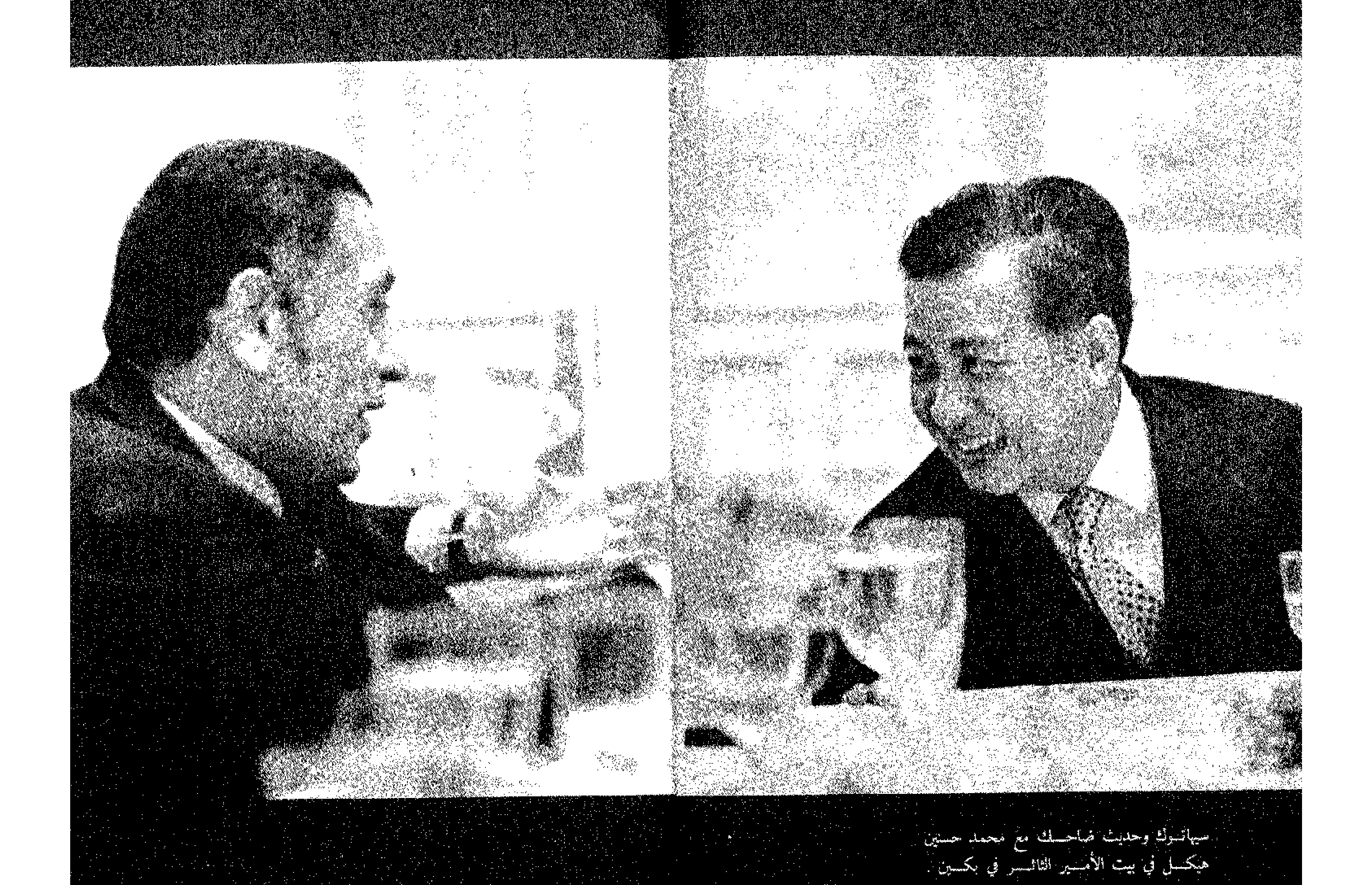
ـ « دكتور تشيانج ... أتمنى ألّا أكون آخر زائر من مصر يجيء إليكم ... وليس فقط لمجرد رؤية الوخز بالإبر !! »





غـدَاء مع سيهَانوك

إنسانٌ : نصْفُ ثائِر وَنصْفُ فنّان !



سيهانوك وحديث ضاحك مع محمد حسنين
هيكل في بيت الأمير الثائر في بكين.

... اللقاء مع الأمير « نوردوم سيهانوك » رئيس دولة كمبوديا ، تجربة « لطيفة » دائماً ...

وقد اخترت الوصف بعد جهد في البحث .

لم أستعمل مثلاً في وصف اللقاء مع سيهانوك أنه تجربة « خطيرة » ، أو « مثيرة » ، أو « كبيرة » ، أو غير ذلك مما يخطر على البال تلقائياً إزاء المقابلات مع شخصيات سياسية عالمية ، ذلك لأن سيهانوك ليست لديه أخبار تقيم الناس وتقعدهم ، وليست لديه أفكار لها القدرة على تغيير شكل الدنيا أو التأثير فيه .

وربما كان أصدق ما يمكن أن يقال عنه ، إنه رجل أحب الحياة كثيراً ، وأحبه كثيرون في هذه الحياة . وأتذكر أن جمال عبد الناصر كان من بين الذين يحبونه ، وأتذكر أن نهرو قال لي عنه يوماً وصفاً لا

أنساه ... قال نهرو :

ـ إن سيهانوك في اجتماعاتنا ـ كان يقصد اجتماعات الدول الآسيوية والأفريقية واجتماعات الدول غير المنحازة ـ مثل باقة زهور ملونة وبهيجة .

ربما نختلف فيها من حيث الفائدة .

ولكنها بالتأكيد تضيف إلى الجو وتضفي عليه لمسة خاصة » .

وقال لي سيهانوك نفسه عندما لقيته أخيراً في بكين :

ـ إن ماوتسي تونج قال لي عندما قابلته مرة :

نوردوم ... أنت أمير ، وأنا لا أحب الأمراء ، ولكن الغريب أنني أحبك وأستمتع بالحديث معك أكثر مما أستمتع به مع بعض القادة الثوار أو الذين يدعون الثورية » .

ويغرق سيهانوك في الضحك كأنه رجل خلي البال يعيش ليأكل ويشرب ويغني ويرقص ويؤلف ألحاناً لموسيقى الجاز يسجلها على اسطوانات ويقدمها لأصدقائه ، وإن كان قد تطور أخيراً وألف سيمفونية في تحية الرئيس ماوتسي تونج ، أهداني اسطوانة منها ، أعترف أنني لم أسمعها حتى الآن .

ولسيهانوك ميزة أخرى ، ذلك أن ظروفه أتاحت له أن يعيش وسط الكبار ، وأن يلاحظ تصرفاتهم ، وأن يسمع منهم ، وبالتالي فهو مليء بالحكايات والذكريات ، ولأنه ذكي فإنه في كثير من الأحيان يستطيع أن يقول ملاحظات نفاذة يمكن أن تكون لها قيمة تاريخية .

وقصته مثل قصة الهند الصينية ـ التي تنتمي كمبوديا إليها ـ مليئة بالمتناقضات :

* هي ـ الهند الصينية ـ تعيش تحت ظل الصين ، ولكنها تحاول أن تحتفظ بتوازنها بقدر ما تسمح الظروف في هذا العالم للمطحونين أن يحتفظوا بتوازنهم .

أصبحت فيتنام الشمالية مثلاً شيوعية .

وارتمت لاوس في أحضان الولايات المتحدة الأمريكية .

وحاول سيهانوك في كمبوديا أن يسلك طريق عدم الانحياز .

* والحرب في الهند الصينية لم تنقطع ، ولم يتوقف دوي الرصاص منذ قرابة الأربعين عاماً حتى اليوم .

ثورة ضد الفرنسيين أولاً ... ثم مقاومة ضد اليابانيين ... ثم عودة إلى الحرب ضد الفرنسيين عندما عادوا إلى الهند الصينية بعد هزيمة اليابان ... ثم قتال ضد الولايات المتحدة منذ أخذت بالاستعمار الجديد دور الإمبراطوريات القديمة المنهارة .

* وشهدت الهند الصينية أبطالاً تاريخيين مثل « هو شي منه » ، وشهدت شخصيات أسطورية مثل « الجنرال جياب » بطل ديان بيان فو ، التي انهزم فيها الجيش الفرنسي العريق أمام عصابات الثوار نصف العراة تحت قيادة جياب ، وشهدت أميراً شيوعياً يقود جيشاً من الحمر ضد أسرته هو الأمير « سوفانا فونج » قائد حركة « الباثيت لاو » في لاوس ، وشهدت عملاء للولايات المتحدة الأمريكية مثل الجنرال فان ثيو رئيس فيتنام الجنوبية ، وشهدت أدوات للمخابرات المركزية الأمريكية مثل الماريشال « لون نول » الذي قام بانقلاب على سيهانوك واضطره أن يقود حركة تحرير كمبوديا من بكين .

* وعاشت الهند الصينية ملحمة بطولة مجيدة ، تتمثل في مقاومة

الشعب الفيتنامي ، وعاشت مذابح رهيبة ، وأقرب التقديرات إلى الصدق تقول إن شعوب الهند الصينية فقدت في حروبها المتصلة والمستمرة أكثر من أربعة ملايين قتيل ، والغريب أن الولايات المتحدة الأمريكية صرفت وحدها على هذه العملية من القتل المنظم ١٥٠ بليون دولار ـ أي ١٥٠ ألف ألف مليون دولار ـ وأغرب من ذلك أن هناك الآن خلافاً بين الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام الشمالية ، حول المعونة التي يجب أن تقدمها الأولى للثانية ، إسهاماً في إعادة البناء والتعمير .

تعرض الولايات المتحدة بليونين ونصف بليون دولار ، وتصر فيتنام الشمالية على أن أربعة بلايين دولار هو أقل ما تستطيع القبول به من الولايات المتحدة !

* * *

في وسط هذا كله ، كانت حياة « نوردوم سيهانوك » قصة متناقضات أخرى .

كان أبوه ملكاً على كمبوديا ، وكان هو أميراً شاباً يرأس وزارة كمبوديا .

واختار طريق عدم الانحياز ، واتجه نحو الاشتراكية .

ومات الملك ، وتنازل الأمير عن حقه في العرش ، وتقدم للانتخابات الشعبية ، واختير رئيساً للدولة .

ولم يكن في حياته شيء كامل على الإطلاق .

كان نصف سياسي ، ونصف شاعر ، ونصف فنان .

وكان صديقاً للنخبة اللاهية اللاعبة في العالم ، وفي نفس الوقت

كان صديقاً لكل الثوار الكبار في عصره ، من ماوتسي تونج ، إلى شواين لاي ، إلى نهرو ، إلى عبد الناصر ، إلى تيتو .

وكانت العواصف من حوله أقوى من طاقته ، ويقول هو في جملة بارعة ، وصادقة ، يقول وهو ما يزال يضحك من قلبه :

ـ إن مشاعري تمزقت بين الذين أحبوني ، وبين الذين خانوني .

خانني الأمراء وأنا منهم ... ووقف بجانبي الشيوعيون مع أنني من الأمراء ! »

* * *

وكان لقاؤنا في القصر الذي يقيم فيه في بكين ، وكان في الأصل مقراً لوزارة الخارجية الصينية ، وبعد انتقال وزارة الخارجية الصينية منه إلى مبناها الجديد ـ الذي شارك موظفوها في بنائه بأيديهم ـ فإن شواين لاي وضع القصر تحت تصرف سيهانوك عندما قرر الإقامة في الصين ليقاتل ضد الانقلاب العسكري الذي قاده ضده قريبه وصديقه « الماريشال لون نول » وكان سيهانوك نفسه قد اختاره رئيساً للوزراء .

وبدأ لقاؤنا في الثانية عشرة ظهراً ، واستمر حتى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، وتخلله غداء دعاني إليه سيهانوك على مائدة تملؤها الشموع والزهور ، ويشعر الإنسان عليها أنه انتقل فجأة من الصين إلى الريفييرا الفرنسية ، التي كانت مرتعاً لمغاني سيهانوك في أيام خوال .

وكان كل شيء في الطعام فرنسياً من أول رشفة من حساء البويابيز ـ حساء السمك الشهير في مارسيليا ـ إلى آخر قطرة من الشمبانيا التي كان سيهانوك يشربها مع غدائه .

ولعله وجد من الضروري أن يقدم لي تفسيراً فقال ... ضاحكاً من قلبه مرة أخرى :

ـ هناك حدود لما تستطيع معدتي أن تتحمله من الأطباق الصينية ... لهذا فإن معي طباخاً فرنسياً . »

ولم يتوقف طوال أربع ساعات ونصف الساعة عن الكلام ، ومن قلبه ، ولم يتوقف أيضاً عن الضحك ، ومن قلبه أيضاً ، حتى وهو يتحدث عن الخيانة والخونة ويقسم الخونة إلى أنواع قائلاً :

ـ هناك نوعان من الخونة : خونة أقوياء مثل الجنرال ثيو في سايجون [عاصمة فيتنام الجنوبية] .

وخونة ضعفاء مثل الماريشال لون نول في بنوم بنه [عاصمة كمبوديا] .

الخونة الأقوياء تستطيع أن تجد فيهم شيئاً .

والخونة الضعفاء لا تستطيع أن تجد فيهم شيئاً ...

الخونة الأقوياء مصيبة .

والخونة الضعفاء عار .

كنت أريد لكمبوديا على الأقل خائناً قوياً نقول إنه مصيبة ، ولكن المحزن أن الخائن الذي جاءنا كان ضعيفاً ، وهذه إهانة لشعب كمبوديا ولي » .

ويستطرد بحكمة نفاذة يقول :

ـ عندما نختار الأغبياء علينا أن ندفع الثمن ... إنني أنا الذي اخترت لون نول رئيساً لوزراء كمبوديا ، وكنت أقول لنفسي إنه غبي ولا يستطيع

أن يفعل إلا ما أقول له ...

مشكلتنا عندما نختار الغبي أن غيرنا يقول له أيضاً .

إذا اخترت من أعتقد أنه سيكون ألعوبة في يدي ... فما هو ضماني لئلا يكون ألعوبة في يد غيري ... خصوصاً إذا لم تكن يدي هي الأقوى ؟

من هنا تعلمت الدرس ، ولكني تعلمته بعد فوات الوقت ... بعد الساعة الثانية عشرة مساء ! »

ولقد اكتشف سيهانوك بعد أن انتهى لقاؤنا الطويل ، أنه لم يقل لي أشياء كان يريد أن يقولها ، وهكذا تلقيت منه في اليوم التالي خطاباً طويلاً بالفرنسية كتبه بخط يده ، يضيف فيه ما غاب عنه ذكره أثناء اللقاء .

* * *

وكانت كمبوديا بالطبع بداية حديثة . ونحن بعد في الصالون لم ننتقل إلى قاعة الطعام .

قال لي :

ـ إن قوات الجبهة الوطنية في كمبوديا تسيطر الآن على ٨٥ ٪ من أراضيها ، ونظام « لون نول » محاصر في « بنوم بنه » ، وبعض المدن الأخرى .

أراد « لون نول » بانقلابه عليّ أن يكون ملكاً ، فلم يصنع أكثر من أن حول نفسه إلى سجين .

الجبهة الوطنية للمقاومة الكمبودية تضم كل الشعب ، حتى الشيوعيين ، ولكنهم يدينون بالولاء لي وللملكية ... أليس هذا غريباً ؟

لست أنا الذي أقول إن قواتي تسيطر على ٨٥ ٪ من أراضي كمبوديا ، ولكن صحف أمريكا نفسها تعترف بذلك ، وقد أعددت لك مجموعة من قصاصات هذه الصحف لكي تراها بنفسك شهادة على الحقيقة » .

واستطرد سيهانوك :

ـ إن الاتفاق بشأن إنهاء الحرب في فيتنام لن يحل مشكلة الهند الصينية ... لن يحل مشكلة كمبوديا ... نحن سنواصل القتال ... والصين سوف تساعدنا ، وقد وقعنا معهم اتفاق معونة عسكرية قبل أن يعلن توقيع اتفاق فيتنام في باريس .

ولقد أرسلنا إلى كمبوديا ... إلى المناطق المحررة ، كميات هائلة من المعدات والذخائر ، وحتى لو حاول الأمريكيون حصارنا ، فإننا بما استطعنا تخزينه قبل اتفاق باريس ، نستطيع مواصلة الحرب لمدة سنتين على الأقل .

لقد كنا نخسر ستين في المائة من المواد الحربية التي ننقلها إلى كمبوديا بواسطة فيتنام الشمالية على طريق هو شي منه .

الغارات الأمريكية مخيفة .

والآلات الإلكترونية التي يستعملونها مروعة .

ولكن ذلك لن يوقفنا .

لا تتصور مقدار التضحيات التي تحملوها في فيتنام الشمالية ... تضحيات لا يتصورها عقل ولا قلب .

إن الوفاق بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كان عنصراً مؤثراً فيهم ، لكني أعرف قادة فيتنام الشمالية كلهم ، وأعرف أنهم

لن يتوقفوا قبل تحقيق وصية هو شي منه .

إنني حضرت جنازة هو شي منه في هانوي ، وعرفت بقصة وصيته .

كتبها قبل أن يموت بأيام ، وكتبها بخط يده ، وسلمها وهو على فراش الموت لهم جميعاً ، وكانوا واقفين حول سريره .

إن الوصية تقول : « إن روحي لن تهجع في الملكوت السماوي قبل أن تتحرر فيتنام كلها وتتوحد » .

إن هذه الوصية سوف تظل دافعهم في فيتنام حتى يحققوا له ما أراد».

* * *

ويستطرد سيهانوك :

ـ لا أثق في الولايات المتحدة.في يوم من الأيام كنت ضيفاً على كيندي في البيت الأبيض ... تصورت أنني أستطيع أن أثق فيه .

لكن الرئيس في الولايات المتحدة ليس كل شيء .

هناك قوى ومصالح كلمتها نافذة حتى عليه ... حتى على البيت الأبيض .

لا أعرف ماذا يريدون الآن في الهند الصينية ... ماذا يريدون بفيتنام شمالاً وجنوباً ... ماذا يريدون بلاوس ... ماذا يريدون بكمبوديا ؟

مخاوفي أن هدفهم هو تقسيم الهند الصينية إلى شظايا أكثر مما هي عليه الآن من شظايا .

قسموا فيتنام في مؤتمر جنيف سنة ١٩٥٤ ، بين شمال وجنوب.

بدلاً من فيتنام واحدة ، أصبح لدينا ٢ فيتنام .

ما أخشاه الآن هو أن نجد لدينا ٣ فيتنام .

فيتنام في الجنوب في سايجون ، وفيتنام تحت الجبهة الوطنية في المناطق المحررة في الجنوب ، وفيتنام في الشمال في هانوي .

ما أخشاه أنهم سوف يحاولون تقسيم لاوس إلى اثنتين .

ما أخشاه أنهم سوف يحاولون تقسيم كمبوديا إلى اثنتين ! »

* * *

ويستطرد سيهانوك :

ـ أحياناً أحار في فهم السوفيت أيضاً .

إنني كنت في الاتحاد السوفيتي حينما جاءت الأنباء الأولى عن بداية القلاقل التي وقعت في كمبوديا وأدت إلى قيام الانقلاب علي .

كانت هناك مظاهرات ضد الفيتناميين الشماليين ، بدعوى أنهم يدخلون أراضي كمبوديا ، خصوصاً في منطقة « هضبة الببغاء » ، وكنا نعرف ذلك دائماً

كانوا يجيئون إلى أراضينا لالتقاط أنفاسهم ، ولم نكن نمانع في ذلك بحكم حقوق النضال المشترك ... كنا نتغاضى عن ذلك ، كما كانت المغرب وتونس تفعلان مع جيش التحرير الجزائري وقت الحرب الجزائرية .

وكان الفيتناميون الشماليون يتصرفون بمنتهى الشرف .

كانوا يستريحون على أراضينا وفي وسط الغابات الكثيفة ، ولا يضايقون أحداً .

وكانوا يشترون بعض المؤن من قرانا ويدفعون ثمنها .

وكنا نبيع لهانوي كميات من الأدوية ضمن اتفاق تجاري معلن .

الأمريكيون بدأوا يثيرون ضجة حول ذلك .

و« لون نول » رئيس وزرائي وقتها سمع منهم ـ وقبض أيضاً ـ ونظم مظاهرات ضد الفيتناميين الشماليين ... كانت المظاهرات مدبرة ، ليس في هذا شك .

وسمعت أخبارها وأنا في موسكو ، وقال لي الرئيس بادجورني :

ـ إن الضغوط عليك سوف تشتد من الأمريكيين وأصدقائهم في كمبوديا .

وقلت له :

ـ إن الأمريكيين سبق لهم الكلام معي في هذا الموضوع وأخبرتهم برأيي فيه ...

قلت لهم :«إنني لا أستطيع أن أمنع الفيتناميين وهم إخواننا من غابات يستريحون فيها ... وحتى لو أردت أن أمنعهم فليست لدي القدرة لتنفيذ ذلك ... كيف أستطيع أن أمنع التسلل داخل حدودي ... إن لديكم مليون جندي في فيتنام ... نصف مليون أمريكي ونصف مليون فيتنامي جنوبي ، فلماذا لا تستخدمونهم أنتم في منع التسلل ... أنتم تعجزون عن ذلك وتطلبون مني أن أقوم بدور رجل البوليس في خدمتكم.. وجيشي كله لا يزيد عن ثلاثين ألفاً ، فكيف أستطيع ؟ » .

وقال الرئيس بادجورني :

ـ نحن نفهم موقفك ونقدره ، ولكن المشكلة في بعض معاونيك

... نحن نخشى أن يكون لون نول قد اتفق مع الأمريكيين ... ونريدك أن تعرف أننا نعتمد عليك » .

وفي اليوم التالي كرر لي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي نفس الكلام ونحن على الغداء في الكرملين ، وبعد الغداء جلسنا معاً لفنجان قهوة ، وقال لي كوسيجين بالحرف :

« يجب أن تمنع « لون نول » من طعن الثورة الفيتنامية في ظهرها ... إذا فعلوا ذلك فإننا لن نغفر لهم ... إن الثورة الفيتنامية الآن في موقف صعب ، وهي أمام نقطة تاريخية فاصلة ، وهم يعتمدون عليك ، وقد ساعدتهم حتى الآن ، وأثبت موقفك المعادي للاستعمار بطريقة واضحة .

إنك أديت دورك ، ولا بد أن تواصل أداءه لصالح حركة التحرر في فيتنام ، وسوف نعطيك كل تأييدنا الآن وفي المستقبل » .

ويستطرد سيهانوك :

ـ بعد أن تركت كوسيجين ، وجدت في انتظاري برقية من شواين لاي رئيس وزراء الصين يقول فيها :

« إن التطورات الأخيرة في كمبوديا ، والحوادث ضد الفيتناميين تثير قلقنا ، لأنها يمكن أن تؤثر في موازين القوى بين الثورة الفيتنامية وبين قوى الاستعمار الأمريكي ، وليس لدينا من نعتمد عليه في تصحيح الأمور غيرك ، وقد ساعدت الثورة الفيتنامية حتى الآن ، ولا بد أن تواصل دورك التاريخي » .

وفي اليوم التالي كان مقرراً أن أسافر إلى بكين .

وحضرت اجتماعاً مع الزعماء السوفيت ، حضره بريجنيف وكوسيجين. وقال لي كوسيجين :

ـ إن أصدقاءك الفيتناميين لهم ذاكرة قوية ، ولن ينسوا إطلاقاً من يساعدهم ، كما أنهم لن يغفروا لمن يخونهم في اللحظات الحرجة ؛ وهم يعتمدون عليك » .

وتحدث بريجنيف في نفس الاتجاه .

ثم كان مقرراً أن أذهب إلى المطار ، وكان معي في السيارة كوسيجين.

في ذلك الوقت كان الانقلاب ضدي قد وقع في بنوم بنه ، ولكن أحداً لم يخطرني بشيء .

ونحن في السيارة فقط قال لي كوسيجين :

ـ يظهر أن المجلس الوطني في بنوم بنه قد سحب الثقة منك تحت ضغط الجيش بقيادة الماريشال لون نول رئيس وزرائك » .

وسألني كوسيجين :

ـ ماذا يعني هذا القرار ؟ »

وصحت في السيارة :

ـ يعني انقلاباً ضدي ... يعني انقلاباً ضدي » .

وقال لي كوسيجين بدهشة :

ـ إلى هذا الحد ؟ » .

قلت :

ـ نعم ... هذا ما يعنيه القرار »

وقال كوسيجين :

ـ وماذا تنوي أن تفعل ؟ » .

ـ سوف أقاوم ... سوف أقاتل » .

وقال لي كوسيجين :

ـ إنك تستطيع أن تعتمد إلي أقصى حد على الاتحاد السوفيتي،ولك أن تثق في مساعدتنا لك ... سوف نساعدك دائماً».

واستطرد كوسيجين :

ـ أنت ذاهب الآن إلى بكين ، وسوف تكتشف الصينيين على حقيقتهم ... لقد كانوا يساعدونك وأنت في الحكم في بنوم بنه ، وسترى الآن أنهم سوف يتخلون عنك » .

وسكت سيهانوك ، فقد جاء من يدعونا إلى مائدة الغداء .

وكان لا يزال شارداً ، وطبق حساء السمك يوضع أمامه ، ثم تنبه فجأة وقال :

ـ هل تحب حساء السمك « البويابيز » ، نحن نصنعه على طريقة مارسيليا ... هناك شبه كبير بين مارسيليا والإسكندرية . »

ويستطرد :

ـ تريدني أن أعود إلى حيث كنت في الحديث :

حسناً ... إن الصينيين اعترفوا بي وساعدوني ... وحين طلبت من الروس أن ينفذوا ما وعدوني به ، قالوا إنهم ، لاعتبارات دولية لا يستطيعون قطع علاقاتهم مع بنوم بنه ، وإذا كنت أريد أن أقيم علاقات

دبلوماسية وسياسية معهم ، فليكن ذلك عن طريق لجنة التضامن الآسيوي الأفريقي » .

وبدا أن مزيجاً فواراً من الغضب والحزن طغى على سيهانوك ، فإذا هو يترك حساء السمك ويرفع يديه في الهواء ويقول :

ـ تصور ... يطلبون مني أن تكون علاقاتهم معي عن طريق لجنة التضامن الآسيوي الأفريقي ...

أليست هذه إهانة ؟» .

* * *

وسألت سيهانوك عن معلوماته عن الأوضاع في فيتنام الشمالية .

ظروف توقيع اتفاق باريس .

والعلاقات بين القيادات الفيتنامية الشمالية من السياسيين والعسكريين .

وعلاقاتهم مع الاتحاد السوفيتي والصين .

ونظرتهم إلى المستقبل .

وأشهد أن سيهانوك أجاب على كل ما سألته عنه بمقدرة وبصدق ، وبمعلومات مباشرة لديه رآها بعينيه أو سمعها بأذنيه .

وكان سيهانوك يتحدث في هذا كله لغير النشر ، واحترمت رغبته .

* * *

وعاد سيهانوك إلى حديثه الأصلي :

ـ لا أفهم سياسة الوفاق بين الولايات المتحدة والصين .

لقد سمعت أن خروشوف حينما التقى بكيندي في فيينا سنة ١٩٦١ ، عرض عليه أن تتعاون الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتي في مواجهة الخطر الأصفر .

ولست أعرف : هل نحن الآن في مواجهة صامتة بين البيض وبين الملونين ، سواء كانوا صفراً مثلنا ، أو سمراً مثلكم ؟!

لا أتصور أن يكون الأمر كذلك !

وفي غيبة تفسير مقنع آخر ، فإن لدي شكوكي .

تعال نتحدث قليلاً عن الشرق الأوسط ... ماذا يجري عندكم ... لماذا تظل أجزاء من أراضيكم محتلة ... لماذا لا يساعدكم هؤلاء الذين يجب أن يعرفوا أن الاستعمار لن يقف في منتصف الطريق ؟ »

قلت له :

ـ الوضع في الشرق الأوسط معقد ... وأدوار القوى العظمى فيه مباشرة ... ومع ذلك دعنا نتحدث في أشياء أخرى غير الأزمات والصراعات».

وقال سيهانوك ضاحكاً من قلبه مرة أخرى :
ـ لك حق ... حتى لا نصاب بسوء الهضم ونحن نأكل ! » .

* * *

وقلت لسيهانوك :
ـ إنك عرفت عدداً من شخصيات عالمنا المعاصر ... وأريد أن أسألك : أيهم أثروا فيك ... وكيف ؟ ولماذا ؟ » .

وابتسم سيهانوك ... واتسعت الابتسامة على شفتيه ، ورفع يديه

مرة أخرى في الهواء وقال :

ـ آه ، هذا حديث شيق ... أخف على الأعصاب ... وعلى المعدة من أحاديث الأزمات والصراعات ! » .

واستطرد :

ـ لقد أعجبت بخمسة ممن قابلت :

ماوتسي تونج ، وديجول ، وعبد الناصر ، وشواين لاي ، وتيتو .

عرفت غيرهم كثيرين ، وكنت أحبهم ، لكنهم لم يؤثروا فيّ .

كنت أعرف سوكارنو وأحبه ، وقضينا ليالي كثيرة معاً نرقص ونغني ، لكن سوكارنو لم يكن جاداً » .

واستطرد سيهانوك :

ـ ماوتسي تونج معلم عظيم ، ميزته أنه يستطيع مخاطبة أعظم العقول ، ويستطيع مخاطبة أبسط العقول ، وفي الحالتين ، فإنه يظل على مستواه الرفيع .

إنه يستطيع أن ينقل فلسفته إليك بأي لغة ... بلغة الحكماء أو بلغة الفلاحين .

الغريب أنه شاعر ، ولكنه واقعي أيضاً ، ولديه ذاكرة تعي أدق التفاصيل .

وعندما كنت أسمعه يحدثني مثلاً عن شئون كمبوديا ، فقد كنت أدهش من إلمامه بالتفاصيل ... كان يعرف ضباطاً في جيشي بالاسم والرتبة ، وأنا لا أستطيع تذكرهم .

ماوتسي تونج أيضاً إنسان حساس .

أتذكره يوماً وأنا أشكو إليه من خيانة أقرب الناس إلي وهو رئيس وزرائي « لون نول » يقول لي :

« خيانة الصديق مأساة إنسانية كاملة ... أنا أيضاً أعرف الشعور بهذه المأساة ... خانني « ليو تشاو تشي » و« لين بياو » ... الخيانة محنة ، خصوصاً عندما تتعدى أشخاصنا كأصدقاء ، وتصل إلى مبادئنا كأصحاب فكر واحد » .

ويستطرد سيهانوك :

ـ ديجول كان عظيماً في رؤيته للتاريخ وللتطور .

بعض الناس كانوا يقولون إنه متعجرف ، ولم ألمس ذلك منه .

بعد أن عرفته طويلاً ، أدركت سره : .ديجول كان خجولاً إلى أبعد حد ، وكان حذراً ، ولم يكن يعطي ثقته المطلقة لأحد ، وأظنه على حق .

عندما كنت أذهب إلى فرنسا كان يدعوني إلى بيته في « كولومبي لي دوز إيجليز » ، وكنا نقضي سهرات طويلة نتحدث وكنت معجباً بزوجته ، وكنت أناديها كما يسميها الفرنسيون « تانت إيفون » « العمة إيفون »

على فكرة ديجول كان مرحاً .

كان يتذكر كثيراً من القصص والنوادر ، وكان يرويها ، ولكن بطريقته الخاصة ، المتحفظة والهادئة .

وكانت « تانت إيفون » تمسك بتلابيبي أحياناً حين تقرأ في بعض المجلات أخباراً عن أشياء لم أفعلها وتقول لي :

ـ هل فعلت ذلك ... كيف ولديك زوجة جميلة مثل مونيك . »

كان ديجول يعقدني ...
هو طويل جداً ... وأنا قصير جداً .

ولكننا كنا نتفاهم جيداً ، لأننا نحن ـ الاثنين ـ من برج العقرب .

في كل كلامه كنت تستطيع أن تلمس ثلاث نزعات تصل إلى حد المبادئ الثابتة :

ـ الكرامة ... الاستقلال ... الحساسية من السيطرة الأمريكية » .

ويستطرد سيهانوك :
ـ عبد الناصر ... كان رجلاً قوياً ... ولقد كنت أعجب بالرجل فيه ، بصرف النظر عن القوة ... كان رجلاً ... إنساناً وكان إيمانه بحركة التحرر الوطني يقيناً ثابتاً .

إن حركة التحرر الوطني كلها معه شهدت أياماً مجيدة .

كنا قوة في وسط العالم ، وكنا نستطيع أن نقف أمام الكبار ونتحدث إليهم ، ولا نتركهم يتحدثون هم إلينا طوال الوقت .

وكان إحساسه الاجتماعي مرهفاً .

كان إحساسه ضد الفقر غاضباً .

وكان ولاؤه للفقراء حاداً وقاطعاً .

وعندما كنا نجلس أحياناً لنتحدث عن التطور الاجتماعي في بلادنا ، فإن خطه كان واضحاً دائماً .

إنني التقيت معه أول مرة في باندونج .

وهناك أحسست أن آماله إنسانية .

هذه أكبر هبة يعطيها الله لقائد تاريخي : أن تكون آماله إنسانية » .

ويستطرد سيهانوك :

ـ شواين لاي عقلية منظمة بدرجة تجعلك تقف أمامه مبهوراً ... أفكاره سهلة ، ولكنها عميقة.أتذكره وهو يقول لي ناصحاً ذات مرة : « تستطيع أن تتعاون مع فرنسا بغير مخاوف ... مع أمريكا خطر ، ما زالوا أقوياء بدرجة تجعل صداقتهم خطرة » .

ويستدرك سيهانوك :

ـ أطلت عليك ... وسوف أختصر :

تيتو تجربة غنية متعددة الجوانب ، يقظ لكل الاتجاهات والتطورات ، يلمحها عن بعد ويراها بصفاء » .

ويستطرد سيهانوك :

ـ عرفت غير هؤلاء كثيرين ... كل من عاشوا في عصرنا .

عرفت كيندي ، كانت صحبته ممتعة .

زوجته جاكلين كانت رائعة ... جاءت عندنا في كمبوديا بعد اغتياله،وحاولنا بكل وسيلة ـ زوجتي مونيك وأنا ـ أن نجعلها تنسى » .

ويتوقف سيهانوك قليلاً :

ـ لماذا تبتسم ؟

لا ... إنها هي الأخرى تعقدني مثل ديجول ... أنا لا أحب امرأة أطول مني ... وهي أطول مني كثيراً » .

ويستطرد سيهانوك :

ـ ولماذا أعجب بها ... زوجتي مونيك أجمل منها ... جاكلين فوق أنها طويلة ، نحيلة أكثر من اللازم » .

ويضحك بشدة ويغطي وجهه بيديه ويقول :

ـ يظهر أنني مثل العرب ... لا أحب النحيلات ... النحيلات يصلحن مانيكانات في عروض الأزياء ...

ومع ذلك فإن أي رجل لديه قلب لا يستطيع أن يمنع نفسه من تقديم الاحترام كله لمعجزة الجمال » .

ونفخ سيهانوك بشفتيه على طريقة الفرنسيين عندما يريدون التعبير عن نفاد صبرهم وقال :

ـ ولكن هناك أناساً لا يحسنون التعبير ؟ » .

واستطرد :

ـ هل تذكر دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٦٠ ... الدورة التي حضرها زعماء العالم كله ؟ » .

قلت :

ـ أذكرها فلقد تابعت أعمالها في نيويورك صحفياً ، ورأيت مشاهدها العاصفة بما فيها مشهد خروشوف يخلع حذاءه ويدق به المائدة ؟ » .

قال سيهانوك :

ـ بالضبط ... هل تعرف ماذا فعل خروشوف معي في هذه الدورة .

لقد التقينا وكانت معي زوجتي مونيك وقال لي :

ـ سوف أدعوك إلى زيارة موسكو لأن زوجتك جميلة،وإذا جئت بدونها فسوف أغلق الحدود » .

واعتبرنا الأمر دعابة،ولكننا قبلنا الدعوة إلى موسكو ، وذهبنا إليها

وجلسنا في أول موعد للمحادثات بيننا في قاعة الاجتماعات الرئيسية في الكرملين

وإذا بخروشوف يسألني :

ـ أين زوجتك ... إنها أحسن سفير لكم » .

ثم التفت إلى جروميكو وزير الخارجية السوفيتية وقال له :

ـ جروميكو أنت تتولى المحادثات مع الأمير سيهانوك وأما أنا فلن أتكلم إلا في حضور الأميرة الجميلة » .

واستطرد سيهانوك :

ـ بالطبع أنا لم أغضب وإنما ضحكت ... لم أكن غيوراً من خروشوف ولكني اندهشت ... كيف يتصرف رجل مثله ، في سنه ومكانته على هذا النحو ؟ » .

وقلت :

ـ إن خروشوف كان شخصية نادرة ، لم يكن في نظري زعيماً خارق المواهب ولكنه كان ولا يزال في تقديري إنساناً يستحق دراسة عميقة وأظنه ظاهرة من الظواهر غير العادية التي لمعت على القمة الدولية في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ... وفي وقت من الأوقات راودتني فكرة وضع كتاب عنه لأن الظروف أتاحت لي أن أعرفه أكثر مما عرفه أي صحفي آخر ربما في العالم .

ولست أعتقد أنه كان شريراً ولكني أعتقد حقيقة أن حيويته كانت متدفقة بأكثر مما تسمح به الأوضاع الرسمية لعمله ودوره » .

وقال سيهانوك :

ـ مهما يكن ... فلقد استغربت ما فعل وقتها ! » .

* * *

وقلت لسيهانوك والحوار يمتد ويمتد :

ـ قل لي ... ماذا استفدت لحياتك المقبلة من درس الأزمة التي واجهتك ؟»

وقال سيهانوك والجد يكسو ملامحه :

ـ لقد تعلمت درساً ... وسوف أقوله لك :

لا تعط ثقتك لغبي ... ولا تعط ثقتك لضعيف .

تتصور أنك سوف تمسك به دائماً ... ولكن الحقيقة أن غيرك أيضاً سوف يمسك به ويأخذه منك !

هذه قصتي مع لون نول » .

ويستطرد سيهانوك :

– بعض الجيوش في آسيا غريبة ... الجيوش في الشرق الأوسط تختلف .

بعض الجيوش في آسيا جزء من الثورة المضادة وهي مرتبطة بالاستعمار. جيوشكم جزء من قوى الثورة وهي مرتبطة بالنضال الشعبي » .

وعاد سيهانوك مرة أخرى إلى لون نول :

– تصور أن عزيزنا ... هذا الماريشال الأبله لا يؤمن بشيء إلا بالتنجيم والمنجمين ، ومن جو السحر يأخذ توجيهاته ويستلهم سياساته .

لا أعرف ربما استخدمت المخابرات المركزية الأمريكية وسيطاً من المنجمين يوحي إليه بتعليماتهم ويتصور الأحمق أنها من وحي النجوم ! »

* * *

وأقول لسيهانوك في النهاية :

– وداعاً ... وشكراً » .

ويقول بسرعة :

– لا ... انتظر ... لدي مجموعة من آخر ما سجلت من موسيقاي على أسطوانات ... معظمها من موسيقى الجاز الخفيفة ... أنا أحبها ... هل تحبها أنت أيضاً ؟ » .

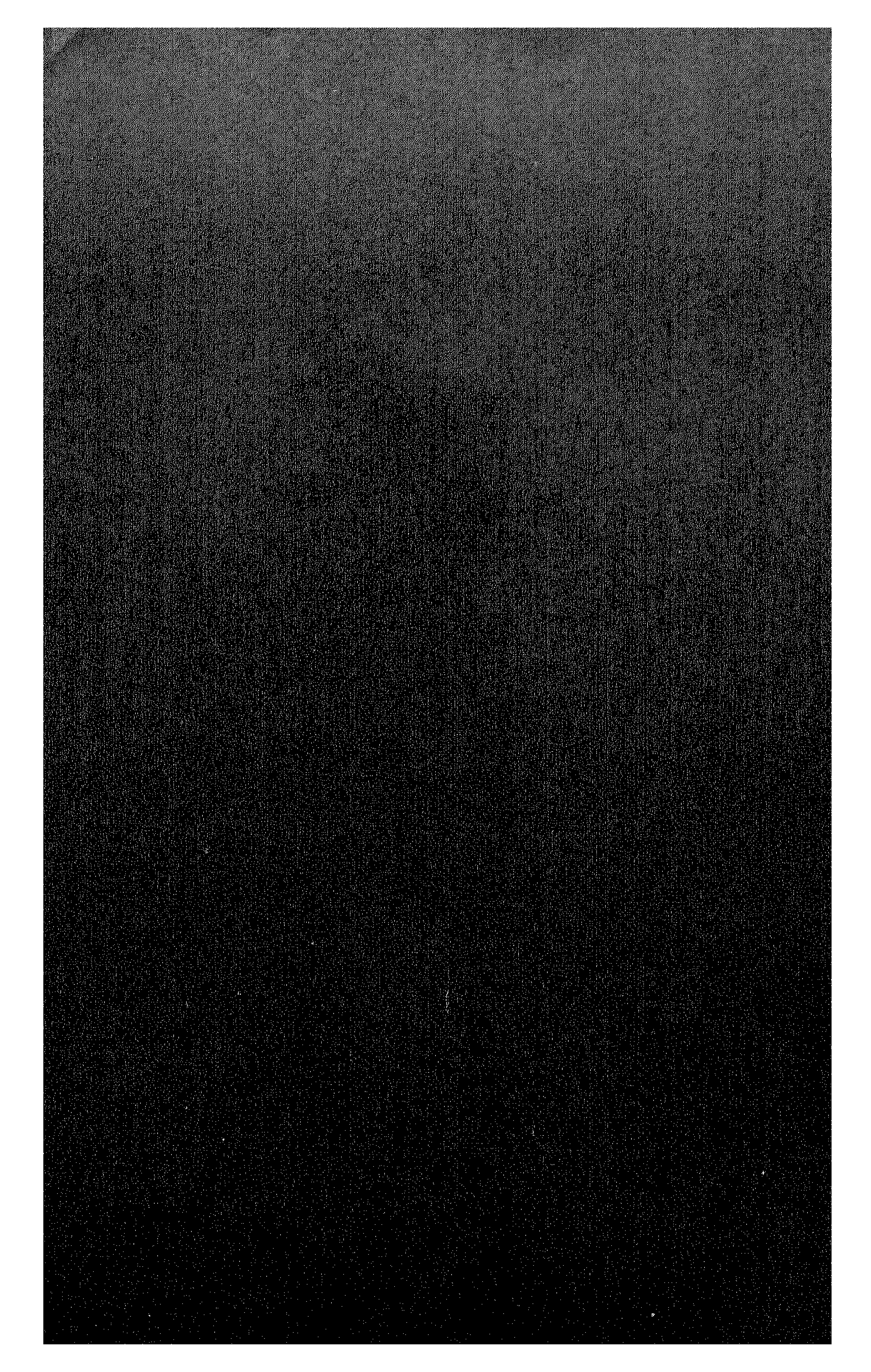
قلت :

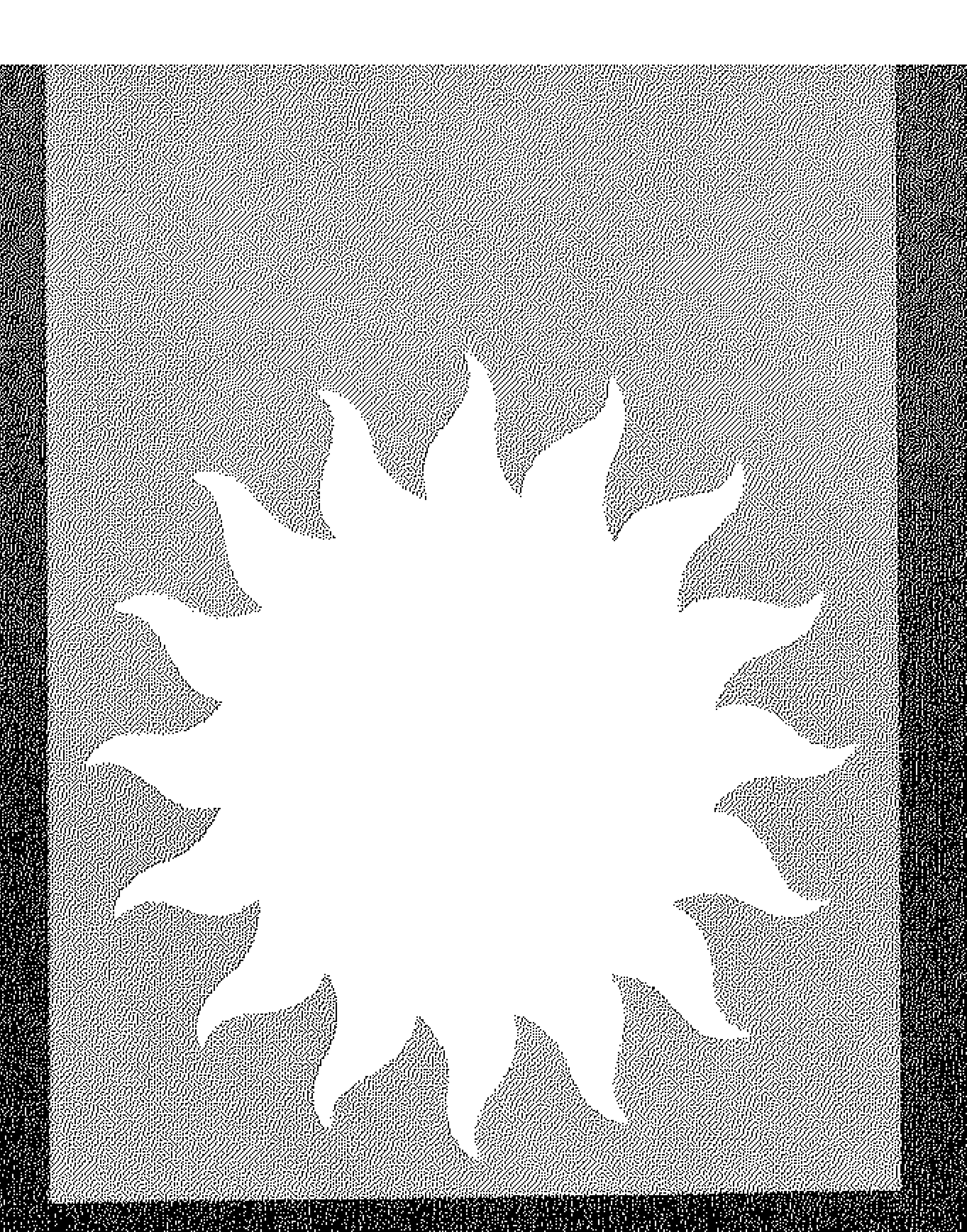
– لسوء حظي فإن موسيقى القرن الثامن عشر والتاسع عشر هي التي ما زالت تشدني حتى الآن ؟ » .

وقال سيهانوك :

– باخ ... وموزار ... وبيتهوفن وغيرهم عمالقة ... لست منهم ... أنا أريد أن أعبر بموسيقاي عن فرحة الحياة.وموسيقى الجاز بسرعتها وخفتها أحلى ما يعبر عن هذه الفرحة ... ذلك رأيي ...

ساعات مع موسيقاي تنسيني أزمات الحياة .. أليس ضرورياً أن يكون لكل منا بيت يعيش فيه ... وسحابة يصعد إليها ليحلق هناك مع فرحة الحياة وبعيداً عن أزماتها ؟ ! »





سَهرة مَع مُوبُوتو

(في بكين)



موبوتو يتحدث إلى محمد حسنين هيكل ، وكان رئيس
زائير ـ الكونجو كينشاسا ـ في بكين في نفس الوقت .

. . . ربما كان الجنرال « موبوتو » رئيس جمهورية زائير ـ الكونجو سابقاً ـ هوآخر سياسي توقعت أن أقابله في « بكين » عاصمة الصين .

بالنسبة للأمير نوردوم سيهانوك كنت أتوقع ، وكان اللقاء محدداً قبل أن أغادر القاهرة ، وأما بالنسبة « لموبوتو » فقد كان ذلك خارج توقعاتي ، مع أني كنت أعرف من متابعة الأنباء أن الرئيس الأفريقي ، وهو من أكبر ألغاز أفريقيا اليوم ، سوف يصل إلى بكين في نفس اليوم الذي أصل فيه إلى شنغهاي .

ووجدت نفسي بالمصادفات وحدها مدعواً إلى حفل العشاء الذي أقامه الرئيس شواين لاي تكريماً للجنرال موبوتو بعد ساعات من وصولي إلى بكين قادماً من شنغهاي . وكان السبب أن « شواين لاي » علم أن ليلتي الأولى في عاصمة الصين بلا برنامج ، ومن ثم كان اقتراحه الذي نقل إلي هو :

« لماذا لا تحضر معنا هذا العشاء لموبوتو » ؟

ولعله من باب الفضول وحده وجدتني أقبل الدعوة وأذهب إلى قاعة الشعب في رفقة السفير المصري صلاح العبد الذي كان قادماً لتوه من كوريا الشمالية لأنه كما يقول الدبلوماسيون هناك يرتدي ثلاث قبعات ، فهو سفير مصر في « بكين » وسفيرها في « بيونج يانج » ، وسفيرها في « هانوي » في نفس الوقت .

* * *

وهكذا كانت الفرصة متاحة أمامي بالمصادفات لكي ألتقي في ليلتي الأولى في بكين بكل السلك الدبلوماسي فيها وكل ممثلي الصحافة الأجنبية وكان الموضوع الغالب على الأحاديث كلها بالطبع هو سياسة الصين تجاه أفريقيا ونقط التركيز فيها ، والأهداف المقصودة وراءها ، والأساليب المتبعة في ممارستها ، إلى آخره .

وكانت التساؤلات في القاعة الفخمة المضيئة ، التي تعكس عمارتها خطوط الحضارة الصينية القديمة مع لمسات حديثة ، تدور حول نقطتين :

الأولى : هل أن الصين الآن باعتبارها واحدة من القوى العظمى ـ حتى وإن أنكرت ـ سوف تتبع سياسة واقعية شأنها شأن أي دولة عظمى تتعامل مع الأوضاع الراهنة في أي بلد بصرف النظر عن المبدأ ، أم أن الصين سوف تختار النقاء الثوري وتلتزم بالتعامل على المبدأ حتى وإن كان ما زال بعد غيباً في ضمير المستقبل ؟

والثانية : هل الصين سوف تسمح لمقاييسها في السلوك بأن تتسع بحيث تداري وتسكت على ما لا تقبله أخلاقياً في سبيل مصالحها ، أم أنها سوف تتمسك وتحافظ وليغضب من يريد أن يغضب خصوصاً

من زوارها القادمين من العالم المتخلف ـ الذي نطلق عليه تأدباً وصف العالم النامي ؟

وكان رأيي أن الصين سوف تعثر بشكل ما على خط متوازن تتعامل به على الأمر الواقع دون أن تضحي في سبيل ذلك بالنقاء سواء إزاء المبادئ الكبرى أو قواعد السلوك اليومي .

وكنت أقول إن استقبالها لموبوتو على هذا النحو دليل واقعية .

وما سمعته اليوم عن طرد عدد كبير من شباب تانزانيا لأنهم أساءوا التصرف خلقياً دليل تمسك ومحافظة واضحة بصرف النظر عن مصالح الصين في تانزانيا .

وكنت أقول :

ـ بشكل ما .. الصينيون أقدر من غيرهم على رسم خط التوازن وبطريقة لا يلحقهم فيها غيرهم » .

ثم كنت أشير إلى أن معظم القوى العظمى استخدمت في إدارتها أجهزة مهمتها أن تقدم المتعة للراغبين فيها من زوار العالم المتخلف أو النامي أو حتى غير المتخلف والذي نما فعلا . . . وهذه ظاهرة من أغرب ظواهر الواقعية ـ ! ـ في السياسة الدولية الجديدة حيث تنهار قواعد السلوك أمام امتيازات حقول البترول أو مزارع المطاط أو مناجم اليورانيوم أو عقود الصفقات المغرية ! .

وأعترف أنه حين دخل الجنرال موبوتو جنباً إلى جنب مع الرئيس شواين لاي إلى قاعة الشعب الكبرى أنني كنت أراقب المنظر قائلاً لنفسي :

ـ هذا لقاء نقيضين على أشد ما يكون التناقض ! » .

وحين وجدت تجهيزات التليفزيون في القاعة أكثر من العادة فقد كان الرد على تساؤلي هو :

ـ إن الجنرال موبوتو أمر بنقل كل الاحتفالات المقامة له في الصين من ساعة وصوله إلى ساعة خروجه مباشرة إلى الكونجو وإنه استأجر لذلك وقتاً في قمر صناعي معلق في فضاء المحيط الهندي لينقل من الشرق الأقصى إلى قلب أفريقيا على الهواء » .

وكانت ملاحظتي بالعجب على ذلك :

ـ وهل تتحمل ميزانية أي بلد متخلف هذا الترف الإعلامي كله ؟ ! »

ومهما يكن فلقد مضيت بالفضول في متابعة وقائع الحفل حتى قرب نهايته وعند النهاية تلقيت المفاجأة !

ذلك أن سيداً أفريقياً مهيباً تقدم إلى المائدة التي كنت أجلس عليها وقدم نفسه باعتباره المستشار الصحفي للرئيس موبوتو وقال لي :

ـ إن رئيسي قد عرف بالمصادفة أنك هنا ، وكصحفي أفريقي فإنه سوف يقابلك،وقد حدد لذلك مساء غد في الساعة التاسعة وسينتظرك في قصر الضيافة الذي يقيم فيه » .

وكانت هذه مجاملة رقيقة لا بد من قبولها .

وفي نفس الوقت فقد كانت مشكلة عويصة لا بد من التفكير فيها .

وكان أمامي قبل الموعد المحدد أربع وعشرون ساعة تكفي لإطالة التفكير .

ماذا أفعل مع الجنرال موبوتو؟ وماذا أقول له ؟ وماذا أنقل عنه ؟

* من ناحية فإن رأيي في الرئيس موبوتو لم يكن مرضياً له وفي أقل القليل فإن الرجل بالنسبة لي كان لغزاً محيراً .

دوره في نهاية لومومبا يثير الشكوك .

انقلابه سنة ١٩٦٥ يفتح السبيل لأقاويل كثيرة عن علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية .

علاقته بالشركات الاحتكارية الدولية الكبرى في الكونجو . وكلها يسعى وراء الألماس والنحاس والمطاط والقصدير والذهب واليورانيوم ـ يدور من حولها لغط شديد ، ويصل اللغط إلى حد القول بأنه إذا كان في العالم كله عشرة من الأغنياء الفادحي الغنى ، فإن موبوتو بالقطع واحد منهم .

* ومن ناحية ثانية فلقد كنت وما زلت أعتقد أن ما نسمعه من بعيد دائماً ، ليس هو كل الحقيقة .

إن لدى الكثيرين منا نزعة تلقائية إلى وضع الآخرين في قوالب ، وتصنيفهم إلى أنواع ، بل رصهم على رفوف ، وذلك لكي نعفي أنفسنا من التفكير في الظلال .

الأحكام القطعية دائماً سهلة لأنها مريحة ، والصعب باستمرار هو محاولة تبين درجات الظل في كل شيء.

ومن أشهر أقوال ماوتسي تونج في هذه النقطة :

ـ كل شيء هو في الحقيقة شيئان . . .

الواحد في الواقع اثنان .

الجمال في القبح والقبح في الجمال ، الشر في الخير والخير في الشر ،

الظلام في النور والنور في الظلام . . .

هذه حركة المتناقضات وهي التي تصنع التطور وتدفع مسيرة التاريخ .

صراع الاثنين في واحد ! »

* ومن ناحية ثالثة،وفيما يتعلق بالجنرال موبوتو نفسه،فلقد كان في ذاكرتي حديث جرى ذات يوم بين الرئيس جوليوس نيريري رئيس جمهورية تانزانيا وبيني وكان موضوعه هو الجنرال موبوتو .

يومها كنت مع نيريري على شرفة القصر الجمهوري المطلة على المحيط الهندي في « دار السلام » وقال لي « نيريري » بالإنجليزية المعجونة بلكنة هندية من تأثير المدرسين الهنود في شرق أفريقيا ، وبلكنة أفريقية من القارة ذاتها :

ـ إنني قابلت « موبوتو » أخيراً . . . وكان ذلك اكتشافاً بالنسبة لي .

وجدته يتكلم بحماسة لا تقل عن حماسة من تعرف من قادة حركة التحرر الوطني ، ولما لم يكن في استطاعتي أن أنسى كل ما سمعت عن ماضيه فإنني سألته ـ وأنا الكاثوليكي مثله :

موبوتو . . . هل أصبحت مثل القديس بطرس . . . بدأ شقياً وانتهى تقياً ؟ » .

* * *

لم يكن تفكيري مقصوراً على شخص الجنرال موبوتو نفسه ، بل إنني حاولت أيضاً أن أجعله يمتد إلى ظروف حركة التحرر الأفريقية ذاتها وما عاشته من انتصارات وهزائم ، من أمجاد ومحن ، وكان ذلك من منطق « أننا لا نستطيع أن نفكر في الناس مجردين وإنما يتحتم علينا

ونحن نفكر في الناس أن نضعهم في إطار الظروف » .

« الناس والظروف معاً » وإلا كانت الأحكام في الفراغ وهذا خطأ مع تجنب شد ذلك إلى أكثر مما يحتمل وإلا انتقلنا من النقيض إلى النقيض . . . وانزلقنا من الأحكام المطلقة إلى التبريرات المتعسفة وهذا خطر !

وقد كانت ظروف الحركة الأفريقية في رأيي كما يلي :

١ ـ إن الشعوب الأفريقية في بعض من الأحيان خدعتها واجهة الاستقلال الوطني ، فإذا بها بعد إعلان الاستقلال الرسمي تنتقل من الاستعمار القديم إلى الاستعمار الجديد . . . أي تحصل لنفسها على علم ونشيد ومقعد في الأمم المتحدة ولكن ثرواتها تظل نهباً للاحتكارات والشركات الأجنبية .

وكان اعتقادي ولا يزال أنه ليس هناك استقلال سياسي بدون استقلال اقتصادي ، كما أنه ليس هناك تحرر وطني بدون تحرر اجتماعي .

٢ ـ إن الجماعات التي قادت الحركة الوطنية نحو الاستقلال تحولت في عديد من البلدان الأفريقية إلى طبقة جديدة فاحشة الغنى . . . أخذت لنفسها امتيازات السيد الأبيض أو بعضاً منها وتصورت بذلك أنها حققت غايات الاستقلال الوطني .

وكانت الحركة الأفريقية الوطنية في الحقيقة تملك فرصة نادرة للتحول الاجتماعي العميق لأن المجتمع الأفريقي الأصيل كان مجتمعاً يكاد يكون بلا طبقات ، تمسك بمقدراته كلها جماعات من البيض على القمة ، وكانت إزاحة هذه الجماعات بامتيازاتها من على القمة

فرصة نادرة لبداية اجتماعية جديدة ، لكن هذه الفرصة ضاعت في أفريقيا بصفة عامة .

٣ ـ نتيجة ذلك أن هناك خطراً مخيفاً من الفساد أو الإفساد في أفريقيا لأن الأعوان الذين جاءوا مع الزعامات الوطنية وتولوا المناصب من حولها جاءوا في كثير من الأحيان وكل همهم أن يحصلوا لأنفسهم في أسرع وقت على أكثر ما يمكن .

وكان شعار الكثيرين منهم كما وصفه لي ذات مرة سفير أجنبي في غانا هو :

ـ جيبي ... قبل وطني !

٤ ـ إن جزءاً كبيراً من المسئولية في الواقع يقع على حقيقة أن معظم القوى الكبرى كانت تتعامل مع الحركات الوطنية ، خصوصاً في عصر الحرب الباردة ، عن طريق الأجهزة الخفية ... أجهزة المخابرات بالذات .

وهذه ظاهرة ما تزال ملحوظة في أفريقيا حتى الآن،وقد أدت إلى كثير من مظاهر الانحراف السياسي والأخلاقي ، كما أدت بطريق آخر إلى التعويض بأساليب من النفخ الصناعي ... أي مبالغة في مظاهر العظمة الفارغة ... لإخفاء الفراغ الحقيقي تحتها وللخداع والتضليل ولرسم صور زائفة يمكن تحت ستارها تحقيق المطالب القديمة بأساليب جديدة !

٥ ـ إن السياسة الأفريقية في بعض البلدان لم تتخلص بعد من أغلال الماضي الأفريقي في عصور ظلامه وبينها السحر مثلاً وكان نكروما برغم إسهامه البارز في حركة التحرر الأفريقي من أشد المؤمنين بالسحر .

ولقد كان هناك من تمردوا على أغلال الماضي ولكنهم اشتهروا بذلك ومنهم سيكوتوري رئيس غينيا .

وأتذكر أن سيكوتوري دعاني إلى مقابلته في الدار البيضاء ـ في المغرب ـ وكانت مقراً لمؤتمر أفريقي على مستوى القمة وقال لي :

ـ لماذا تنشر في « الأهرام » ما يسيء إلى أفريقيا . . . لماذا نقع بأنفسنا في المصيدة التي ينصبها لنا الاستعمار؟ »

ودهشت وسألته :

ـ وهل فعلت ذلك ؟ »

وقال بفرنسيته الخطابية المتحمسة :

ـ نعم فعلته . . . فعلته عندما نشرت أن الناخبين في الكاميرون ضاقوا ذرعاً بنائب بعثوا به إلى المجلس الوطني ولم يحسن تمثيلهم فلما عاد إليهم ذات يوم أكلوه » .

وقلت لسيكوتوري :

ـ إنني نشرت الواقعة وفي ظني أنها صحيحة ! »

وقال سيكوتوري بحدة :

ـ ليكن أنها صحيحة . . . فلماذا ننشرها ؟ » .

* * *

كذلك كانت أفكاري وخواطري عندما جاء موعدي المحدد مع الرئيس موبوتو في قصر الضيافة الذي يقيم فيه في بكين على حافة بحيرة صناعية رائعة الجمال .

وصعدت إلى الدور الثاني من القصر وإلى صالون صغير ملحق بغرفة مكتب كان مقرراً أن يكون لقاؤنا فيه .

ودخل « موبوتو»

كان يرتدي حلة داكنة من طراز وضع تصميمه بنفسه وفي تقديره أنه سيصبح الزي الرسمي لزائير ، حلة بسيطة .. سترة مفتوحة على أعلى الصدر وتحتها بنطلون ، وحول الرقبة منديل معقود يغطي فتحة السترة حول الرقبة وينزل إلى الصدر.

وتوقعت لهجة عظمة كنت أخشاها ، ولم أجدها في الحقيقة .

قال موبوتو ببساطة :

ـ لم أكن أعرف أنك هنا ... في العشاء الذي أقامه شواين لاي لي ... وعندما عرفت قلت إنه من الضروري أن نتقابل » .

واستطرد موبوتو :

ـ إنني قادم قبل قليل من موعد مع ماوتسي تونج ... شخصية خرافية ... هل قابلته من قبل ؟ »

قلت :

ـ نعم ... وإعجابي به غير محدود » .

واستطرد موبوتو :

ـ هؤلاء الناس فعلوا شيئاً عظيماً ... هم عمليون إلى أقصى حد وفي وسعنا أن ننقل ذلك منهم .

عندما أعود إلى زائير سوف ألغي استعمال ربطات العنق ـ الكرافتات ـ

إنهم استغنوا عنها . . . هل تعرف كم وفروا في ذلك كما علمت :

قدروا أنهم يحتاجون كل سنة إذا سمحوا بربطات العنق إلى ٣٠٠ مليون كرافتة ثمنها على الأقل ١٥٠ مليون جنيه ،وبقرار واحد وفروها لأنهم اعتبروها فضولاً أو سخافة لا معنى لها . . ثم هي مكلفة ! »

واستطرد « موبوتو » :

ـ هل تعرف أنني كنت صحفياً . . . وتحولت إلى ضابط . . . ثم أصبحت رئيس دولة » .

قلت :

ـ « أعرف »

وقال :

ـ كنت تلميذاً في المدرسة في عصر الاحتلال البلجيكي وكنت أكتب مقالات للصحف واشتركت في مظاهرة وطردوني من المدرسة وكان العقاب للطلبة المطرودين أن يجندوا في الخدمة العسكرية وهكذا وجدت نفسي في الجيش دون قصد مني » .

واستطرد :

ـ ما زالت الصحافة هي حبي الأول » .

وقلت :

ـ بالنسبة لي هي حبي الأول والأخير » .

وقال موبوتو بلهجة يستطيع أن يتحكم في نبراتها بشكل غريب ،

ارتفاعاً وانخفاضاً ، ضيقاً واتساعاً ، حرارة وبرودة :

ـ فيم تريد أن نتحدث معاً ؟ »

قلت :

ـ هناك أشياء كثيرة .. هناك أشياء تهمك ... وهناك أشياء تهمني وسوف أبدأ بالأشياء التي تهمك وبعدها أصل إلى ما يهمني » .

واستطردت :

ـ انني استمعت إلى خطابك في حفل العشاء الذي أقامه لك شواين لاي ولفتت نظري جملة تحدثت فيها عن سياسة الكونجووعن « الأصالة » باعتبارها الطابع الأساسي لها » .

وقاطعني موبوتو :

ـ اسم بلادي لم يعد الكونجو... اسمها الآن «زائير» وذلك بمقتضى طابع الأصالة وتطبيقاً له » .

وواصل حديثه :

ـ إن السؤال عن الأصالة authenticité سؤال هام جداً،ولن تستطيع أن تفهمنا إذا لم تفهم ما نعنيه « بالأصالة » .

خذ اسم « الكونجو» ...

هذا هو الاسم الذي أطلقه الاستعمار البلجيكي على بلادي .

إنني عدت إلى الاسم القديم قبل الاستعمار البلجيكي ... سألت عنه حتى وجدته وقررنا العودة إليه .

كان اسمنا « زائير » . . . كان هذا هو اسم نهر الكونجو ، وقد استعدنا الاسم القديم » .

قلت :

ـ إن هنالك تفسيرات عديدة لهذا الاسم الجديد سمعت من بعض الناس أن الاسم أصله عربي ، أطلقه الرحالة والتجار العرب على ذلك النهر وكان الاسم الأصلي « سعير » إشارة إلى شدة الحرارة وحرف الاسم كما حدث لأسماء عربية كثيرة في أفريقيا إلى « زائير » .

هل تتذكر « موديبوكيتا » زعيم مالي السابق ؟

اسمه الأصلي « المؤدب بخيت » وقد حرف الاسم باللهجات الأفريقية فأصبح « موديبوكيتا » .

هناك رأي آخر حول اسم زائير يقال بمقتضاه إن الذي أطلقه على النهر هو الرحالة البرتغالي « دييجوكاو » عندما رسا بسفينته عند مصبه في محاولة من محاولات الوصول إلى الهند بالدوران حول أفريقيا »

وقال موبوتو :

ـ مهما كانت التفسيرات فإننا عدنا إلى الاسم الذي كان لنا قبل الاستعمار البلجيكي » .

واستطرد :

ـ ومع ذلك فخذ اسمي السابق .
كان اسمي هو : « جوزيف ديزيريه موبوتو »

« جوزيف » اسم أوربي . . . « ديزيريه » اسم أوربي . . . الاسم

الأفريقي الوحيد الذي كان لي هو « موبوتو » .

ولماذا تقبل هذا ؟ . . .

إنني عدت إلى اسم القبيلة التي جئت منها .

« موبوتو سيس سيكو كوكو أنجابندو وازابانجا » .

[سيس تعني الأرض ـ أنجانبدو منطقة في زائير ـ سيكو تعني المحارب المقدام الذي لا يخشى الهزيمة ويتحمل المصاعب ويتقدم حتى النصر ـ كوكو تعني الفلفل الحراق] .

واستطرد موبوتو :

ـ نعم « الأصالة »

إنها موضوع مهم لنا

ودعني أذكرك . . أنني عندما أتحدث عن الأصالة لا أنادي بالعودة إليها retour ولكن بسرعة الالتجاء إليها Recours .

إذا لم نعد بسرعة إلى الأصالة الأفريقية وإذا لم نلتجئ إليها ونحتمي بها فإن شخصيتنا سوف تضيع نهائياً .

لماذا يطلب مني أن أقبل كل شيء فرضه الاستعمار علينا كما هو ؟ . . لست مطالباً بذلك ولا أقبل !

لماذا يتحتم علي عندما أزور بومبيدو أن أرتدي الردنجوت والقميص المنشى والياقة العالية؟ما علاقتي أنا بذلك ؟

بومبيدو عندما يرتدي هذا الزي فهو على حق . . أبوه كان يفعل ذلك ويرتدي هذه الملابس في المناسبات الرسمية . . ردنجوت . . . بونجور . . .

فراك إلى آخر هذه الأزياء ..

لا شأن لي بها أنا ... أنا الأفريقي ؟

إنني أجدني مطالباً بأن أعود إلى ما كان في بلادي ... إلى ما كان يعرفه أبي وجدي وشعبي كله .

لست فرنسياً ولست إنجليزياً ولست أمريكياً .

ولكنني من زائير ...

وأريد عندما يصل أي وافد إلى زائير أن يشعر فعلاً أنه في زائير ليس في باريس ولا في لندن ولا في واشنطن .

ليس معنى ذلك أن أرفض المدنية وإنما معناه أن آخذ منها ما يناسبني .

أنا أرتدي حذاء وقد قبلت ذلك بمحض اختياري لأنه مفيد ولأنني كرئيس دولة لا أستطيع أن أمشي حافياً .. لكنني عندما أفعل ذلك لا أقلد أحداً وإنما آخذ من المدنية ما يناسبني».

واستطرد موبوتو :

ـ سوف تسألني كيف أطبق الأصالة في السياسة .. من السهل أن تتحدث عن الأصالة في الأزياء وغيرها من مظاهر حياة كل يوم ؟

سوف أقول لك :

إننا نعرف ما كنا عليه قبل سنة ١٩٦٠ .. كنا مستعمرة لبلجيكا ..

إننا نعرف ماذا كنا عليه من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٥ . كنا أضحوكة العالم ..

المثل الحي للفوضى وللتخلف ..
كنا موضع سخرية .

الآن تغير الوضع .. إنهم كفوا عن الضحك منا .

لسنا مع اليمين .. لسنا مع اليسار .. لسنا في الوسط !

تسألني إذن : أين نحن ؟

سوف أقول لك : حيث نحن واقعنا وما نريده بأنفسنا لأنفسنا لماذا أقبل هذه التقسيمات اليمين واليسار والوسط ؟

الوطنية بمنطق الأصالة هي أن نكون أنفسنا ..

نحن كل أرض زائير ، ما فوقها وما تحتها .

كانوا يقولون لنا هذا ليس ملكاً لكم .. أو هذا ليس بالكامل ملكاً لكم دائماً أنتم شركاء معنا فيه ، وقلنا لهم : ما فوق الأرض وما تحت الأرض هو ملك لنا .

هم لا يضحكون منا الآن لأننا لا نقلد أحداً .

هم لا يضحكون منا الآن لأننا لسنا أضحوكة العالم بما كان لدينا من فوضى وضياع».

* * *

وتحمس موبوتو وهو يدق بيده على صدره ويقول :

« أخوك الذي يكلمك الآن هو موبوتو ابن هذا الشعب وابن هذه الدولة »

منذ سبع سنوات لم يكن الأمر كذلك .

الآن لدينا حزب .. لدينا حكومة .. لدينا ثورة اجتماعية .

من قبل كانت هناك قبلية في الشمال ، قبلية في الجنوب ، قبلية في الشرق ، قبلية في الغرب .

انتهى ذلك كله الآن .

نحن نتكلم نفس الكلام جميعنا ونغني نفس الأغاني جميعنا .

لم أطلب من شعبي أن يقلد اليمين أو يقلد اليسار ..

طلبت منهم ببساطة شيئاً واحداً : كونوا أنفسكم .

وهكذا أصبحوا .

هل اتضحت أمامك معاني الأصالة الآن ؟ »

وقلت :

ـ إنني أحاول أن أفهم».

واستطرد موبوتو :

ـ إن كثيرين لم يفهموني ..

أنتم في مصر لم تفهموني

هنا في الصين أيضاً لم يفهموني ..

كنت الآن مع الرئيس ماو وتذكرنا معاً أيام كانوا وكنتم تؤيدون « جيزنجا » ضدي .

جيزنجا كان يدعي أنه خليفة لومومبا ولكنه لم يفعل شيئاً .

تأثيره الأدبي الآن « صفر » .

ماذا فعل ؟ . . ماذا كان يفعل ؟ . . ماذا يفعل الآن ؟

لماذا كنتم تؤيدونه ؟

كان يلعب لم يكن حوله مؤيدون .

كان من حوله ٢٠ فتاة عارية وكان مشغولاً بتصويرهن وكان من حوله عدد لا يحصى من زجاجات الويسكي والشمبانيا الفارغة .

لم أكن أفعل ذلك وإلا ما كنت انتصرت .

كنت أستطيع أن أقضي وقتي مع زوجتي .

لا أريد أن أتظاهر أو أفتخر ولكن رئيس الدولة يجب أن يكون رجل أخلاق .

كان هو يلعب . . . وكنت مشغولاً بتوجيه الدولة .

وكان يدعي الثورية . . وكنت أحاول أن أفرض السلام على أرض زائير » .

وقلت :

ـ ربما نتناقش طويلاً في أموركثيرة ، ولكني أسلم فعلاً أنك استطعت أن تفرض نوعاً من النظام والسلام في الكونجو وذلك كان صعباً ليس فقط بحكم رواسب الماضي ولكن الصعوبة كانت تجيء أيضاً من حقيقة أنه لم يكن هناك جهاز إداري في زائير وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يصبح ذلك ممكناً في عدد من بلاد أفريقيا » .

واستطرد موبوتو يقول :

ـ إنني جعلت للنظام وللسلام هدفاً في زائير . تذكر أننا نبني الآن أكبر سد في العالم سد « إنجا » وعندما ينتهي بكل مراحله سوف يصبح أكبر من سد أسوان .

هذه هي الكرامة الوطنية . . الأصالة .

إننا أغنياء جداً . . ولكن ثرواتنا غير مستغلة لصالح شعبنا .

الأصالة أن تكون لنا الأرض وما عليها وما تحتها » .

قلت :

ـ هناك شيء لم يتضح في ذهني حتى الآن . . ما هو الفارق بين الأصالة والاستقلال ؟

وقال موبوتو :

ـ الفارق كبير . .

كلنا نقول إننا مستقلون في أفريقيا ولكن الاستقلال ليس كل شيء . . الأصالة هي كل شيء .

لنفرض أن معك تذكرة سفر إلى زائير . .

عندما تصل هناك سوف تشعر أنك في زائير ولا تشعر أنك في باريس أو لندن أو بروكسل . .

الناس يتكلمون باللغة الزائيرية .

الناس يتعاملون بالزائير [وحدة النقد الوطنية] .

الناس لا ينتظرون مساعدة من أحد .

أمريكا عرضت علينا مساعدات لم نلمسها وأعدناها إليها .

أمريكا عرضت علينا أن تدفع لنا الغطاء اللازم للزائير [وحدة النقد الوطنية] في صندوق النقد الدولي .. رفضنا وقلنا : نحن سندفع غطاء عملتنا .

أنا أزور الصين الآن ومعي طائرة خاصة في انتظاري .

لم أتلق برقية واحدة تقول لي إن الطائرات تأخرت .

إنهم يعرفون أن موبوتو يستطيع أن يحتفظ بطائرة ومع ذلك تستمر طائراتنا على خطوطها منتظمة .

أخوك الأفريقي الجالس معك الآن فعل ذلك .. لا أتفاخر ولا أتباهى .

إنني أنهيت الخلافات في الكونجو ، قضيت على الفوضى .... وأخرجت المرتزقة ... وأعدت الكرامة للكونجو .

كانوا يعطوننا معونة ... رفضنا هذه المعونة .. لا نريد صدقة من أحد لا حبوباً ولا دجاجاً مجمداً » .

* * *

وقلت لموبوتو :

ـ هل أستطيع أن أنتقل إلى أشياء تهمني في حديثي معك ؟ » .

وقال موبوتو :

ـ إنني أسمعك » .

قلت :

ـ إن أفريقيا مهمة لنا إلى أقصى حد .

إن شمال أفريقيا العربي جزء لا يتجزأ من أفريقيا جنوب الصحراء كما يقولون إن الحرية في رأينا لا تتجزأ بخطوط وهمية .

والرخاء في رأينا لا يتجزأ بين الأسمر والأسود .

ثم إن هناك مشكلة أمن بالنسبة لنا وهي إسرائيل .

إسرائيل تعتبر أن أفريقيا رئة تتنفس منها برغم الحصار العربي،ولقد وجدت إسرائيل أبواباً مفتوحة في أفريقيا ونحن نعتبر أن ذلك خطر يتعدى أمننا وحدنا لأن إسرائيل في رأينا امتداد عنصري واستعماري .

ثم هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً مباشراً .

لماذا تحتفظ في الكونجو بمستشارين عسكريين من إسرائيل ؟

إن أحداً لا يختلف في أنك في الأوضاع الراهنة أقوى سياسي في وسط أفريقيا ، ومن هنا فإن موقفك يهمنا » .

وقال موبوتو :

ـ أنتم كنتم تقاطعونني وتقدمون تأييدكم لجيزنجا ، باعتباره خليفة للومومبا .

ماذا كان في استطاعتي أن أفعله . . .

كنت وقتها قائداً للجيش وكنا في حاجة إلى التدريب .

إسرائيل عرضت علينا الفرصة وذهبنا . . .

ذهبت ومعي نواة لواء المظلات وهناك تدربنا ومن هناك جئنا ببعض المستشارين .

بعض زملائي عادوا من هناك متحمسين لإسرائيل .

والمستشارون الإسرائيليون كانوا وسطنا [بقي منهم الآن ١٢ فقط] .

والسؤال الذي يجب أن نسأله هو : هل استطعنا بعد ذلك أن نقف مع إخواننا من أفريقيا أو أننا لم نستطع .

في كل المؤتمرات الأفريقية وقفنا معكم كأفريقيين .

إنني كنت عضواً في بعثة الرؤساء الأفريقيين لدراسة مشكلة الشرق الأوسط،وجئت إلى مصر ثم ذهبت إلى إسرائيل ... هل تابعت مهمة هذه اللجنة ؟ » .

قلت له :

ـ نعم ... وفي الحقيقة فإنني كنت متخوفاً ... لقد كنت أخشى من هذه البعثة أن تحول أفريقيا من طرف أفريقي معنا ... إلى طرف محايد يتوسط بيننا وبين إسرائيل ؟ » .

وقال موبوتو :

ـ اننا قلنا لهم ، قلنا لجولدا مائير ولديان ولإيبان أن أفريقيا لا تقبل باحتلال أرض أفريقية .

> [بذلت جولدا مائير كل جهد في وسعها للتأثير على الزعماء الأفريقيين لدرجة أنها بكت بالدموع أمامهم وهي تتذكر ما قاسته إسرائيل من اضطهاد العرب ! !]

واستطرد موبوتو :

ـ عندما كان التصويت يجري في الأمم المتحدة على قرارها الأخير بشأن الشرق الأوسط اتصل بي وزير خارجيتي وقال لي :

« لقد تسلمنا الآن في وزارة الخارجية خطابين لك . . . خطاب من السادات وخطاب من جولدا مائير وكل منهما يطلب صوتنا لنفسه .

وقلت لوزير خارجيتي :

ـ إن خطنا سوف يكون هو الخط الأفريقي . . . وصوتنا معكم » .

واستطرد موبوتو :

ـ في كل الظروف سوف نأخذ الخط الأفريقي ، وذلك أيضاً بمقتضى منطلق الأصالة .

ومع ذلك أريد أن أسألك في شيء .

إنني لا أعرف الرئيس القذافي ولكنك تعرفه ، وهو يمارس سياسة نشطة في أفريقيا ولكننا نختلف معه .

لماذا يدفع لبعض الدول الأفريقية لكي تقطع علاقاتها بإسرائيل ؟ » .

وقلت :

ـ إنني لا أعتقد أن الرئيس القذافي دفع لأحد لكي يقطع علاقته بإسرائيل .

إن هناك دولاً أفريقية اكتشفت دور إسرائيل الحقيقي ، أوغندا فعلت ذلك ... وتشاد فعلت ذلك ... والنيجر فعلت ذلك،ومالي فعلت ذلك ، والكونجو برازافيل فعلت ذلك .

وهذه الدول بمحض إرادتها وبتجربتها الحرة اكتشفت أن إسرائيل لا تخدم أفريقيا بكل ما تقوم به وإنما تخدم الاستعمار .

هذه مسألة ...

وأما أن يعرض القذافي على بعض هذه الدول مساعدات عربية فإنها مسألة أخرى ...

هل تعترض إذا كان في وسع دولة عربية أن تقدم معونة لدولة أفريقية ؟

ولماذا نربط بين قطع العلاقات وبين المساعدة ؟

إن إسرائيل هي التي تحاول الترويج لذلك لكي تمنع التيار الأفريقي الذي بدأ يكشف حقيقتها من أن يواصل اندفاعه بقوة » .

وقال موبوتو :

ـ إن تومبالباي رئيس تشاد بعث إلي ليقول لي « إن القذافي يريد

أن يراك » ، وكنت أريد أن أذهب إلى ليبيا ، ولكن لا أريد أن يقول شعبي إنني ذاهب إلى هناك لأحصل على معونة .

نحن لا نريد معونة ... نحن أغنياء ولدينا مبادئنا » .

قلت :

ـ وأنا أعرف أنك تقدم مساعدات لبعض الدول الأفريقية ... وأسألك هل تقدم هذه المعونات لأحد كي يقطع علاقته بإسرائيل ... إنك لم تطلب ذلك ... فلماذا تتصوره في القذافي ؟ » .

وقال موبوتو :

ـ إننا سوف نحدد موقفنا من استمرار احتلال إسرائيل لأراض أفريقية على ضوء سياستنا الأفريقية ... وعلى ضوء الأصالة في زائير .

سوف ترى ذلك .

سوف تراه في مؤتمر القمة الأفريقي القادم في مايو في أديس أبابا » .

* * *

وسألني موبوتو :

ـ لا بد أن نشرب شيئاً معاً لتوثيق صداقتنا .

معي بيرة من زائير وهي نوع لا مثيل له في العالم اسمها تيجر .

ومعي عصير أناناس من مزرعة كبيرة أملكهاهناك مساحتها عشرة آلاف هكتار[خمسة وعشرون ألف فدان] وفيها مصنع التعليب الخاص بها » .

واستطرد موبوتو :

ـ اشرب معي أي شيءتختار ولتحتفظ بآخر قطرة نلقيها على الأرض » .

واستطرد :

ـ ذلك أيضاً تطبيق لمبدأ الأصالة فهكذا كان أجدادنا يفعلون .

ألا تتذكر أنني فعلت ذلك في العشاء الذي أقامه لي شواين لاي .

ألقيت آخر قطرة من مشروب « الموتاي » أيضاً .

لم ألقها على الأرض ولكني ألقيتها في طبق على المائدة حتى لا أترك بقعاً على السجادة الصينية التي كانت تحت أقدامنا » .

وقلت له :

ـ رأيتك تفعل ذلك فعلاً ... والآن فهمت ! » .

. . . . .

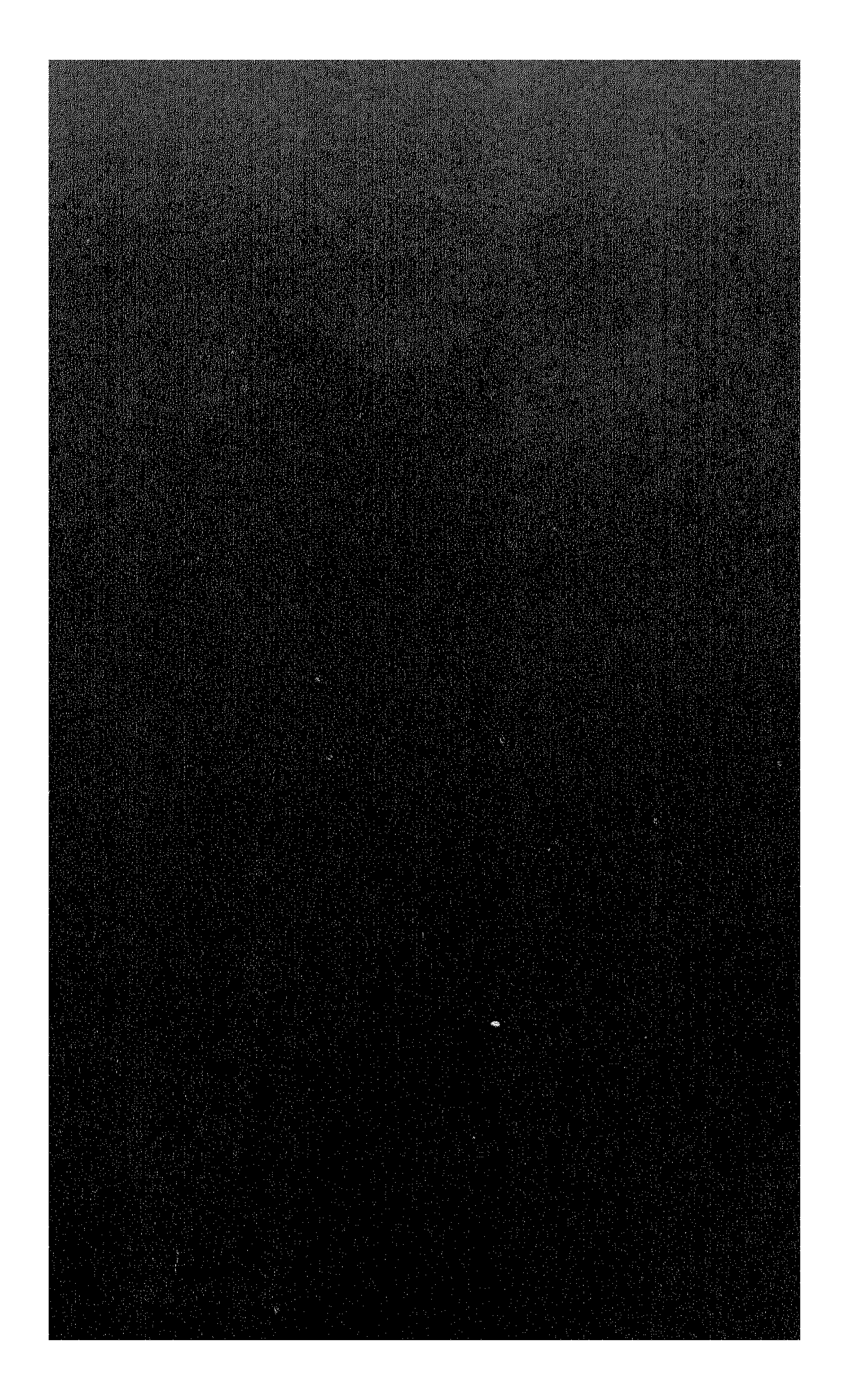
. . . . .

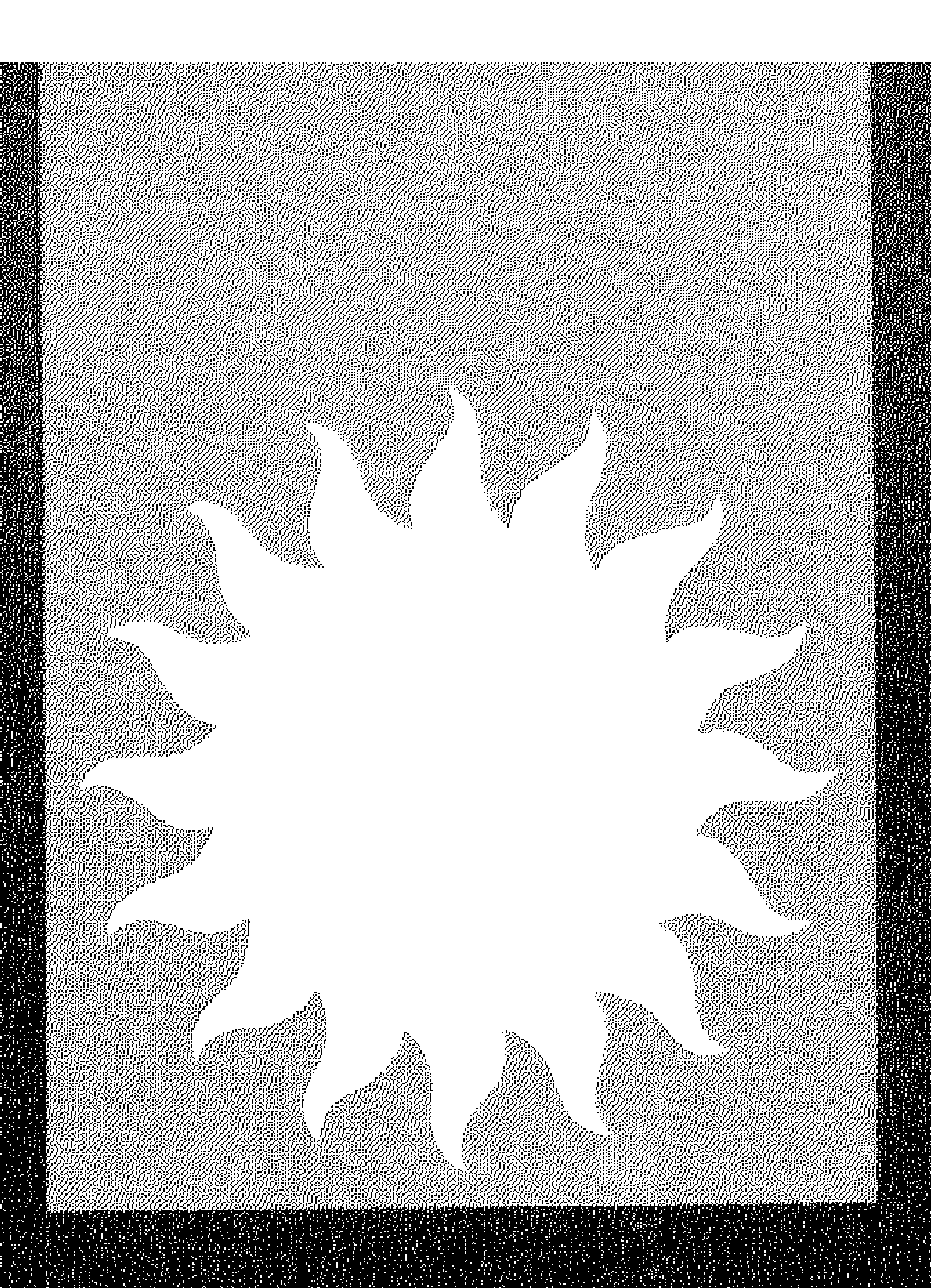
كانت الساعة في بكين الواحدة بعد منتصف الليل .
وكانت الساعة في زائير الواحدة بعد الظهر .

وكان أحد وزراء موبوتو على التليفون من كينشاسا يريد أن يتحدث إليه . . .

وقال موبوتو وهو يصافحني مودعاً :

ـ فروق الوقت مذهلة » .





عَودَة إلى بلاد الشمْس المشرقة
وَحِوار مع رئيس وُزرائها

العِملاق خائفٌ من قوّته!



تانا كا رئيس وزراء اليابان جالساً مع محمد حسنين
هيكل في مكتب رئيس الوزراء الياباني .

هذه المرة في اليابان ، طلبت ـ وقبل أن أصل إلى طوكيو ـ أن تتاح لي فرصة الحديث مع أربعة :

* تاناكا رئيس الوزراء الجديد

[لأني قابلت كل رؤساء الوزارة في اليابان في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وتحدثت طويلاً معهم وهم : يوشيدا ، وكانوا يسمونه « الرجل الواحد يوشيدا » فقد حمل على كتفيه وبمفرده مهمة قيادة اليابان بعد الهزيمة الساحقة في الحرب ـ ثم « ساتو » وقد حمل على كتفيه بمساعدة مجموعة رجال الأعمال الأقوياء ومجموعة المديرين الأكفياء مهمة بناء المعجزة الاقتصادية لليابان ـ ثم جاء « تاناكا » في أوقات متغيرة ، وقرارات ما زالت مثل قمم جبال فيوجياما ملفوفة بالسحب] .

* أوهيرا وزير خارجية اليابان

[لأن اليابان سوف تكون مدعوة مهما قال الناس عنها ومهما قالت هي عن نفسها إلى تحديد دورها العالمي وإلى رفع الحجب عنه مع توازن عالمي أصبحت فيه ، شاءت أو لم تشأ واحدة من القوى الأعظم في هذا الزمان ، بل إن كثيرين يرون أن القرن القادم ، القرن الحادي والعشرين سوف يكون قرن اليابان] .

* ناكاياما المشرف على توجيه عمليات الاقتصاد الياباني في العالم

[لأن المعجزة اليابانية في صميمها معجزة اقتصادية ، والنمو الذي شهدته وتشهده نمو خرافي .

بلد نما ابتداء من سنة ١٩٥٠ بمعدل ١٠ في المائة سنوياً وبالتراكم فإن معدل نموه يزداد بطريقة مخيفة :

كان الإنتاج القومي لليابان سنة ١٩٧٠ هو ٢٠٠ بليون دولار .

وسنة ١٩٧٥ سيصل الإنتاج القومي لليابان إلى ٤٠٠ بليون دولار.

وسنة ١٩٨٠ سيصل الإنتاج القومي لليابان إلى ٨٠٠ بليون دولار.

وهو حالياً يوازي الإنتاج القومي لكل دول السوق الأوربية المشتركة بأسرها .

وهو في سنوات قليلة سوف يتعادل مع الإنتاج القومي للولايات المتحدة الأمريكية نفسها .

وبعد ذلك .. فإن السماء هي الحدود كما يقولون] .

* كوبو مدير مؤسسة الدفاع الياباني

وهي البديل لوزارة الحربية أو وزارة الدفاع في بلاد العالم الأخرى .

[لأن السؤال المعلق الكبير في التوازن الدولي كله ، وبالذات في منطقة المحيط الهادي حيث نقطة لقاء أو صدام أربع من القوى الأعظم في هذا العصر : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين واليابان ـ سوف تكون هناك .

وكانت اليابان ممنوعة حتى الآن ـ رسمياً ـ من أن تتسلح بمقتضى صك الهزيمة الذي وقعته سنة ١٩٤٥ على ظهر حاملة الطائرات الأمريكية ميسوري التي دخلت شاهرة مدافعها في خليج طوكيو .

ولكن زماناً طويلاً مضى على ذلك اليوم .

ومع كل يوم ـ وبالمعجزة الاقتصادية ـ تغير كل شيء في اليابان وطرحت الظروف الجديدة سؤالاً ملحاً على اليابان وعلى العالم وهو :

ـ هل يمكن لقوة اقتصادية عظمى أن تحمي مصالحها الهائلة بغير قوة مسلحة ؟

وإذا أعيد تسليح اليابان .. إذن فإلى أين ؟]

. . . .

. . . .

كنت أريد أن أقابل هؤلاء الأربعة : تاناكا وأوهيرا وناكاياما وكوبو وقد قابلتهم جميعاً ..

قابلت أيضاً غيرهم بالمصادفات أو بالضرورات ، واستمعت

وتحدثت ، وناقشت وحاورت ، وكنت أظن أنني هذه المرة سوف أصل إلى أعماق السر الياباني ، ولكن هذه المرة أيضاً خرجت والسر هناك لم آخذ مفاتيحه معي !

ولقد عشت هذه التجربة مع اليابان كثيراً ، ذلك أنني ذهبت إليها في ربع القرن الأخير بمعدل مرة كل أربع سنوات ، وكنت في كل مرة أحاول بجد أن أفهم وأن أستوعب ، وأظن ـ ربما متفائلاً ـ أنني فهمت واستوعبت أشياء عديدة ، ولكني أزداد اقتناعاً مرة بعد أخرى أن القاع ما زال بعيداً وأن كل ما فعلته هو أنني لامست السطح أو لعلي خربشت بأظافري تحت السطح قليلاً !

وفي كل مرة كانت تعود إلى ذاكرتي صورة زودني بها الدكتور محمود فوزي وحملتها معي إلى اليابان في أول مرة ذهبت إليها سنة ١٩٥١.

في ذلك الوقت كان الدكتور محمود فوزي مندوب مصر الدائم في مجلس الأمن ، ولكن خبرته باليابان وإلمامه بتاريخها وحضارتها من تأثير ست سنوات قضاها في شبابه قنصلاً عاماً في يوكوهاما ـ كانت معروفة .

وتصادف وجوده مرة لمشاورات في القاهرة وكنت أتأهب لسفرة الشرق الأقصى مراسلاً حربياً في كوريا ، وذهبت إليه أسأله عن اليابان وأقول له إن اهتمامي بها كبير من أسباب عديدة ، ثم إنها سوف تكون القاعدة الخلفية لعملي : أذهب إلى ميدان القتال في كوريا ثم أعود إليها ، ثم أذهب وأعود حتى تنقضي مهمتي ...

ويومها قال لي الدكتور فوزي وكانت ابتسامته الغامضة عنده من وقتها :

ــ ليس لدي مفتاح لليابان أعطيه لك ويفتح لك بالمعرفة كل أبوابها ... ولكني سأعطيك صورة ولك أن تستخدمها كما تشاء » .

واستطرد الدكتور فوزي يقول :

ــ عندما تذهب إلى طوكيو ، حاول أن تزور أي حديقة يابانية ، وجرب أن تقضي فيها وقتاً طويلاً تستكشف وتتأمل .

سوف يلفت نظرك شيء هو أنه ليست هناك بقعة واحدة في أي حديقة يابانية تستطيع أن تقف عليها وترى منظراً شاملاً للحديقة كلها [بانوراما] .

مهما وقفت على مرتفع في حديقة يابانية فإنك سوف ترى جزءاً منها ولن تراها كلها .

الوادي وراء التل مباشرة ... والشلال المتدفق يندفع إلى الكهف ويخرج جدولاً هادئاً حيث لا تتوقع أن تراه ... وحوض الزهر في حضن كتلة الصخر .

الحديقة اليابانية مثال للشخصية اليابانية .

ليست هناك نقطة واحدة فيها تستطيع أن تعطيك الحقيقة كلها .

هذا ما لدي عن اليابان » .

ولعلي اعتبرت يومها أن الدكتور محمود فوزي . وضع شبابي ــ وقتها ــ أمام عملية تعجيز .

ثم أجد بعد ربع قرن ، وبعد زيارات متكررة ومتلاحقة لليابان ، أنه كان صادقاً معي !

وأعترف أن « كاكوي تاناكا » رئيس وزراء اليابان لم يبهرني كزعيم سياسي .

ليس كديجول مثلاً [رؤيته تاريخية نفاذة تعلقت بالقمم وكشفت كل السفوح والسهول أمامها] .

ليس كخروشوف مثلاً [شخصية سياسية معقدة متنوعة الألوان والظلال سريعة الفعل ورد الفعل] .

ليس حتى كسلفيه ـ وقد التقيت بهما قبله ـ « يوشيدا » ثم « ساتو ».

ولقد ذهبت إلى مكتبه وأنا أعرف أنه كان مقاولاً كبيراً ، دخل السياسة من باب الأعمال وبنى موقفه السياسي على أساس التقارب مع الصين .

وكان سلفه « إيزاكو ساتو » هو الذي أفسح له الطريق عندما بدا أن التقارب مع الصين أصبح ضرورة حتمية أمام السياسة اليابانية بعد أن اكتشفت اليابان « بالصدمتين » ـ كما يقولون في طوكيو ـ أنه أصبح محتماً عليها أن تهز نفسها من النوم أو التظاهر به تحت مظلة الحماية الأمريكية والعلاقة الخاصة بين واشنطن وطوكيو .

وكانت الصدمتان هما :

* إخطار اليابان بقرار نيكسون أن يزور الصين ويسوي أموره معها ، قبل إعلان النبأ للعالم كله بعشر دقائق .

* تخفيض سعر الدولار الأمريكي في العام الماضي بنسبة ٨ ٪ قبل إعلان ذلك بدقيقة واحدة للعالم كله رغم علم واشنطن بأهمية ذلك القرار بالنسبة لليابان من عدة نواح بينها ما تحتفظ به اليابان من أرصدة هائلة من الدولار الأمريكي .

وقتها وبعد « الصدمتين » أدرك ساتو أن الوقت قد حان لكي يخلي الطريق لغيره ، وعرف أن لديه قضية واحدة عليه أن يتحمل مسئوليتها مع الولايات المتحدة وهي قضية استعادة السيادة اليابانية على جزيرة أوكيناوا ثم يجمع أوراقه ويذهب ويخلي الطريق لمن يستطيع أن يفتحه مع بكين خصوصاً أن شواين لاي رئيس وزراء الصين لم يكن على استعداد لإخفاء رأيه :

ـ لا يمكن أن يحدث تقارب صيني ياباني ، مادام ساتو رئيساً للوزراء في طوكيو ، لأنه كان شريكاً مع الولايات المتحدة في سياسة احتواء الصين وعزلها في آسيا » .

والغريب أن ذلك لم يحدث غضباً في طوكيو ، ولا خلق عناداً ، ذلك أن الطبيعة اليابانية عملية إلى أقصى حد برغم اعتدادها بنفسها فوق كل تصور !

وكان المنطق في طوكيو :

« إذا كان التقارب مع الصين ضرورياً ... وإذا كان محتماً لتحقيق ذلك أن يذهب ساتو ...

... إذن فليأت تاناكا ولينفتح الطريق من طوكيو إلى بكين ».

وكان ساتو هو الذي مهد لتاناكا ، وهذه أيضاً معجزة من معجزات تقسيم الأعمال وتوزيع الأدوار في اليابان .

كأن اليابان كلها عائلة واحدة متماسكة ، ملتزمة بمصلحة مشتركة ، ولكل واحد من أفرادها وقته حسبما تتغير الأوقات ... ووفق ما تقتضيه الضرورات في الداخل والخارج ...

ولقد يقال إن ذلك منطق إقطاعي .

وقد يكون القول صحيحاً ...

وربما أضفت إليه :

ـ أن اليابان في الداخل هي أول تجربة في العالم تقوم على الإقطاع الصناعي في بنائها الداخلي ... وذلك له انعكاساته على علاقاتها الدولية ».

* * *

كان مقر رئيس وزراء اليابان تحت حراسة شديدة :

كان الحرس في الحديقة على مسافات متقاربة ، وكانت مسدساتهم معلقة في أحزمة الوسط ، وأيديهم ممسكة بأجهزة اللاسلكي يتلقون الأوامر ويعطون المعلومات .

وفهمت ، عندما عرفت أن الموعد اللاحق لموعدي مع رئيس الوزراء هو موعد للسفير الأمريكي في طوكيو تقرر أن يبحث فيه وضع معاهدة الأمن المشترك بين اليابان والولايات المتحدة .

وكان الخوف على السفير الأمريكي شديداً ومن هنا الحراسة المشددة .

وتذكرت ـ مرة أخرى ـ كيف تغيرت الأزمنة .

تذكرت أيام رأيت اليابانيين كلهم في شوارع طوكيو ينتحبون بكاء لأن الجنرال ماك آرثر قائد قوات الاحتلال الأمريكي بعد الحرب استدعى الإمبراطور هيروهيتو إلى مقره العسكري في مبنى داتيشي ـ الذي أصبح الآن بنكاً كبيراً ـ لكي يبلغه ببعض رغبات قوات الاحتلال ويطلب إليه أن يكون مسئولاً شخصياً عن تنفيذها .

وكانت هذه الإهانة للإمبراطور ـ سليل الشمس المشرقة ـ أكثر مما يحتمل بالنسبة لشعب اليابان ، ولكن الشعب لم يكن يملك وقتها غير الركوع على طريق مسيرة الإمبراطور وغير ذرف الدموع بحرقة وفي صمت مخيف من كثرة ما هو معبأ بشحنات خطرة وإن كانت عاجزة .

ووقتها وطوال المقابلة مع الجنرال ماك آرثر لم يكن لدى الإمبراطور إلا أن يتلقى الأوامر وربما كان يردد طوال الوقت كلمته المأثورة التي لا يسمع منه زواره غيرها وهي :

« اسودسكا ؟ »

وترجمتها الحرفية بالإنجليزية هي : Is that so

وأقرب ما يؤدي معناها بالعربية هو : « أهكذا ؟ ! » .

* * *

واستقبلني « كاكوي تاناكا » رئيس وزراء اليابان في غرفة صالون ملحق بمكتبه ، ثم دخلنا معاً إلى قاعة المكتب،وكنت أدير البصر فيه حينما كانوا في بداية المقابلة يقدمون لنا فناجين عتيقة من شاي اليابان الأخضر التقليدي .

غرفة المكتب بسيطة كما رأيتها من قبل .

زاد عليها بجانب المكتب علم ياباني ينسدل على قاعدة وسارية من الفضة .

زهور يابانية رقيقة وأنيقة على المكتب وعلى المائدة التي نجلس حولها .

صورة للإمبراطور والإمبراطورة معلقة في ناحية .

في مواجهتها لوحة من عمل الفنان التأثيري المشهور « سيزان ».

صورة لإدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا بتوقيعه على رف.وسألت « تاناكا » وقال لي :

ـ هو رئيس الوزراء الوحيد الذي زارني منذ توليت منصبي وأهداني صورته »

وبدأنا ندخل في موضوع الحديث على مهل .

سألني :

ـ قرأت أنك كنت في الصين وأنك قضيت أربع ساعات مع شواين لاي ؟ »

قلت :

ـ صحيح ... »

قال :

ـ لا بد أن درجة البرودة في بكين كانت عالية ».

قلت :

ـ كانت ما بين ست عشرة وثماني عشرة تحت الصفر ».

قال :

ـ برودة شديدة ... لكني عندما ذهبت إلى الصين في الخريف كان الجو دافئاً » .

قلت ضاحكاً :

ـ كانت الثلوج تذوب ... ألم يكن ذلك هو القصد من زيارتك ؟ »

وبدا لي أنني فاجأته لأنه راح يشفط من فنجان الشاي الأخضر ساكتاً ينتظر على حذر خطوتي التالية !

* * *

قلت لتاناكا :

أريد في البداية أن أسألك سؤالاً عاماً :

ذات مرة كنت مع كوف دي مورفيل رئيس وزراء فرنسا وكانت له نظرية في شكل الصراع الدولي المقبل ، مؤداها أن نقطة الصراع العالمي سوف تنتقل من أوربا ومن الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى حيث تتقابل وجهاً لوجه على جانبي المحيط الهادي أربع من القوي الأعظم في زماننا وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين واليابان .

هل توافق على هذه النظرية ... هل تختلف معها ... هل لك تحفظات عليها ؟ »

وقال تاناكا وهو يلتقط آخر جملة قلتها :

ـ إنني أتحفظ عليها فيما يتعلق باليابان .

إن اليابان ليست بين القوى الأعظم .

إن قوتنا العسكرية محدودة أو محددة ونحن ملتزمون بذلك بسبب ما وقعنا عليه بعد الحرب العالمية الثانية .

هل يمكن أن تكون هناك قوة عظمى بدون جيش كبير ؟ .. وهل

يمكن أن تكون هناك قوة عظمى بدون سلاح نووي ... ؟

إن اليابان ممنوعة من إنتاج السلاح النووي ، ونحن من جانبنا نرغب في ذلك ونتمسك به لأن لدينا عقدة من السلاح النووي ... نحن البلد الوحيد الذي جرب أهواله ، ولا نريد أن نفكر فيه .

ما نريده هو أن نواصل نمونا الاقتصادي ، وما نريده هو أن نكون بعيدين عن الصراعات الدولية .

إننا نريد أن نقوي علاقاتنا مع دول العالم كلها .

ونحن لا نملك إلا جيشاً دفاعياً صغيراً وذلك شيء منصوص عليه في دستور اليابان الذي يحدد ما يمكن أن نصرفه على الدفاع ، بما لا يزيد على واحد في المائة من إنتاجنا القومي .

ونحن نريد أن نكون قوة اقتصادية بغير لون سياسي ... ونفعل ذلك حتى فيما نقدمه للدول الأخرى من المساعدات .

إن مساعداتنا للدول النامية هي الآن ٩٦ في الألف من دخلنا القومي وسوف نرفع هذه النسبة ونزيد من مساعداتنا للدول النامية ونعتقد أن هذا ضروري ... ونريد أن نقدم بغير شروط سياسية .

إن مساعدات الولايات المتحدة مثلاً لها لون سياسي .

ومساعدات الاتحاد السوفيتي لها لون سياسي أيضاً .

نحن نريد أن تكون مساعداتنا بلا لون سياسي ... » .

* * *

قلت لتاناكا :

ـ أرجوك ألّا تتضايق من إلحاحي .

دعني أضع أمامك الصورة كما أراها .

اليابان قوة اقتصادية هائلة ... هي الآن قوة الإنتاج الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

ونسبة النمو في الولايات المتحدة لا تزيد عن ٣ في المائة سنوياً .

ونسبة النمو في الاتحاد السوفيتي هي الآن في حدود ٦ في المائة سنوياً .

أنتم هنا لديكم نسبة نمو سنوية تتراوح ما بين عشرة وأربعة عشر في المائة .

وكان هناك من يتصورون أن هذه النسبة سوف تتوقف عن الزيادة مع حقبة السبعينات ولكن الزيادة مستمرة ومن الواضح أنها سوف تستمر مع السبعينات والثمانينات .

والنتيجة أن اليابان قد تتفوق في أواخر هذا القرن من ناحية الإنتاج على الولايات المتحدة وعلى الاتحاد السوفيتي ، هناك من يقدرون أنها في نهاية القرن سوف تصل إلى حجم إنتاج سنوي قيمته ثمانية آلاف بليون دولار !

هي قوة اقتصادية مخيفة .

هذا جانب من الصورة .

الجانب الآخر هو أن المعجزة الاقتصادية اليابانية تعتمد أصلاً وأساساً على مواد خام كلها من الخارج كما أنها تعتمد أصلاً وأساساً

على أسواق كلها في الخارج .

هذا جانب ثان

والجانب الثالث هو أن واردات اليابان من المواد الخام وصادرات اليابان من السلع الصناعية تذهب كلها عبر البحار الواسعة إلى مسافات طويلة ... أي أن حياة اليابان كلها خطوط مواصلات .

وإذا وضعت هذه العناصر الثلاثة كلها معاً فإننا نخرج بما يلي :

* بلد لديه قوة اقتصادية هائلة ... حالية ومستقبلة .

* بلد يعتمد على الخارج في موارده الخام وفي صادراته .

* بلد يريد خطوط مواصلاته مفتوحة ذهاباً وإياباً ، خصوصاً عبر مضايق ملقا .

وما أسأل عنه هو ما يلي :

ــ أولاً ــ هل يستطيع بلد بهذا الوضع أن يستغني عن وجود سياسة خارجية له ... ؟

أقصد هل يمكن أن تكون هناك قوة اقتصادية هائلة بغير تعبير سياسي عنها .

ــ وثانياً ــ هل يمكن لأي تعبير سياسي أي سياسة خارجية أن يستغني عن عنصر القوة المسلحة خصوصاً إذا كان ــ بإرادته أو على الرغم منه ــ في مواجهة ــ أو على الأقل منافسة ــ مع قوى عظمى من حول هذه الجزر التي يعيش فيها ؟

هذا هو سؤالي ! »

واستطردت أقول لتاناكا :

ـ وقد تأذن لي أن أضيف عليه أنه حتى لو أخذنا بالنص الحالي في الدستور ، وهو النص الذي يحدد ما يمكن أن تصرفه اليابان على الدفاع ، بما لا يزيد على واحد في المائة من إنتاجها القومي فإن الرقم الذي سنجده أمامنا للدفاع ... رقم خيالي الآن . في الوضع الحالي يمكنكم أن تخصصوا للدفاع ـ مع الالتزام بنص الدستور ـ ٢٥٠٠ مليون دولار سنوياً ، وسنة ١٩٧٥ يمكنكم أن تخصصوا للدفاع ٤٠٠٠ مليون دولار سنوياً ... وهكذا وهكذا مع استمرار زيادة الإنتاج القومي الياباني ، وعلى فرض الالتزام بنسبة مخصصات الدفاع المنصوص عليها فيه .

هل استطعت أن أوضح سؤالي أكثر ؟ » .

* * *

وقال تاناكا :

ـ سوف أرد على سؤالك وأقول :

إن اليابان لن تكون الدولة التي ستحكم العالم ؟ »

وانتظرت أن يستطرد ولكنه سكت !

وقلت :

ـ إنني لم أشر من قريب أو بعيد لحكم العالم ... ولا أتصور أن اليابان سوف تحكم العالم ... ما أريد أن أقوله هو أن اليابان لا تستطيع ولا تملك أن تعيش بهذه القوة الاقتصادية الهائلة بدون سياسة خارجية ... ثم إنه يصعب علي أن أتصور وجود سياسة خارجية بغير عضلات.

هذه هي المشكلة التي تحير العالم كله فيما يتعلق بالدور المحتمل ، أو المنتظر لليابان ؟ »

وقال تاناكا :

ـ إنني أسلم أن إنتاج اليابان زادت معدلاته كثيراً في السنوات الأخيرة،ونحن قوة اقتصادية ضخمة بغير جدال ، لكن علينا أن نتذكر أنه ما زالت أمامنا مشاكل كبرى في داخل اليابان نفسها من أهمها رفع مستوى الخدمات الاجتماعية .

هناك مشكلة أخرى تشغلني وقد ألفت عنها كتاباً قبل أن أتولى رئاسة الوزارة في اليابان وهو عن مشكلة التلوث .

إننا بسبب تقدمنا الصناعي نواجه مشكلة تلوث خطيرة .

إننا نعرف ظروفنا .

نحن نعيش في جزر يحيط بها البحر من كل النواحي .

إننا حفرنا الجبل بحثاً عن الطعام وحصدنا البحر لنفس السبب أيضاً . . . أكلنا جذور الشجر ، وأكلنا أعشاب الماء .

ثم اكتشفنا الصناعة وتعلمنا من أوربا وقلدناها في بعض الأوقات ولكننا الآن نملك تكنولوجيا يابانية قادرة على التطور والإبداع .

إن الصناعة أفادت وأضرت في نفس الوقت .

بحارنا كلها تكاد تصبح مسمومة من كثرة ما نفرغه فيها من فضلات المصانع خصوصاً من الكيماويات .

* جبالنا وغاباتنا كلها تكاد تختنق من دخان المصانع .

مدننا مزدحمة ومرافقنا مثقلة بما عليها من أعباء .

بهذا الشكل فإننا على وشك أن نقتل الطبيعة عندنا .

والحلم الذي يراودني هو استغلال قوة اليابان في إعادة بناء اليابان .

كتابي كان عن ضرورة إعادة بناء اليابان كلها ... إعادة تخطيطها ...

إن دخلنا كبير ونحن لا نريد استخدامه في التوسع أو التورط في صراعات مع الآخرين ولكننا نريد أن نستخدمه في جعل هذه الجزر مكاناً صحياً وجميلاً للحياة فيه .

أليس هذا هدفاً يستحق أن نعمل من أجله ؟ » .

* * *

قلت لتاناكا :

ـ سيادة الرئيس ... إنني لا أريد أن أكون عنيداً ... ولا أريد أن أتجاوز،ولكن الأمانة تفرض علي أن أقول لك إنك لم تجب على سؤالي .

هل يمكن أن تكون هناك قوة اقتصادية بغير تعبير سياسي عنها ... أي سياسة خارجية أو دور دولي سمه كما تشاء ؟

ثم هل يمكن أن يكون هناك تعبير سياسي أو سياسة خارجية أو دور دولي بدون قوة ردع على الأقل ؟

هل يمكن للقوة الاقتصادية أن تكون عزلاء ؟

إن الصين على الشاطئ الآخر قوة ذرية .

والاتحاد السوفيتي ، وبينكم وبينه مشكلة على جزر « الكوريل » قوة ذرية .

والولايات المتحدة على الناحية الأخرى من المحيط الهادي قوة ذرية .

هل يمكن وسط ذلك كله أن تكون اليابان بقوتها الاقتصادية الهائلة عارية من السلاح الذري أو من سلاح يكفيها للدفاع عن نفسها ومصالحها ؟ »

وقال تاناكا :

ـ إننا لن نتخذ قراراً بأن تكون لدينا قوة ذرية ... نحن ممنوعون من ذلك دولياً ودستورنا يحرمه كما أننا لا نريده » .

قلت :

ـ ولكن إمكانية صنع السلاح الذري متوافرة لليابان فنياً واقتصادياً ولديكم محطات ذرية كثيرة » .

قال تاناكا :

ـ كلها محطات ذرية للسلام ... لتوليد الطاقة » .

قلت :

ـ ولكنها تستطيع أن تعطيكم كمية البلوتونيوم الكافية لإنتاج مخزون من القنابل الذرية، كما أن صنع الصواريخ ليس مشكلة أمامكم » .

قال تاناكا :

ـ ولكننا لم نتخذ قراراً بالتسلح النووي ولن نتخذه .

نحن نريد أن نعيش في سلام » .

قلت :

ـ هل تستطيع اليابان أن تعزل نفسها عما يجري في العالم .

إنني كنت مع شواين لاي قبل أيام وسألته عن أحوال العالم المتغيرة وكان رده المختصر والمفيد في وصف أحوال العالم هو :

تحالفات جديدة ... انقسامات جديدة ... ثم فوضى ـ أو فوران ـ في كل مكان » .

هل تستطيع اليابان أن تعزل نفسها عن هذا العالم ؟ » .

وقال تاناكا :

ـ لقد شهد العالم بعد الحرب العالمية الثانية صداماً بين الشرق والغرب ، ثم اكتشف الجميع أن الحرب العالمية مستحيلة لأنها بين القوى العظمى سوف تتحول إلى حرب ذرية وهذا ما لا يستطيع أن يتحمله أحد ومن هنا فإن الكل اتجهوا إلى عصر جديد ... عصر تسوية المنازعات عن طريق المفاوضات » .

قلت :

ـ إذا أذنت لي فإن العصر الجديد ... عصر تسوية المنازعات عن طريق المفاوضات لم يقم على نزع السلاح ولكنه قام ويقوم على توازن القوى » .

وقال تاناكا :

ـ ألا يمكن أن يحل التعاون محل التوازن ... إننا ذهبنا إلى الصين

وسوينا خلافاتنا القديمة معها عن رغبة في التعاون ؟ » .

قلت :

ـ أن يحل التعاون محل التوازن في حفظ السلام ، فذلك أمل للبشرية ولكنه يقتضي أن يصبح الإنسان غير الإنسان ...

ولست متشائماً لأنني مؤمن بالإنسان ... ولكن باعتباره إنساناً ـ فإن له فضائله وله مطامحه ...وبفضائله ومطامحه ... أي بمبادئه ومصالحه ، فإن حياة الإنسان صراع متصل .

ومع ذلك فإني أريد أن أسأل :

إنك ذهبت إلى الصين مستعداً للاستجابة لطلباتها بالتعويض عما أصابها من خسائر بسبب عدوان اليابان عليها ... برغم ذلك فإن شواين لاي قال لك كما فهمت أن الصين لا تريد تعويضات من اليابان ... كنت على استعداد لأن تدفع بلايين الدولارات وأعفوك من الدفع ... لماذا ؟ »

قال تاناكا :

ـ إن شواين لاي قال لي إنه يريد صفحة جديدة في العلاقات مع اليابان ولا يريد أن يفتح صفحة الماضي » .

* * *

لم تكن هناك جدوى من الإلحاح وقلت لتاناكا :

ـ على ذكر الصين ، إنكم هنا تمثلون تحدياً تكنولوجياً هائلاً ... والصين على الناحية الأخرى من البحر تمثل تحدياً أيديولوجياً هائلاً .

وفي ظني أن هناك ملاءمات اجتماعية جاء وقتها في اليابان إزاء قوة الجذب الكامنة في التجربة الصينية » .

وقال تاناكا :

ـ ذلك صحيح ... إننا في حاجة إلى عمل اجتماعي واسع وعميق لرفع مستوى الضمان الاجتماعي في اليابان .

إن مستوى الدخل في اليابان أصبح مماثلاً لمستوى الدخل في أوربا الغربية .

ولكن مستوى الضمان الاجتماعي في اليابان لا يزيد على نصف ما هو متاح للفرد في الدول الأوربية .

ولذلك لا بد من زيادة وتوسيع رقعة الضمان الاجتماعي .

هناك أيضاً ما قلته لك من قبل عن إعادة تخطيط الجزر اليابانية لتكون أكثر صحة وأكثر جمالاً .

لدينا خطة لذلك وقد اعتمدنا ما يكفي لتنفيذ ٣٠ في المائة منها » .

* * *

قلت لتاناكا :

ـ سؤال أخير عن الشرق الأوسط » .

قال :

ـ نحن نحاول أن نتبع سياسة متوازنة في الأزمة » .

قلت :

ـ سيادة الرئيس ... إن اليابان تحصل على ٨٥ في المائة من البترول الذي تستعمله من الخليج العربي .

ولست أعرف ما هو المقصود بسياسة متوازنة ولكن أعتقد أن اليابان مطالبة بحكم مصالحها مع المنطقة بدور نشيط في صراعاتها » .

. . . .

. . . .

وكان تحفظ تاناكا واضحاً وإن كان وزير خارجيته أوهيرا قد اختار موقفاً أقل تحفظاً في لقائي معه بعد ذلك إذ قال لي ونحن في مكتبه بوزارة الخارجية ومعنا السفير صلاح حسن ، سفير مصر الذي لا يهدأ نشاطه في طوكيو :

ـ إن موقف اليابان من أزمة الشرق الأوسط هو رفض الاعتراف بالوضع الحالي الذي نشأ كنتيجة لاستخدام القوة العسكرية . ورأينا وموقفنا هو ضرورة العودة إلى الوضع الذي سبق استخدامها ، ولكن تحقيق ذلك يجب أن يتم بغير حرب .

وانه لمن المؤسف أن تتخذ بعض الدول العربية موقفاً واقعياً بينما تتخذ إسرائيل موقفاً غير واقعي وترفض قبول التسوية السلمية العادلة » .

ودخلنا بعدها في مناقشة متشعبة عن أزمة الشرق الأوسط وتطوراتها واحتمالاتها .

ولقد غادرت طوكيو بعد خمسة أيام مزدحمة فيها وليست معي هذه المرة أيضاً مفاتيح لكل الأبواب في اليابان .

وربما لو أردت تلخيص ما خرجت به لقلت بما يلي :

(١) إن العملاق الياباني يرى أبعاد قوته الحالية والمستقبلة وهو خائف منها إلى أبعد مدى ... ربما أكثر من خوف الآخرين من هذه القوة .

ولعله بسبب ذلك فإن العملاق الياباني لم يستقر بعد على قرار .

والعملاق الياباني يحاول أن يقول لكل الناس صراحة إنه « حيوان اقتصادي » . لا تهمه السياسة من قريب أو بعيد . ولكنه مع ذلك يغضب إذا أحس بأن الآخرين غير متنبهين لدوره المحتمل . وأظن أن اليابان كلها لم تستطع أن تنسى الجرح الذي أحست به ذات يوم عندما كان ديجول على موعد مع رئيس وزرائها ساتو . ونقل عن ديجول قوله : « ماذا سأقول له ... إذا كان يصر على أنه ليس إلا بائع ترانزستور متجول » ؟!

(٢) إن اليابان ما زالت في أعماقها ممسوكة برواسب الماضي وهي تذكر بقسوة تجربة ضربها بالقنبلة الذرية وتدرك في صميمها أنها ضربت في الحقيقة بسبب الصراعات الدولية .

إن اليابان كانت قد قررت الاستسلام فعلاً للحلفاء عندما سقط هتلر وانتحر في أنقاض خنادق دار المستشارية في برلين . وأبلغت

اليابان رغبتها في الاستسلام في ذلك الوقت إلى روسيا ، لكي تعرض طلبها على الولايات المتحدة ولكن روسيا « نامت » على الطلب لأنها بعد الفراغ من هتلر في أوربا أرادت أن تسوي حسابات لها في الشرق الأقصى وبعض هذه الحسابات كان مع اليابان .

وهكذا فإنها بدل أن تعرض استسلام اليابان على الولايات المتحدة بادرت إلى إعلان الحرب على اليابان .

وفي نفس الوقت فإن الولايات المتحدة التي كانت قد كسرت كل أسرار الشفرة اليابانية كانت على علم برغبة اليابان في الاستسلام ومع ذلك فإنها ضربتها بغير ضرورة بأول قنبلة ذرية . وفي يقين اليابان أن ذلك حدث لإرهاب روسيا أكثر منه لإخضاع اليابان وقد أثبتت وثائق

الحرب العالمية الثانية أن بعض ذلك كان يجول في فكر الرئيس الأمريكي هاري ترومان عندما اتخذ القرار بإلقاء القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما .

(٣) إن تردد اليابان في أن تتخذ لنفسها دوراً دولياً لن يتأخر طويلاً والأرجح أن يأتي في الفترة ما بين سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٨٠ .

وتريد اليابان أن تفكر وأن تفكر بعمق قبل أن تختار .

وربما تريد أن تتأكد وتتأكد أيضاً قبل أن تقدم على خطوة واحدة .

وقد يكون في ضمير اليابان من تجربتها السابقة أنها اختارت على

عجل في الحرب العالمية الثانية وكان اختيارها قائماً على تأكد من قوتها سبق وقته المناسب في تلك الآونة .

(٤) أنه مهما كان من اختيار اليابان فإن اختيارها سوف يهز الدنيا كلها .

اختيارها سوف يؤثر في أمريكا التي تحاول الآن أن تعتمد عليها كعنصر ثبات في مواجهة متغيرات الصراع الصيني السوفيتي .

اختيارها سوف يؤثر في روسيا التي تركز أنظارها على نزاعها مع الصين وتكره ما تراه من تقارب صيني ياباني .

ثم إن اختيارها سوف يؤثر في الصين وهي الأخرى تركز على نزاعها مع الاتحاد السوفيتي وتشجع بكل وسيلة تقارب اليابان منها .

(٥) مع ذلك كله فإن اليابان سوف تؤخر قرارها أو اختيارها إلى أقصى حد ممكن وعندما تختار فإنها سوف تفعل ذلك بطريقة لا يتوقعها أحد .

إن تركيب السلطة في اليابان غريب ، وهو تركيب ثلاثي يتكون من مجموعة رجال الأعمال ، والحزب الحاكم ، وجهاز الدولة .

وهم في اليابان يسمونها مجموعة « الصخرة » و« الورقة » و« المقص » .

الصخرة هي رجال الأعمال وهم صلب الحقيقة في اليابان .

الورقة هي جهاز الدولة وهي تستطيع أن تلف الصخرة وتغطيها .

والحزب الحاكم هو المقص ، والصخرة تستطيع أن تكسره إذا ضربته ، كما أنه بدوره يقدر أن يقص أطراف الورقة .

والمهم أن هذا التركيب الثلاثي في السلطة يستطيع أن يكون عملياً بطريقة مخيفة،أي أنه يستطيع أن يلائم نفسه بسرعة مع الظروف وبشكل لا يخطر على بال الآخرين .

والمثل الواضح القريب لذلك أن اليابان انتقلت في ثلاثة أيام من أكثر دولة مدججة بالسلاح ، إلى أكثر دولة مسالمة .

كان لديها ثلاثة ملايين تحت السلاح في الحرب العالمية الثانية وكانت تستطيع أن تجعل الولايات المتحدة تدفع ثمناً غالياً ودموياً لهزيمتها من جزيرة إلى جزيرة .

ولكنها بعد ثلاثة أيام من الاجتماعات تحت رئاسة الإمبراطور وجدت أنه لا جدوى من استمرار الحرب بعد انهيار ألمانيا وكان القرار هو : الاستسلام بلا قيد ولا شرط،ولتبدأ صفحة جديدة في التاريخ حتى مع الهزيمة المطلقة ... رغم أن أبرز ما يميز الشخصية اليابانية تقليدياً هو أنها « لا تخاف من العقوبة ولكنها تخاف من العار » .

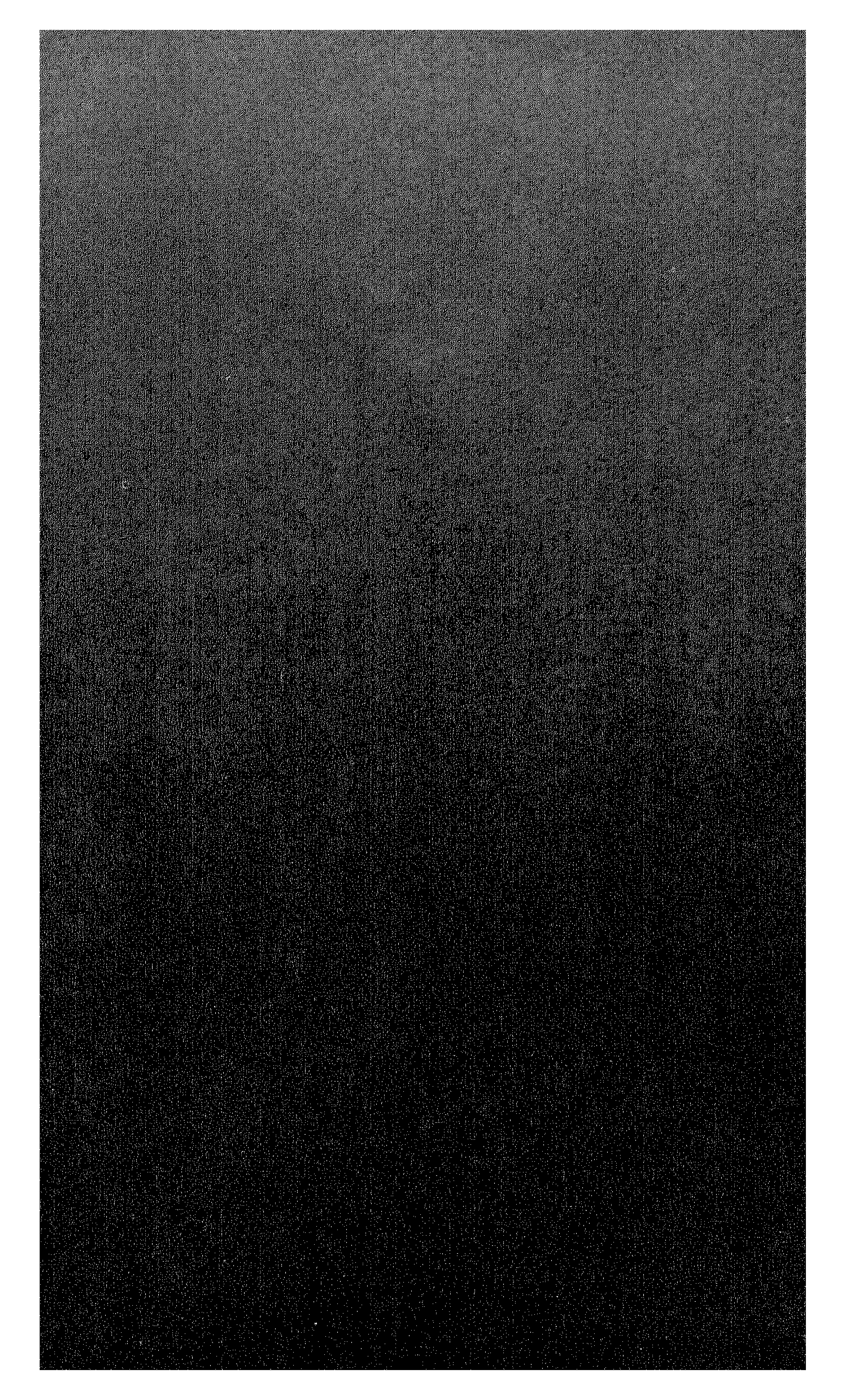
وليس معنى ذلك أنني أقطع مسبقاً برأي في اتجاه القرار الذي ستتخذه اليابان ولكني أقول إن اليابان قادرة على أي اختيار ... وإذا وقع ذلك

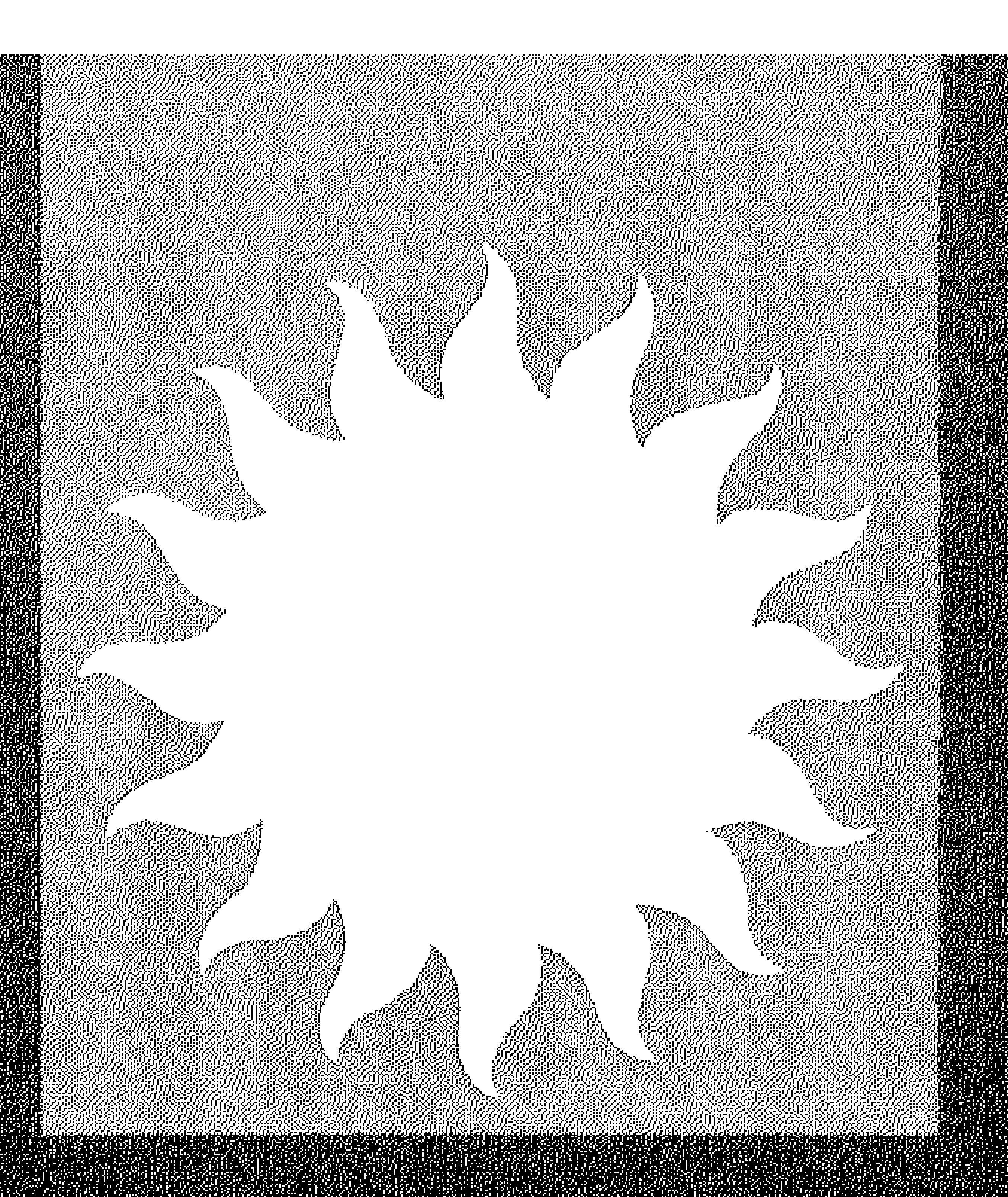
فإنه سيكون مفاجأة للدنيا كلها ليست مثلها مفاجأة .

. . . .

. . . .

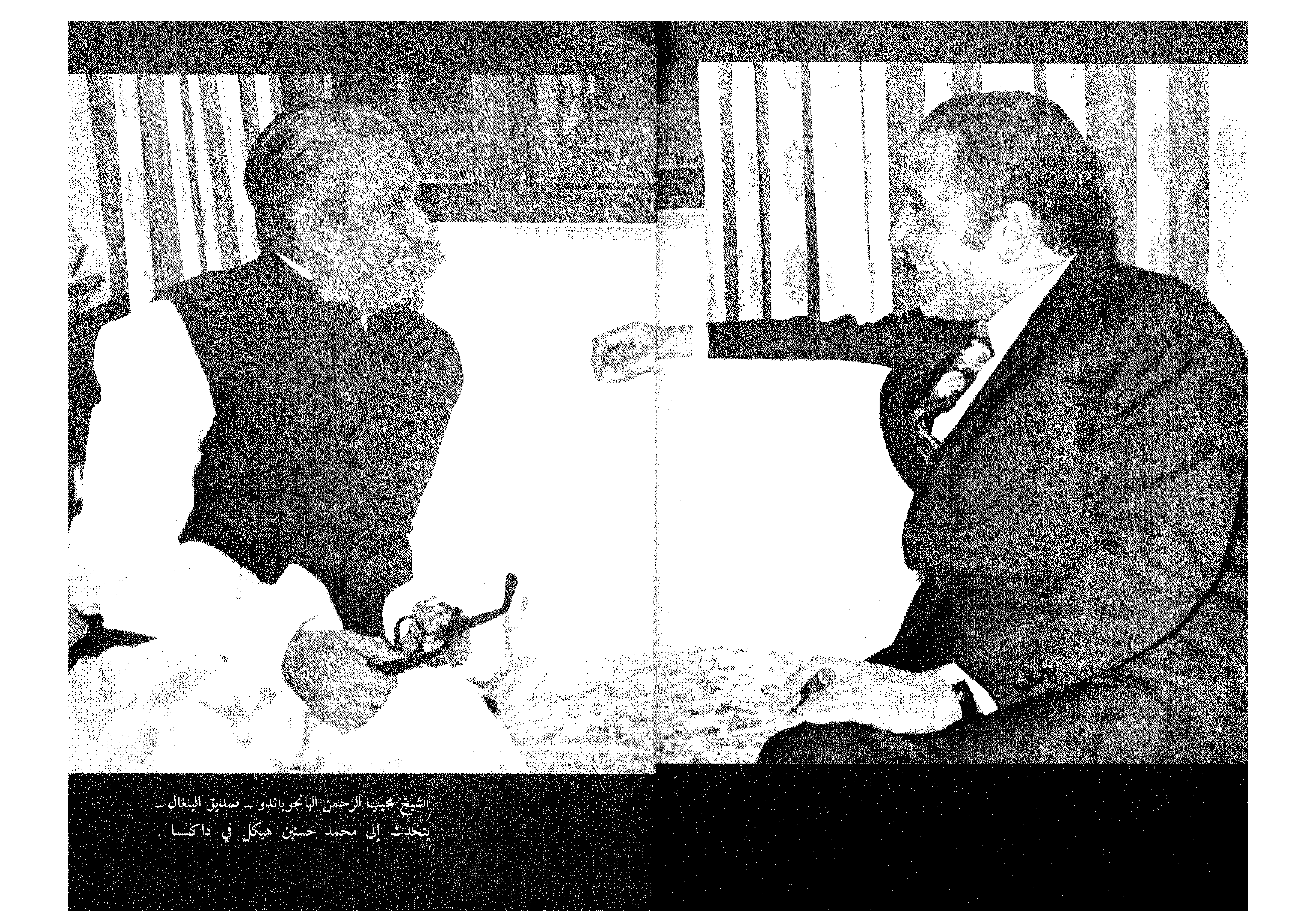
ويبقى قول الكاتبة الأمريكية روث بندكت صحيحاً من أنه بين أبرز مفاتيح الشخصية اليابانية ذلك « المزيج في أعماقها بين زهرة الكريزانتيم الرقيقة والسيف اللامع القاطع ! ! » .



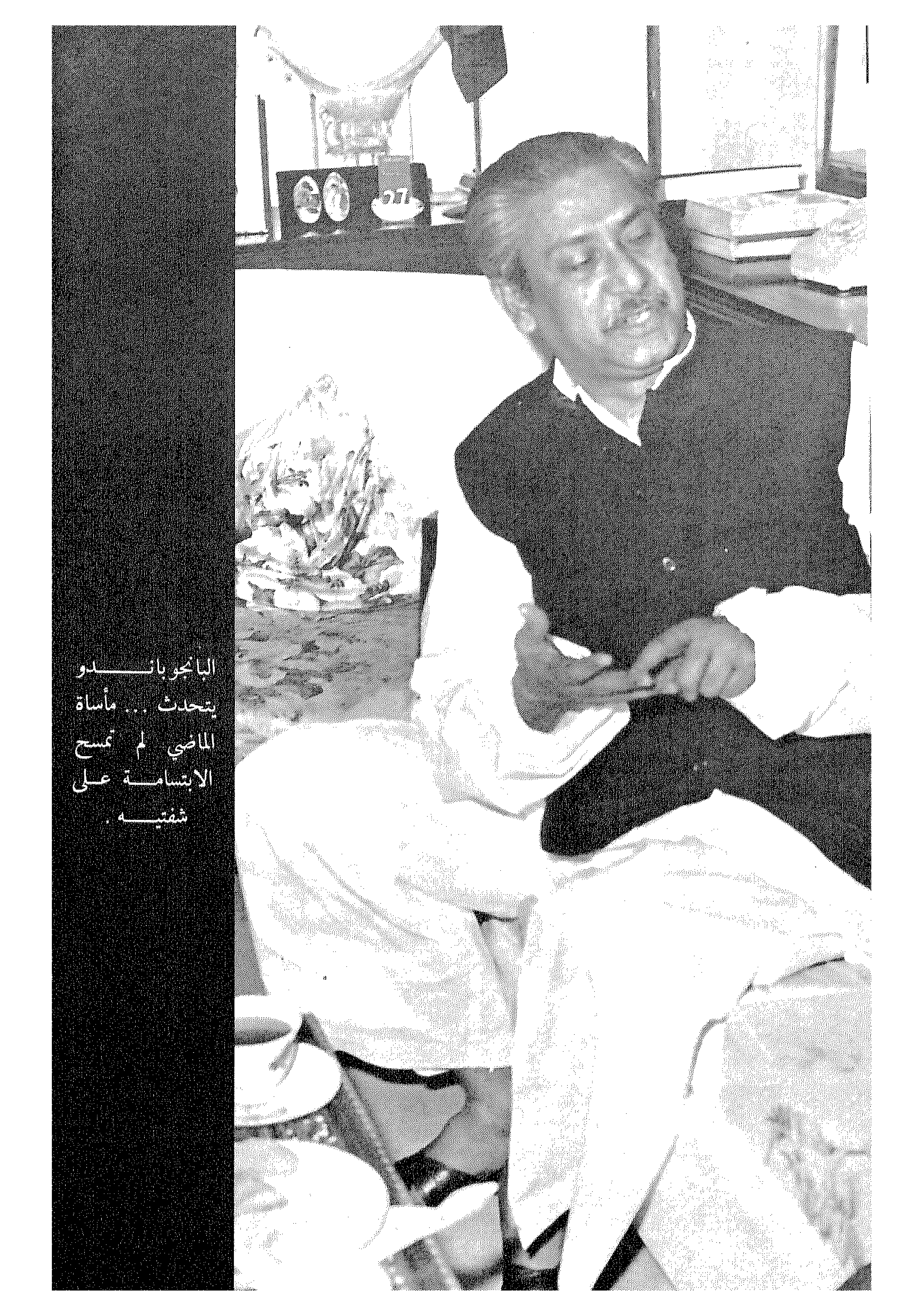


البانجو باندو في داكيا

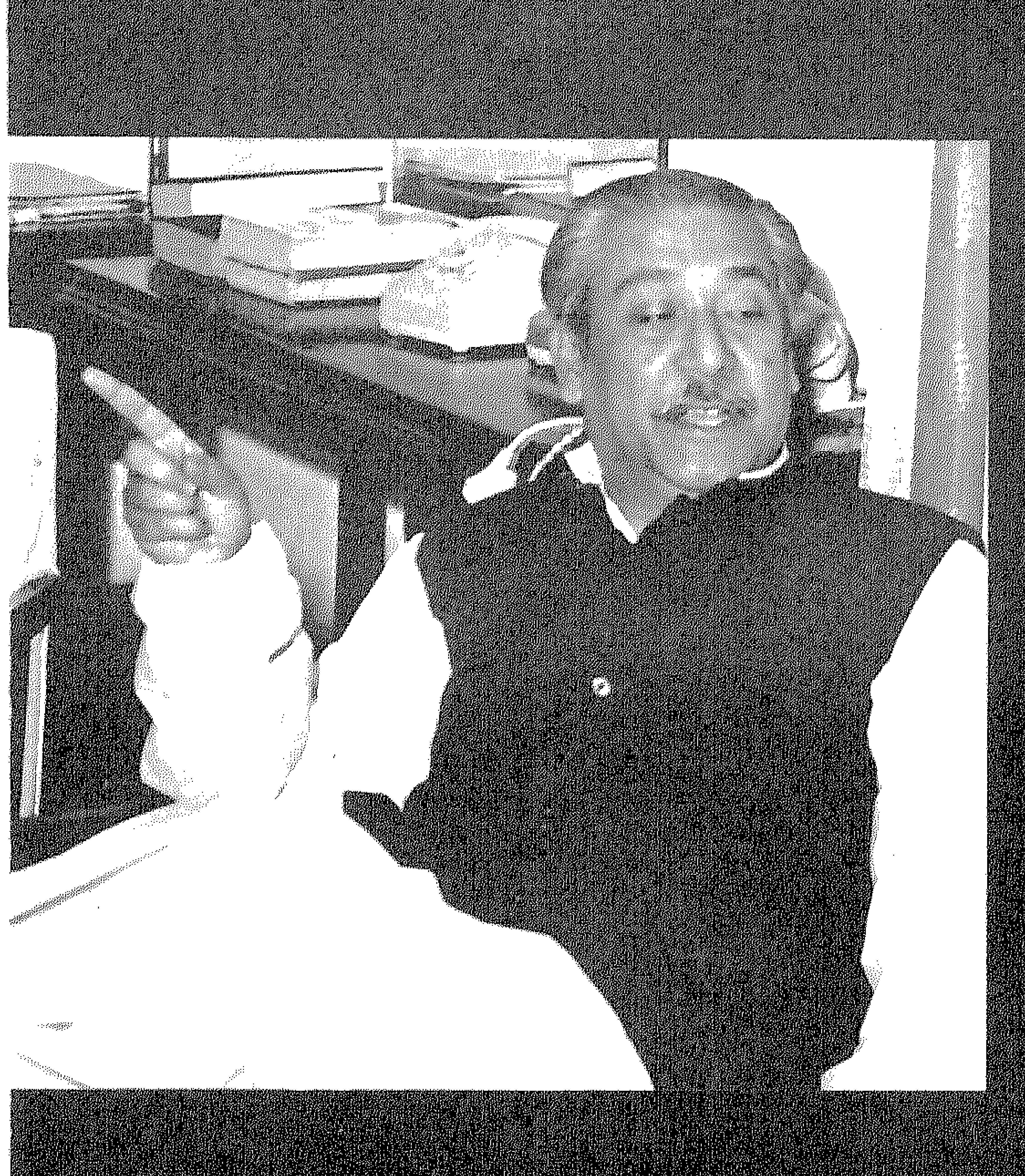
مأساة الطبيعة ومأساة الإنسان



الشيخ مجيب الرحمن الباتجوباندو ـ صديق البنغال ـ
يتحدث إلى محمد حسنين هيكل في داكـا .



البانجوباندو يتحدث ... مأساة الماضي لم تمسح الابتسامة على شفتيه.



البانجوباندو يقـول :
لم أتعلم من التاريخ
وإنما تعلمت من شعبي



البانجوباندو مصر على
محاكمة المسئولين عن
جرائـم الحــرب .

لقد اخترت موقفي مع « بنجلاديش » منذ اللحظة الأولى التي انفجر فيها الصراع الدامي الرهيب الذي مزق شبه القارة الهندية وترك على سطحها وفي أعماقها جراحاً غائرة لا أظنها تلتئم قبل زمان طويل !

كان موقفي مع « بنجلاديش » .

ولم يكن ذلك يعني انحيازاً للهند ، أو انحيازاً ضد باكستان،ذلك لأن الانحياز لم يكن القضية المطروحة ، وإنما القضية المطروحة كانت ـ ولا تزال ـ هي حرية ووحدة أمم شبه القارة الهندية ، والمعادلة الصعبة التي تحكم النضال من أجل الهدفين : الحرية والوحدة .

ومؤدى هذه المعادلة الصعبة بين الاثنين في كل مكان وزمان هي :

ـ أننا لا نستطيع باسم الحرية أن نمزق الوحدة .

* ولكننا لا نستطيع باسم الوحدة أن نقتل الحرية !

ولقد كان الفشل في إدارة هذه المعادلة الصعبة هو الذي أدى إلى تقسيم شبه القارة الهندية .

كان هناك شيء واحد في شبه القارة الهندية هو : الهند .

انقسم الواحد إلى اثنين في شبه القارة الهندية : الهند وباكستان .

أصبح الاثنان ثلاثة في شبه القارة الهندية : الهند وباكستان وبنجلاديش .

وغداً أو بعد غد ، قد يشهد شبه القارة الهندية انقسامات أخرى ، وهذا محتمل ، لأن الفشل في إدارة معادلة الحرية والوحدة مازال قائماً ، ولأن رواسب الماضي ثقيلة ، ولأن الحاضر يجيء معه بتعقيدات كثيرة أظهرها اليوم في شبه القارة الهندية ، آثار الصراع الصيني السوفيتي في منطقة تقع جغرافياً وسياسياً وراء ظهر أو تحت بطن العملاقين : الاتحاد السوفيتي والصين .. إلى جانب الألعاب الخطرة التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية !

* * *

ولعلي كنت مهيأ للتعاطف مع شعب البنغال ، قبل أن تنشأ حركة استقلال بنجلاديش ـ أمة البنغال ـ وتمر بتجربة العذاب التي عاشتها سنة ١٩٧١ وما زالت تعيشها إلى الآن .

وقد أحار في تعليل الأسباب :

* لعل بعض التعاطف الذي كان كامناً جاء من قراءات مستمرة عن تاريخ الاستعمار الغربي في آسيا ، وكانت البنغال نموذجاً من أشهر النماذج الشاهدة على جريمة الاستغلال البشع التي مارسها الاستعمار ..

وقد نتذكر أن البنغال كانت أول مركز لنشاط شركة الهند الشرقية التي كانت في الواقع أولى فصائل الاستعمار البريطاني على الشواطئ الشرقية لآسيا .

ويذكرنا كتاب « ستراتشي » الشهير عن « نهاية الإمبراطورية » بصور مروعة لما تعرضت له البنغال تحت حكم شركة الهند الشرقية ، ويصف ستراتشي في كتابه أن ما حدث للبنغال لم يكن مجرد استغلال وإنما كان نزحاً منظماً لكل شيء وجده البريطانيون على الأرض : الذهب وغيره من المعادن .. الكنوز التي أنتجتها حضارات ظهرت واندثرت ... مصنوعات الحرير .. المحاصيل الزراعية . كل شيء يمكن نقله وضعته شركة الهند الشرقية على سفنها وأبحرت به إلى بريطانيا في عملية نزح منظم للثروة ، بغير حساب ، ولعدة قرون .

* لعل بعض التعاطف الذي كان كامناً جاء من انبهار شاب بشخصية « رابندرانات طاغور » شاعر البنغال العظيم الذي خلد بكتاباته آلام الأرض وآلام الإنسان في وطنه البعيد وغنى للغروب في حزن عميق وغنى للشروق بقلب كسير وكتب في أواخر القرن الماضي وكأنه يلمس من بعد مأساة الثلث الأخير من هذا القرن العشرين :

« إن بيتي صغير .

وما فقد منه هيهات أن يعود .

ولكن بيتك يا إلهي بلا حدود .

وحينما ذهبت أبحث عنها .. قادتني إلى بابك خطاي » .

* لعل بعض التعاطف الذي كان كامناً جاء من معرفة لاحقة برد الفعل الذي انطلق في باكستان الشرقية ــ بنجلاديش الآن ــ ضد العدوان

الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ .

يومها كانت هناك ثورة حقيقية ضد بريطانيا في تلك البلاد النائية وأحرقت الجماهير قنصلية بريطانيا في داكا ولم يبق مكتب لشركة بريطانية في هذه العاصمة إلا أصابته الجماهير بغضبها بينما كان هناك عشرات الألوف من المتطوعين يبحثون عن طريق يذهبون منه إلى مصر ليشاركوا في كفاح شعبها .

وقد بذلت بريطانيا وقتها جهداً خارقاً لكتمان ما حدث في باكستان الشرقية ولم تتضح بالنسبة لي صورته الحقيقية إلا بعد ذلك بثلاث سنوات وأثناء زيارة بالمصادفات وحدها إلى داكا عاصمة باكستان الشرقية وقتها وعاصمة بنجلاديش الآن .

* * *

وربما بغير التعاطف الكامن فإن الحقائق بدت لي واضحة في حركة استقلال بنجلاديش،ومن هنا اخترت موقفي :

* هناك قومية ولغة في باكستان الغربية،وهناك قومية ولغة أخرى في باكستان الشرقية .

* هناك فاصل جغرافي بين الاثنتين بعرض ١٥٠٠ ميل ــ امتداد عرض الهند ــ والطريق الوحيد بين جناحي الدولة الباكستانية إما فوق الموج بالبواخر أو فوق السحب بالطائرات .

* هناك مظان وشواهد على وجود استغلال من الغرب للشرق ... وليس ذلك طعناً في باكستان لأن الاثنتين والعشرين أسرة التي تسيطر اقتصادياً ــ أو كانت تسيطر اقتصادياً ــ في باكستان الغربية هي نفسها التي كانت تستغل في باكستان الشرقية .

* هناك نوع السلطة التي بدأت تحكم في باكستان بعد الانقلاب العسكري الذي قاده الماريشال أيوب خان في باكستان وهي سلطة ضيقة الأفق لم تجد لديها للرد على الفكرة إلا وضعها في السجن ، ولم تعثر على شيء تواجه به الكلمة إلا طلقة الرصاص .

* * *

ثم طرأت على ذلك كله في أواخر سنة ١٩٧٠ وأوائل سنة ١٩٧١ مأساتان يندر أن نجد لهما مثيلاً في التاريخ :

* مأساة من صنع الطبيعة
* ومأساة من صنع الإنسان .

كانت المأساة التي صنعتها الطبيعة هي إعصار ليلة ١٢ نوفمبر سنة ١٩٧٠ .

في تلك الليلة اكتسحت شواطئ باكستان الشرقية ثمان من موجات المد العالية تلاحقت وراء بعضها قادمة من المحيط بارتفاع عشرة أمتار ثم انحسرت بعد أن سحبت نصف مليون إنسان تحولوا في ساعات مروعة من بشر إلى جثث وكانت بيوتهم وحقولهم من ورائهم خراباً ودماراً وكان الدمار على أشده في « نوخالي » و« خولنا » و« باتوخالي » و« شيتاجونج » .

وكان المحزن أن أي نظام للأرصاد الجوية كان كفيلاً بالإنذار استعداداً للمأساة لأن الأعاصير المجنونة كانت تتجمع في المحيط قبل هجومها بأيام .

ولم يحدث إنذار للآمنين من الناس رغم أن المعلومات كانت متاحة وكان الأكثر مدعاة للحزن أن جهود الإغاثة والإسعاف كانت قاصرة

إلى حد لا يمكن تصوره .

لم تزد عن جولة لجنرال فوق المناطق المنكوبة راكباً طائرة هليكوبتر ولعله هز رأسه تعبيراً عن الأسف ولكن قراره الأول بعد النزول من طائرته كان بمنع الصحفيين والمصورين من الذهاب إلى المناطق المنكوبة حتى لا يعرف أحد أبعاد المأساة .

* * *

وكانت المأساة الثانية من صنع الإنسان ذلك أن انتخابات عامة جرت في الباكستان غرباً وشرقاً بعد ذلك ، وجرت تحت إشراف الحكم العسكري وكان لمأساة الطبيعة : الإعصار ـ وما حدث فيه دور بارز ساعد على إعطاء أغلبية كاسحة لحزب « عوامي ليج » الذي يرأسه الشيخ مجيب الرحمن ـ أو بانجو باندو ومعناها صديق البنغال كما يسمونه هناك ، وكان من حق الشيخ مجيب أن يؤلف وزارة تحكم غرب باكستان وشرقها ، ولكن السلطة العسكرية والمصالح المختفية وراءها رفضت قبول نتيجة ظهرت في انتخابات جرت تحت إشرافها ومن ثم فإنها قررت أن تقضى على الشيخ مجيب وحزبه وشعبه .

بدلاً من أن تسلمه السلطة اعتقلته .

وبدلاً من أن تقبل اختيار الجماهير حاولت قتل ممثليها الشرعيين .

وبدلاً من أن تفهم دواعي موقف شعب باكستان الشرقية واجهته بالحديد والنار وكانت مذبحة تختلف التقديرات حول ضحاياها ... تتواضع إلى نصف مليون قتيل وتتصاعد إلى ثلاثة ملايين قتيل واعتقادي شخصياً بعد كل ما رأيته في بنجلاديش أن الحقيقة أقرب إلى التقدير المتواضع وهو نصف مليون قتيل خلال عشرة شهور أطبق فيها الظلام كالحاً ودامياً على بنجلاديش .

والرقم المتواضع نصف مليون قتيل ليس بسيطاً ولا هيناً وإنما هو مأساة كاملة لا يمكن قبولها ويستحيل تبريرها !

يصعب علي أن أجد قبولاً أو تبريراً تحت دعوى أنها كانت مؤامرة على الباكستان لأن السلطة العسكرية الحاكمة في غرب الباكستان كانت هي التي تقود الحوادث وليس غيرها .

ويصعب علي أن أجد قبولاً أو تبريراً تحت دعوى أنها كانت مؤامرة على الإسلام لأن الإسلام باق في شرق باكستان كما هو باق في غربها !

* * *

لم أكن قد قابلت الشيخ مجيب الرحمن زعيم بنجلاديش ورئيس وزرائها ـ من قبل ولكن صورة « البانجو باندو» كانت في كل مكان في داكا تطل على الناس بابتسامة معبرة عن الألفة تعطي لصاحبها هذا الحق في لقبه الشعبي « صديق البنغال » .

وحاولت قبل موعدي المحدد معه في بيته أن أسمع عنه ممن رأوه .

وكان آخر من سألته الدبلوماسي الألماني « الدكتور ياسر» الذي كان في وقت من الأوقات قائماً بالأعمال لألمانيا الغربية في القاهرة . وقد اصطدمت به مصادفة في فندق « أنتركونتننتال » الذي نزلت به في داكا ومن الغريب أنه كان قادماً لتوه من مقابلة مع الشيخ مجيب الرحمن بعد توقيع اتفاق معونة اقتصادية بين ألمانيا وبنجلاديش .

وقال لي الدكتور ياسر :

– شخصية جذابة ... وبالتأكيد فإن تأثيره على جماهير شعبه مذهل» .

واستطرد الدكتور ياسر :

– ولكن المشاكل التي تواجهه عويصة وعلينا أن ننظر لنرى كيف تستطيع الجاذبية الشخصية أن تواجه المشاكل المستعصية » .

وبدأ الدكتور ياسر ـ وهو مستشرق يجيد العربية ويتحدثها بطلاقة مع لكنة ألمانية بالطبع ـ يضحك ويقول :

– كان هناك مشهد في مكتبه يستحق أن تراه .

بينما كنا نتحدث جاء ذكر مصر ،وأشار إلى نسخة مذهبة من القرآن أفرد لها مكان الصدارة على مائدة بجانب مكتبه وقال لي :

– هذا القرآن جاءني من مصر . .

ونهضت من مكاني ورحت أتأمل المصحف وفتحت أول صفحة فيه وبدأت أقرأ فاتحة الكتاب بعربية فصحى .

وكان يجب أن ترى ملامح وجهه لحظتها .

كان فمه مفتوحاً من الدهشة . .

وكان حاجباه معلقين ببوصة على الأقل فوق مكانهما الطبيعي من العجب ! » .

* * *

وجاء موعدي مع « البانجو باندو الشيخ مجيب الرحمن » وذهبت إليه في بيته ... المقر الرسمي لرئيس الوزراء .

كان يرتدي قميصاً أبيض وتحته سروال بنغالي من نفس اللون ، وفوق القميص صديري مقفول بلا أكمام .

وكانت ابتسامته بعرض وجهه ... وكان حديثه من القلب بغير تحفظات .

وقلت له :

– إنني لا أتصور كيف لم ألتق بك من قبل ، ولك هذا الدور البارز في آسيا ، وأنا زائر دائم العودة إليها بانتظام ؟ » ..

وقال الشيخ مجيب ضاحكاً :

– التفسير بسيط ... لأني كنت في السجن معظم الوقت ... كنت أخرج من السجن لأعود إليه وذلك حال بيني وبين لقاء أصدقاء كان يجب أن ألقاهم » .

وأضاف الشيخ مجيب :

– لكن شعبي كان يعرف طول الوقت أين أنا ـ كما أنني كنت أعرف طول الوقت أين هو » .

واستطرد :

– لكن وجدت الفرصة مرة ما بين سجن وسجن لأسافر إلى القاهرة وأزور مساجدها ... وكان من آمالي أن أقابل جمال عبد الناصر ولكن الفرصة فاتتني ،وقد بكيت بحرقة عليه » .

* * *

وواصل الشيخ مجيب كلامه :

– لقد خضنا نضالاً طويلاً وقاسياً .

في العصر الحديث ظللنا في ثورات ضد البريطانيين لمائتي سنة ، وكانت البنغال معقل كل ثورات الهند ضدهم .

وفي الخمس والعشرين سنة الأخيرة فقد كان نضالنا مع الأسف ضد السيطرة الباكستانية . لقد وجدنا الحلم الذي قاسينا لتحقيقه يتبخر من أول يوم بعد الاستقلال ورأينا أنفسنا أمام حقيقة مؤلمة حاولنا أن نتناساها في كثير من الأحيان ولكنها في النهاية فرضت أحكاماً علينا .

قد تذكر أننا نحن ـ البنغاليين ـ أصحاب الدعوة إلى ضرورة استقلال المسلمين في الهند ، وفي مؤتمر لاهور سنة ١٩٤٠ ، فإننا نحن الذين قدمنا إلى الكونجرس اقتراح التقسيم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ومنذ البداية كان رأينا وهذا موجود في اقتراحنا الأصلي أن تكون هناك عدا الهند في وسط قلب القارة دولة إسلامية لها جناحان لكل منهما استقلاله الذاتي في الغرب وفي الشرق » .

وتوقف البانجوباندو وقال :

– إنكم هناك في الشرق الأوسط لا تعرفون شيئاً عن كفاحنا . . لا تعرفون ظروفنا ، لا تعرفون حقائقنا ، بينما نحن نعرف عنكم كل شيء .

أنتم لا تعرفون ماذا فعلنا لكي نقنع الحكم في باكستان بضرورة الاستقلال الذاتي لكل من جناحي الدولة الإسلامية في باكستان لقد ناضلنا وكانت لنا ثورات عارمة سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٩ وسنة ١٩٧٠ .

كان نضالنا مستمراً .

إن هناك ١٥٠٠ ميل تفصل بين باكستان في الغرب وما كان اسمه باكستان في الشرق ـ وهو الآن بنجلاديش ـ ولم نكن نريد الانفصال الكامل وهم أيضاً لم يركزوا على وجود دولة واحدة .

إننا لم نكن سوياً في دولة واحدة بل إنهم كانوا يعاملوننا على أساس

أن نكون مصدراً للمواد الخام لهم وسوقاً لتصريف منتجات مصانعهم .

لو عرفتم ما واجهناه منهم بعد ٢٥ مارس سنة ١٩٧١ لظلت الدموع في عيونكم سنوات طويلة » .

وبدا الأسى على ملامح الشيخ مجيب :

- لماذا يتردد العالم العربي الإسلامي في الاعتراف بنا ..

العالم كله اعترف بنا .

إلا إخواننا العرب المسلمين .

لماذا لم تعترفوا بنا ؟

إن بنجلاديش ما زالت أكبر دولة إسلامية من ناحية التعداد ، ٧٥ مليون إنسان مسلم ..

انفصلنا من الباكستان ...

نعم انفصلنا ... !

هل كان أمامنا سبيل آخر ؟

ثم هل يمكن أن يكون انفصالنا عن الباكستان خطأ في حق ديننا .. ؟

من قال ذلك ؟

هل كان في وسعنا أن نبقى دولة واحدة بعد مذبحة سنة ١٩٧١ .. ؟

لقد قتلوا من شعبي ٣ ملايين،٣ ملايين مسلم .

هل الجريمة هي أن أطالب بحق الحرية لشعبي .. أو أن الجريمة هي قتل ٣ ملايين مسلم ؟

أريد أن أسأل

إن عدد بناتنا اللاتي اعتدي عليهن ٢٠٠ ألف فتاة .

لدي ألوف من الأطفال غير الشرعيين .

هل ذلك هو الإسلام ؟

هل يمكن لمسلمين أن يفعلوا ذلك .. هل يمكن لمسلمين أن يقبلوه ...
كان في استطاعتنا أن نبقى بعده دولة واحدة بصرف النظر عن تاريخ طويل سبق المذبحة .

إن التنمية في باكستان الغربية قامت كلها على أساس استغلال موارد باكستان الشرقية .

هل هذا عدل ؟

عندما كنت في كراتشي ورأيت العمران فيها قلت لهم :

- هذا كله من ثرواتنا ومع ذلك بورك لكم فيه .. ولكن الوقت قد حان لتتركونا نفعل شيئاً لأنفسنا .. أليس لنا الحق ؟ » .

* * *

وبدا الشيخ مجيب منفعلاً بحزن ...

وواصل حديثه :

- قيل لي إن الرئيس ذو الفقار علي بوتو - رئيس باكستان - حصل على وعد من بعض رؤساء الدول العربية التي زارها بأن يؤخروا اعترافهم ببنجلاديش حتى تعترف بها باكستان أولاً ؟

لماذا تفعلون ذلك معنا ؟

بالنسبة لنا أنتم مصدر الضياء ... أرضكم مهبط القرآن .

بالنسبة لنا أنتم النضال الذي ألهمنا سنوات طويلة .

بالنسبة لنا أنتم الأقرب إلينا...

تتركون العالم كله يعترف بنا ... وأنتم تنكرون علينا اعترافكم ... والعالم كله حاول أن يتوسط بيننا وبين الباكستان لحل مشاكل معلقة وأنتم الأولى بالوساطة .

هل ستعود عجلة التاريخ إلى الوراء وتختفي بنجلاديش ... ؟ لن يحدث ؟

هل كان أمامنا سبيل غير ما فعلنا ؟ ضعوا أنفسكم مكاننا .

لم نكن نريد التعجيل بالانفصال ... كنا نريد حقنا في الحرية وفي التنمية ، وأظهر شعبي إرادته في انتخابات حرة ، وكان يجب أن أصبح حاكم باكستان كلها بمقتضى الشرعية .

وتظاهر يحيي خان بأنه يتفاوض معنا على حل لأزمة دستورية لم نعرف لها سبباً إلا أنهم لم يستطيعوا قبول إرادة الشعب ، ومن جانبي فإنني لم أكن أريد أن أصبح حاكماً لباكستان كلها ... كان أملي أن أفعل شيئاً لشعبي هنا وأن أخدمه وأضع ثقته بي في مكانها . .

بينما نحن نتفاوض وضعوا العراقيل بعد العراقيل وكانوا يحشدون قوات الجيش الباكستاني تحت قيادة الجنرال تيكا خان .

دعوت شعبي إلى المقاطعة .

لم يكن معقولاً أن يتولى عمالنا تفريغ الأسلحة والذخائر التي جاءت بها البواخر إلى ميناء « شيتاجونج » لتستعمل ضدنا ... ضدهم .

هل كان هذا عصياناً ... أم أنه كان نوعاً من الدفاع عن النفس ؟

ظلوا يراوغون حتى ليلة ٢٥ مارس .

ونزل الجيش إلى الشوارع بمدافعه ودباباته وبدأت المذبحة .

قبضوا علي ونقلت إلى زنزانة سجن في باكستان الغربية وكنت أقدر ما سوف يحدث لشعبي ولكني لم أتصور أن الأمور سوف تصل إلى هذا الحد ...

هل تتصور ٣ ملايين قتيل في عشرة شهور ... رجال ونساء وأطفال .

هل تتصور هتك عرض ٢٠٠ ألف فتاة بعضهن انتحرن من العار وبعضهن همن على وجوههن في المدن والقرى غير قادرات على العودة لأسرهن » .

قلت للشيخ مجيب :

– ألا تعتقد أن هذه الأرقام مبالغ فيها ؟

إن رقم الملايين الثلاثة يبدو بالنسبة لي مستحيلاً ... حتى لو لم يكن للجيش الباكستاني من هم طوال هذه الشهور العشرة إلا القتل المنظم ؟ » .

وقال الشيخ مجيب :

– قدر كما تشاء ...

نصف هذا الرقم لا يحتمل ... ربعه لا يحتمل ...

ثم دعني أسألك :

– هل سمعت عن عملية القتل بالاختيار عندما أدرك الجيش

الباكستاني أنه سوف يرغم على الاستسلام ؟ ...

القصة معروفة فقد أخذوا كل أساتذة الجامعات ... كل كبار الأطباء ... كل مشاهير الكتاب ... قتلوهم جميعاً ووجدنا جثثهم في حفرة ضخمة .

وكان قولهم :

« لن نترك لكم أحداً يستطيع أن يسهم في بناء بنجلاديش التي تتحدثون عنها » .

طبيب قلب مشهور قتلوه وأخرجوا قلبه من صدره .

أحد أصدقائي وكان من أحسن كتاب البنغال ـ شرف الدين حسين ـ قتلوه أيضاً بعد أن دمروا جريدته .

صديق آخر لي هو « فضل ربي » خلعوا عينيه بعد أن قتلوه .

من المستشفى أخذوا ٦٧ طبيباً وقتلوهم ...

لماذا ؟ ... لماذا ؟ » .

وبدا انفعال البانجو باندو عارماً وقلت له :

– إنني سمعت عن مذبحة الصفوة ورأيت آثارها وشواهدها وما زلت حائراً في فهم الدوافع النفسية التي يمكن أن تؤدي بأخ إلى أن يفعل ذلك بأخيه » ..

وقال الشيخ مجيب :

– ولا أنا أعرف .

ولكني أسألك : هل ذلك من الإسلام في شيء ؟

لقد ذهبوا إلى قريتي وقبضوا على أبي وعمره أكثر من ثمانين سنة وقتلوا عدداً من أفراد أسرتي أمامه ... لماذا ؟

ليست هناك أسرة في بنجلاديش كلها لم تفقد واحداً من أفرادها في هذه المذبحة ... هل يعقل ذلك ؟

لقد وجدنا ٢٠ مليوناً من شعب بنجلاديش هاربين من بيوتهم يبحثون عن الأمان في أي مكان .

كان لدينا ما بين عشرة إلى اثني عشر مليون لاجئ عبروا الحدود إلى الهند .

لقد كان ذلك هو السبب الذي دفع الهند إلى التدخل .

ثم إننا دعوناها ... هناك روابط قديمة بين شعوبنا ... هناك أفراد من شعب البنغال يعيشون في الهند وإن كانت لهم ظروفهم الخاصة » .

وتذكر الشيخ مجيب شيئاً وقال :

– أكثر من ذلك

دمروا ٦٠٠ جسر على أنهارنا .
نسفوا كل عربات السكك الحديدية .
أحرقوا كل أوراق النقد .

سحبوا كل أرصدة العملات الأجنبية التي كانت هنا .

حتى الوثائق الرسمية في دور السلطة والحكم اختفت حتى لا تعرف بنجلاديش لنفسها رأساً أو قدماً .

أسألك لماذا ؟

كل ذلك وأنتم هناك في العالم العربي الإسلامي لا تفعلون إلا أن تجاملوا باكستان .

نحن لا نطالبكم بأن تقفوا ضدها ... ولكن نطالبكم بأن تدرسوا الحقيقة وتجيئوا كإخوة لنا جميعاً وتحكموا بيننا .

أنت لا تعرف مدى الجرح الذي نشعر به أحياناً من موقفكم معنا ... حتى في بعض المسائل العادية » .

قلت للشيخ مجيب :

– إنني سمعت من وزير خارجيتك عن مثال لذلك حين طلبتم من المملكة العربية السعودية تصريحاً خاصاً لحجاجكم ... لأنهم لا يعترفون بجوازات سفر بنجلاديش ...

ردوا على طلبكم بالاعتذار وكان ردهم عن طريق الهند » .

قال الشيخ مجيب :

– الأمثلة كثيرة .

ولا بد أن أقول لكم إنني أحياناً لا أفهم ، ولكني دائماً لا أيأس » .

* * *

قلت للشيخ مجيب :

– إنني أريد أن أكون منصفاً

قد تذكر أنهم في باكستان الغربية ثاروا هم أيضاً على نفس الحكم الذي ارتكب هذه المذبحة » .

وقال الشيخ مجيب بسرعة :

– لا إن الثورة عليه جاءت من حقيقة أنه فشل وانهزم في الحرب ».

قلت :

– إن التفرقة بين السببين قد تكون صعبة وفي ظني أن شعب الباكستان برغم أن حقيقة ما حدث لم تصل إليه كاملة واجه أزمة ضمير .

إن الرئيس بوتو قابلك بعد توليه السلطة وأصدر قرار الإفراج عنك ».

وقال الشيخ مجيب :

– ذلك حدث ، ولكن لا بد أن نسلم أنه لم يكن لديه سبيل آخر كان يعرف أن هناك ٩٢ ألف أسير باكستاني في بنجلاديش وأن أي مساس بي سوف يعرضهم للخطر .

لقد قال لي بوتو عندما التقيت به إن لديه متاعب وإنه يريد وقتاً للتغلب عليها ، وإنه يعرف من صميم قلبه أنه فقد بنجلاديش،وطلب مني أن أعطيه فرصة من الوقت ليرتب نفسه .

كان يريد أن يتفاوض معي ، وقلت له : لا أتفاوض معك وأنا في سجنك .

وصممت على أنه ليس في استطاعتي أن أقول كلمة واحدة إلا بعد أن ألتقي بشعبي .

ولقد مضى وقت طويل،فلماذا لم يعترف ببنجلاديش ؟ » .

قلت :

– لديه مشكلتان فيما أتصور مشكلة أسرى الحرب ... لديه عندك وعند الهند ٩٢ ألف أسير وكلهم أو معظمهم من السند والبنجاب وعائلاتهم تضغط عليه .

ثم إن هناك مشكلة محاكمة مجرمي الحرب كما تسمونهم وبينهم الجنرال نيازي .

ثم إن هناك أيضاً قضايا اقتصادية لا بد من تسويتها ومن أهمها قضية الديون الخارجية » .

وقال الشيخ مجيب :

– إذا كان لم يعترف بنا فكيف أوافق على إطلاق سراح أسرى الحرب ؟ ... هل نوافق على ذلك لكي تسهل عليه عملية إعادة بناء جيشه والعودة لقتالنا ؟

ثم أليس عدلاً أن نحاكم بعض من ارتكبوا جرائم ليس هناك ما يبررها ؟

والقضية الاقتصادية كقضية الديون الخارجية ، لماذا تقف عقبة ضد اعترافهم بنا ؟

إن الهند وباكستان بعد أكثر من ربع قرن من انفصالهما ما زالت بينهما قضايا معلقة من أيام وحدة كل الهند ولكن هذه القضايا لم تمنع اعتراف كل منهما بالآخر وسيادته » .

قلت للشيخ مجيب :

– إن موضوع المحاكمات قد يثير شجوناً لا داعي لها ... وقد يتعرض الرئيس بوتو لضغوط من الجيش الباكستاني بسببها ... ثم إن هناك نقطة ما زال كثيرون يذكرونها من أيام محاكمة مجرمي الحرب من النازيين في نورمبرج وهي أن الذين ارتكبوا فظاعات القتل بالجملة كانوا ينفذون أوامر صادرة إليهم من سلطات شرعية لا يملكون غير طاعتها » .

وقال الشيخ مجيب :

– هل كان هتك الأعراض بالجملة أوامر من سلطة شرعية لا بد أن تطاع ؟ ... هناك مذابح أستطيع أن أقبل مرغماً هذا المنطق فيها ... ولكن هناك تصرفات أخرى يستحيل علي فيها أن أقبل هذا المنطق » .

قلت :

– النتيجة أن العلاقات بين باكستان وبنجلاديش حتى إذا توافرت النوايا الطيبة سوف تبقى دائماً أسيرة للماضي .

ألا تستطيع أن تقفز إلى المستقبل ؟ » .

قال الشيخ مجيب :

– هناك بالفعل أزمة ثقة ، لكن هذه الأزمة لا بد لها من جسر ... كنا نتصور العالم العربي والإسلامي جسراً بيننا وبين باكستان نتغلب بواسطته على أزمة الثقة .

لكنكم تركتمونا وحدنا » .

قلت :

– في هذه النقطة لك الحق ... إنني أشعر أن بنجلاديش تواجه مشاكل لا تحتمل .

هناك مشاكل اقتصادية ... وهناك مشكلة الهيكل الاقتصادي الأساسي للبلاد وهو في حاجة إلى إعادة بناء ... وهناك مشاكل اجتماعية .

وكان العالم كله مهتماً بإغاثتكم في وقت من الأوقات لأن قضيتكم مست وجدانه ولكني أخشى أن اهتمام العالم الآن سيتحول إلى عملية

إعادة تعمير وبناء فيتنام بعد أن انتهت الحرب فيها » .

قال الشيخ مجيب :

– ذلك صحيح ... ولكننا نملك موارد طائلة طبيعية وبشرية .

لدينا مشاكل طاحنة ، لدينا أعلى نسبة كثافة للسكان في العالم ، ألف نسمة على الكيلومتر المربع الواحد ، ولدينا في نفس الوقت متوسط دخل للفرد مبالغ في تواضعه [عشرون دولاراً في السنة] ، ولكننا نستطيع بالعمل وبالتنظيم وبالوطنية البنغالية أن نتغلب عليها ..

لكن ذلك ليس هو ما نريدكم فيه .

ما نريده منكم ليس المعونة المادية ... نحن نريدكم بالقرب منا ... صديقاً في جو موحش » .

قلت :

– هل أسأل عن علاقتكم بالهند ... إنني سمعت كثيراً عن نشاط تجار كلكتا في تهريب الجوت من بنجلاديش أليس ذلك استغلالاً ... ألا تنشأ من هذا الاستغلال مضاعفات ... ثم أسألك أيضاً هل بقي جنود هنود في بنجلاديش ؟

هذه نقطة تثار دائماً » .

وقال الشيخ مجيب :

– علاقاتنا بالهند ممتازة ونحن لا نستطيع أن ننسى لهم ما قدموه لنا ، ولكن العلاقات بيننا هي علاقات بين دولتين مستقلتين ...

وإن تحدث مشاكل مثل ما تتحدث فيه عن تهريب الجوت فذلك محتمل ولكنه طبيعي ويجب أن يواجه في حدوده .

وأما عن الجنود الهنود ، فأمامك كل بنجلاديش ، اذهب حيث تشاء ، وإذا وجدت جندياً هندياً واحداً ، فلك أن تعلن ذلك على العالم » .

وشرد الشيخ مجيب ببصره إلى الحديقة عبر النافذة وراءنا وقال :

– كان لنا خطأ أساسي .

وهو أننا لم نخدم في الجيش .

إن جنودنا البنغاليين كانوا دائماً مصدر متاعب لضباطهم الإنجليز ، لأن شعورهم الوطني كان يجعلهم دائماً في صف الثورة .

وبدأوا يستغنون عن تجنيدهم في الجيش ، ويتجهون إلى البنجاب .

إن جنود البنجاب كانوا في الجيش البريطاني ، وحاربوا ضدكم : في ثورة ١٩١٩ في مصر ... حاربوا في السودان أيضاً ... في الصومال .

حسناً ... إننا لم نشترك في هذا كله .

لكن النتيجة أنه بعد الاستقلال كان الجيش كله من البنجاب ، ولم يكن لنا جيش من البنغال » .

قلت :

– لا تعط كل هذه القيمة للقوة العسكرية ... إن القوة العسكرية لها دورها ، ولكن التجربة الإنسانية أرحب وأغنى » .

قال الشيخ مجيب :

– أعرف ... ولكني أمام طرف لم يقرأ التاريخ » .

قلت له :

– ماذا قرأت أنت في التاريخ وماذا تعلمت منه ؟ » .

قال :

– لقد قرأت شيئاً من التاريخ ولكني لا أتعلم منه » .

قلت :

– إنني مندهش » .

قال :

– إنني أتعلم من قلبي ... قلبي هنا في صدري » [ودق على صدره] .

واستطرد :

– قلبي هنا في صدري ، وهو هنا يحب شعبي ، وهذا مصدر ما أعلمه وما أتعلمه » .

قلت :

– والصراعات المحيطة بك ... الصراع الصيني السوفيتي ... الصراع الصيني الهندي ... المنطقة من حولك حافلة بالصراعات الكبرى » .

قال :

– سندي الوحيد أمامها هو الوطنية البنغالية .

لا أريد أن أكون في جيب أحد ... أنا صديق للهند ، وصديق للاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة تحاول أن تمد يد الصداقة لنا ... وأنا عضو في الكومنولث لكني لا أريد أن ألعب لعبة القوى الكبرى » .

قلت :

– ما هي أبرز مشاكلك ... إنني سألت نهرو مرة عن مشاكله وقال لي : بعدد سكان الهند ... لدي الآن ٣٦٠ مليون مشكلة [كان ذلك تعداد شعب الهند وقتها] .

قال الشيخ مجيب :

– نهرو كان فيلسوفاً ... أنا رجل بسيط ... عادي ... مشكلتي هي إحساسي بعذاب شعبي » .

قلت :

– هل أستطيع أن أحدثك عن شيء شعرت به ...

لقد شعرت بأن هناك نزعات انتقام حبيسة في قلوب كثيرين ... إنني سمعت عن أعمال عنف تجري خارج داكا ... إن كثيرين نصحوني بألّا أتجول بالليل في داكا ، لأن ذلك خطر .

إنني أخشى نتيجة لإحساس شعبك بالمأساة ، أن تغوص في أعماقه نزعات الانتقام » .

قال الشيخ مجيب :

– أفهم ما تقول ، لكن هذه مرحلة سوف تمر ... ولا بد أن تعرف أنها طبيعية » .

قلت :

– أعرف ...

وأتذكر شاعر البنغال العظيم « طاغور» يقول في مشهد من مسرحيته الشهيرة « الملك والملكة » :

« وقع الموسيقى في صليل السيوف » .

في المعارك الكبرى يتلاحم الخصوم الأبطال كما يتلاحم العشاق .

هذا هو الخلاص .

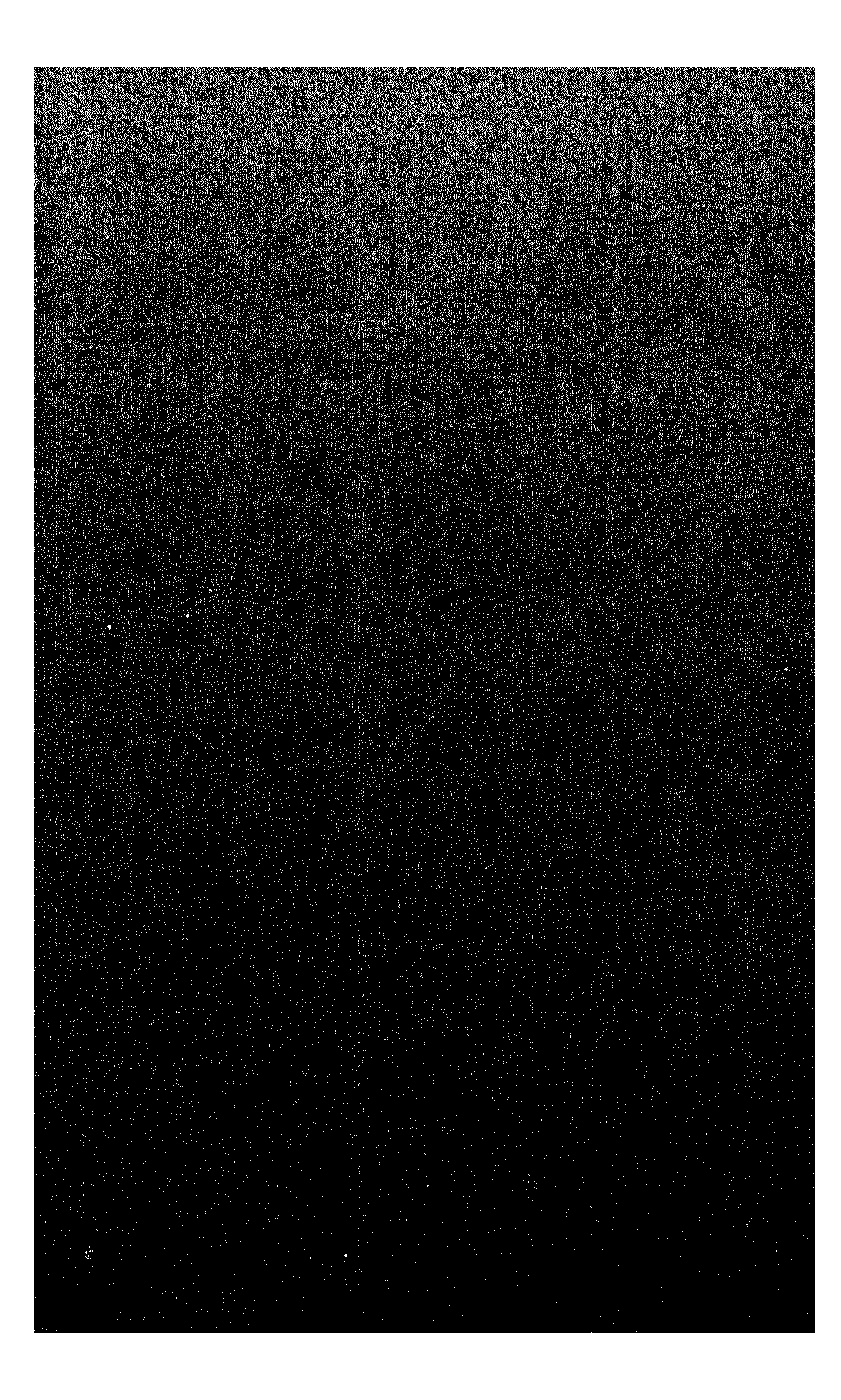
إن الانتقام أقوى نشوة من خمر الحب .

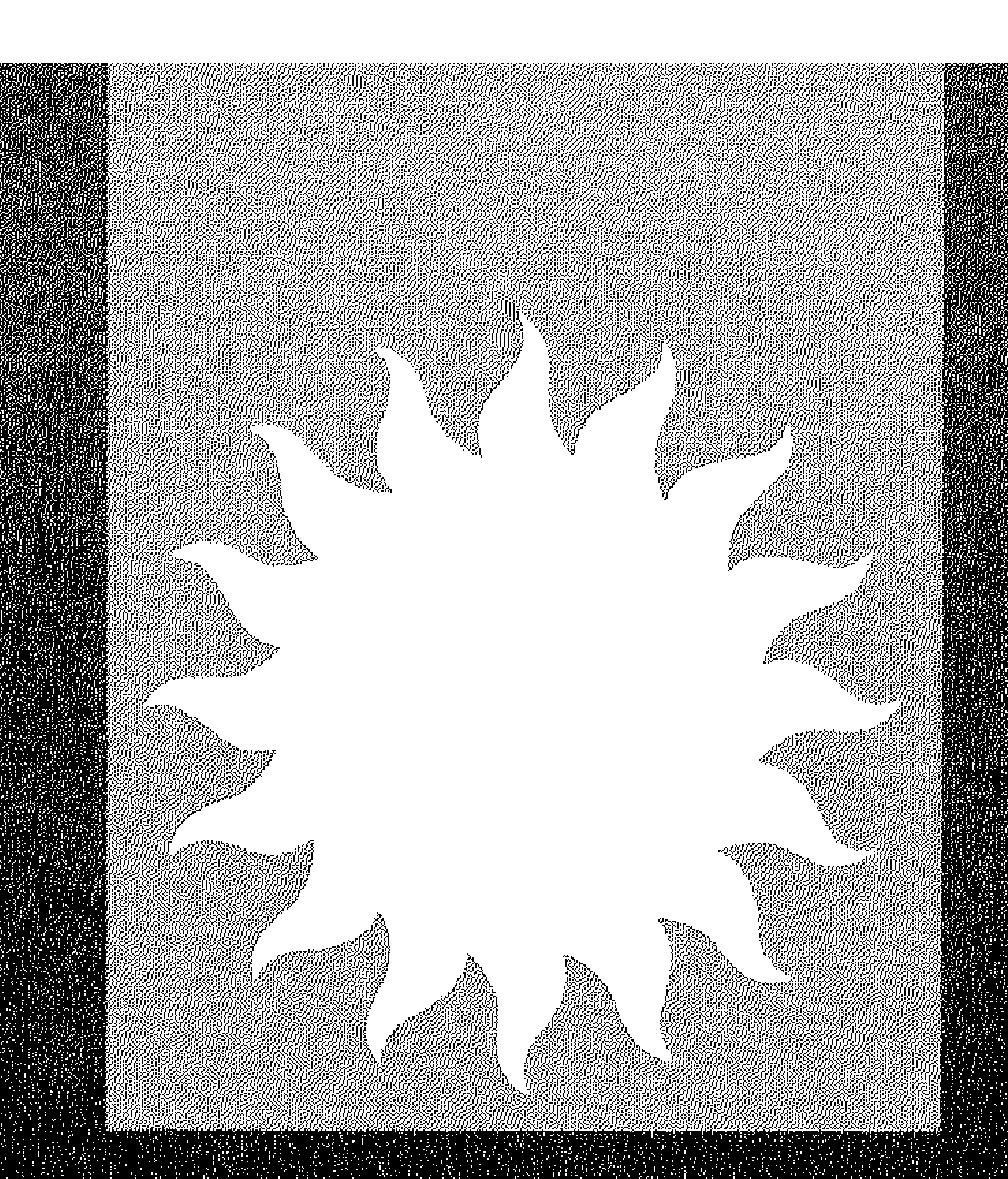
الانتقام هو الانطلاق والحرية.
إنه التحرر من أسر الرقة والحنان .

نار الحب مثل نار الحرب تضطرم ، وتحيل ما حولها إلى حريق ورماد » .

قال البانجو باندو :

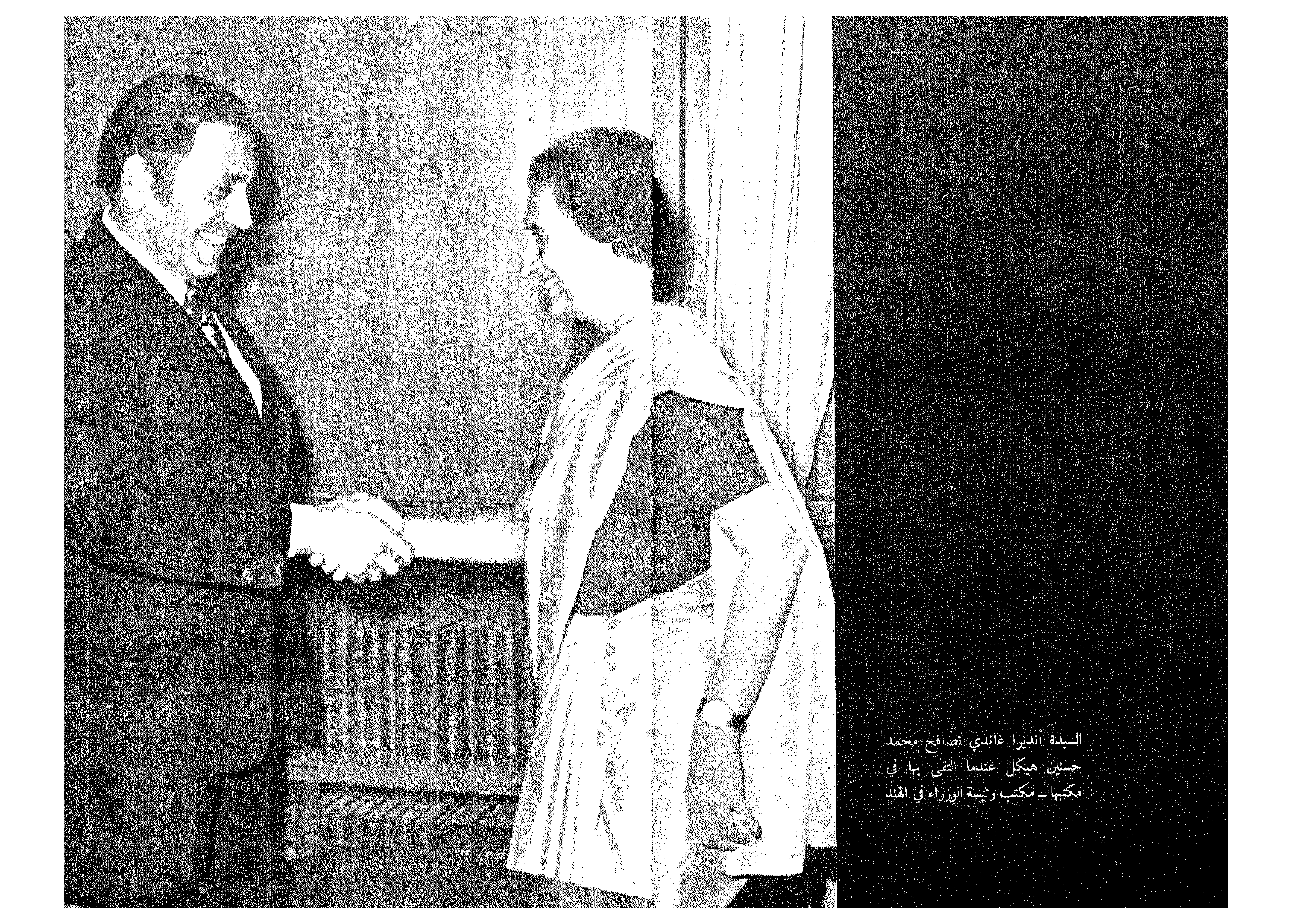
– لو فتحنا جميعاً قلوبنا لخرج كل الدخان والبخار المكتوم » .





مع

إمبراطورة الهند



السيدة أنديرا غاندي تصافح محمد
حسنين هيكل عندما التقى بها في
مكتبها ـ مكتب رئيسة الوزراء في الهند

طريق الهند لم يفقد سره أو سحره بالنسبة لي ، برغم أنني ذهبت عليه حتى الآن إحدى عشرة مرة .

وصحيح أن الهند ترزح على زائرها بشعور خاص لا يريح ... وكان « الماريشال أرشيبالد ويفل » وهو من أبرز القادة العسكريين في الحرب العالمية الثانية واختلف « تشرشل » معه فعينه نائباً للملك في الهند ـ يقول في وصف هذا الشعور :

ـ هناك شيء خاص لا تستطيع أن تفلت منه في الهند ، حينما تصل إليها تشعر أن يداً خفية قد أمسكت بقبضتها على مؤخرة رقبتك ... ثم يظل معك هذا الإحساس الغريب ، لا يفارقك حتى تفارقها » .

ذلك صحيح ... شعرت وأشعر به دائماً .

ولكن الصحيح أيضاً أن هناك أشياء كثيرة تشدني إلى الهند بجاذبية

غلابة لا يقاوم تأثيرها :

تاريخها وحضاراتها ، أديانها وفلسفاتها ، مآسيها وصراعاتها ، شعوبها وطوائفها ، ملوكها ومهراجاتها وشعراؤها وعشاقها ...

وذلك المزيج الغريب من الغنى الفادح والفقر القاتل ، والسلام والاستسلام ، والهدوء الظاهري والعنف الكامن ...

ثم تلك المشاهد واللوحات المثيرة للمعابد والآلهة والأساطير والصلوات الخائفة من إله الانتقام : شيفا وهو يبسط ظله القاتم على روح الهند كلها !

... لكن الهند الحديثة ــ برغم كل مشاكلها وأثقالها ــ فيها ما يستحق الإعجاب أيضاً :

* هناك ذلك الأمل المستمر في إمكان عمل « شيء ما » في الهند تتغير به حياة خمسمائة مليون من البشر على أرضها ويصلون به إلى الخلاص أو بالقرب منه برغم أعباء قرون من التخلف والفقر والاستغلال والضياع في بخور الغيبيات .

* هناك أن الجماعات التي قادت حركة الاستقلال الوطني ما زالت هي التي تمسك بزمام التطور متمثلة في زعامة جواهر لال نهرو ، ثم أنديرا غاندي ابنة جواهر لال نهرو ، وبرغم أزمات عمل وأزمات ضمير فإن هذه الجماعات ما زالت تمسك بأقدار الهند تقودها مع أن أسباب التشاؤم تكاد تغلب في معظم الأحيان أي سبب للتفاؤل .

* هناك أن الجماعات الحاكمة أدركت ــ لأنها كانت متعلمة ــ أهمية وجود جهاز اداري متماسك في الهند ، ومن هنا فإنها لم تضرب قمم هذا الجهاز ولم تكسر معنوياتها ولم تخلع قلبها من الخوف ، وهكذا

فإن قمم هذا الجهاز الإداري أصبحت إلى جانب القيادة السياسية طرفاً في حوار مفيد ، ويداً قادرة على أن تساعد في العمل بقدر ما يمكن أن تتاح للعمل فرصة في ظروف الهند .

* هناك أيضاً أن الجماعات الحاكمة ، وهذا إسهام خاص لجواهر لال نهرو ، فهمت لأنها مستنيرة بعض مطالب العصر ، سواء استطاعت الهند أن تلحق بها في الموعد المناسب أو لم تستطع ـ ومن هنا كان الاهتمام الكبير ـ إلى جانب التخطيط والتصنيع ـ ببعض فروع العلم وبالذات في مجالات الذرة والفضاء ... ولست أشك في أن الهند قادرة على صنع قنبلتها الذرية في ظرف سنة واحدة من صدور القرار السياسي بذلك وإن كانت التكاليف تفرض على القيادة أن تفكر مرتين قبل القرار .

* هناك أخيراً تجربة الديمقراطية في الهند ، ولقد يقال الكثير عن مظاهر الفساد والاستغلال خصوصاً بواسطة مليونيرات الهند « طاطا » و « برلا » وغيرهما ، أو الضغط والقمع خصوصاً من جانب حكومات الولايات في الهند ـ ولكن الحقيقة التي تبقى برغم كل شيء هي أن الديمقراطية في الهند ما زالت لها فرصة ثم إن عجلتها ما زالت تدور ، رغم أن أنينها يكاد يسمع عالياً في بعض الأوقات والظروف .

* * *

ومنذ عدة سنوات والسؤال الكبير المعلق فوق آسيا ووراءها هو :

ـ هل تسقط الهند ؟ » .

وكان بعض خبراء السياسة والاجتماع في العالم يرون أن طرح السؤال على هذا النحو فيه كثير من خداع النفس بالآمال الكاذبة ، وكان رأيهم أن السؤال الذي يجب أن يطرح هو :

ـ متى تسقط الهند ؟ »

أي أن سقوط الهند في رأيهم لم يكن يحتمل السؤال « بهل » ، وإنما سقوطها حتمي،والشيء الوحيد المعلق فيه هو : « متى » .

ومثل هذا السؤال « بهل » أو «بمتى » ليس مسألة بسيطة وإنما الإجابة عليه سوف تكون تغييراً واسع المدى في الموازين الدولية ، ذلك أن سقوط الهند على أي ناحية سوف يغير صورة آسيا كلها،وأي تغيير كبير في صورة آسيا سوف يؤثر بدوره على الميزان العالمي كله .

ربما من هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً اختارت سفراء لها في دلهي من أساتذة العلوم السياسية والاقتصاد والاجتماع : « تشستر بولز » في عصر « كينيدي » ، ثم « جالبريت » في عصر « جونسون » وأخيراً « موينيهان » في عصر « نيكسون » .

* * *

وذهبت للمرة الحادية عشرة على طريق الهند .

لم تكن الهند ـ خلافاً لكل التوقعات ـ قد سقطت ... أكثر من ذلك فإنها كانت قد حققت نجاحاً استراتيجياً كبيراً .

كان لها عدوان :

ـ باكستان على الجناحين في الغرب والشرق .

ـ والصين على رأسها تطل من فوق قمم جبال الهملايا .

واستطاعت الهند أن تصفي حساباتها مع باكستان ، وساعدت على استقلال شرق باكستان عن غربها تحت اسم بنجلاديش ، ثم تمكنت

في نفس الوقت من توجيه ضربة عسكرية إلى غرب الباكستان .

[وقد أتحفظ بسرعة إلى القول بأنني لا أنحاز مع الهند ضد باكستان فهذه الأخيرة لأسباب عديدة عزيزة علي . ولكن الواقع الطبيعي والسياسي شيء ومشاعر الإعزاز مهما كانت أسبابها شيء آخر] .

هكذا تخلصت الهند ـ التي كان سقوطها متوقعاً ـ من كابوس الخطر الزاحف عليها من جبهتين ... ولم تبق أمامها إلا جبهة واحدة : الصين .

ولعبة التوازن الدولي تدفع الهند دفعاً إلى وضع يعمق ويرسخ تناقضاتها مع الصين ... ذلك شيء تريده الولايات المتحدة ويريده الاتحاد السوفيتي ـ ولكني أشعر أن الهند في صميمها تتمنى لو وجدت فرصة لتصفية نزاعها مع الصين ، لأن الحكمة المترسبة في أعماقها تهمس في وجدانها صباح مساء بأنه لا سبيل أمامها إلا سبيل الوفاق مع الصين برغم غواية مساعدات تستطيع الحصول عليها من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إذا استمر صراعها مع الصين ...

وربما كان ذلك هو الخيار الخطير الذي يواجه صناع القرار السياسي في الهند الآن !

* * *

ولقد كان أول الأسئلة التي أردت أن أحصل على إجابة لها هذه المرة في الهند هو :

ـ «ماذا فعل الانتصار الاستراتيجي ـ ولا أسميه العسكري ـ بروح الهند وإلى أي مدى أثر فيها وعليها ؟ » .

وهكذا رجوتهم في تحديد مواعيد مقابلات تمنيت لو أمكن ترتيبها

قبل أن أصل إلى دلهي .

كانت لدي فيها ثمان وأربعون ساعة لا تزيد وقلت :

ـ إنني أريد أن أقابل رئيسة الوزراء أنديرا غاندي ، وقائد جيشها وقت الحرب مع باكستان الفيلد ماريشال مانيكشو ، ثم وزيري الخارجية والتخطيط » .

وكان ردهم من دلهي ـ رقيقاً وكريماً ـ أن ما طلبت سوف يتم ترتيبه لكن لديهم بدورهم طلبات في خلال ساعاتي الثماني والأربعين في دلهي .

كانوا يريدونني لإلقاء محاضرة وإدارة حوار في معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية بجامعة جواهر لال نهرو في موضوع يشغلهم وهو :

ـ أين ذهبت العلاقات التقليدية بين الهند ومصر ، وأين الصحبة التي كانت تجمع البلدين على سياسة عدم الانحياز ، وما هو مستقبل العلاقات ـ على هذا النحو ـ بينهم في شبه القارة الهندية ـ قلب آسيا ـ وبيننا نحن هنا في الشرق الأوسط ـ غرب آسيا على حد تعبيرهم ؟ » .

ثم كانوا يريدونني لحوار مفتوح في التلفزيون يذاع على محطات عموم الهند موضوعه هو :

ـ لماذا تقف الهند دائماً إلى جانب الأمة العربية في كل صراعاتها ولا تقف الأمة العربية مع الهند في أي من صراعاتها ؟ » .

ولم يكن أمامي ـ راضياً ـ غير أن أطيع !

* * *

ووصلت بي طائرة الليل قادمة من داكا إلى دلهي ـ ووجدت في انتظاري على مطار « بالام » الصديق س . ك . سنج مستشار رئيسة الوزراء ، وكان يحمل في يده نسخة من برنامج ساعاتي في دلهي .

وقال لي سنج :

ـ إنها ـ رئيسة الوزراء ـ سوف تكون أول من تقابله هنا ... كان هذا رأيها ، وبعد أن تراها فإنك سوف تستطيع استكمال الصورة التي تريدها بطريقة أفضل خصوصاً أن وقتك هذه المرة في الهند محدود » .

وأضاف سنج برقة دبلوماسي يمسك بما يريد على أطراف أصابعه :

ـ هناك اقتراح آخر .

إننا غداً سوف نحتفل بمرور ربع قرن على وفاة غاندي .

وسيبدأ الاحتفال من الصباح الباكر .

ومع أنك قادم في الليل المتأخر فلقد ترى أن تكون معنا في هذه المناسبة » .

وأضاف سنج :

ـ إنها سوف تكون هناك ... وسوف تشترك في الصلاة » .

وقلت لسنج :

ـ إنني أذهب في أي وقت وإلى أي مكان من أجل غاندي ... ثم إنني أريد أن أرى إمبراطورة الهند وهي تصلي » .

ونظر إلي سنج بفضول،وقلت :

ـ بعد انتصاركم في السنة الماضية كانت صحافة الغرب تطلق على أنديرا غاندي وصف « إمبراطورة الهند » باعتبارها الشخصية الطاغية على شبه القارة الهندية » .

ثم أضفت :

ـ هذا دور أريد أن أراها فيه ... لقد رأيتها من قبل كثيراً ... رأيتها كابنة نهرو وكاتمة سره ، ورأيتها وزيرة ، ورأيتها خارج الحكم سيدة بيت تصب لضيوفها الشاي في مكتبة بيتها ، ورأيتها في رئاسة الوزارة عندما تولتها بعد فوزها على موراجي ديساي . . .

هذه المرة أريد أن أراها في دور إمبراطورة الهند . . . أريد أن أرى ماذا فعل الانتصار بها » .

وقال سنج :

ـ إذن سوف أمر عليك لأخذك إلى احتفال ذكرى غاندي في الساعة السادسة صباحاً . . . معنى ذلك أنك سوف تستيقظ في الفجر » .

* * *

كان البرد قارساً على شاطئ نهر الجانج حيث ساحة غاندي .

نفس المكان الذي تلقى فيه القديس رصاصات قاتل عصر ذات يوم منذ خمس وعشرين سنة .

كانت الأشجار العالية عاجزة أمام الرياح الباردة .

وكانت السماء ملأى بسحب تمتص كل شعاع دفء تبعثه الشمس وتلفه فلا يظهر منه إلا خيوط ولمسات في لون الورد .

وكان هناك آلاف هرعوا للصلاة من قبل الفجر .

وكان هناك عشرات يطوفون حول نصب الحجر المربع الذي يحمي رفات قديس الهند .

وكانت أواني البخور الهندي تطلق دخانها للهواء معبقاً بروائح الهند ذاتها مختلطاً بأريج الزهر .

وكانت فرق المنشدين بالطبل والناي وآلات الوتر الوحيد على جانبي النصب الحجري .

وطفت مع سنج حول النصب الحجري .

ثم قادني سنج إلى الصف الأول حيث وجدت نفسي جالساً بجوار « جوبال سواراب باتاك » نائب رئيس جمهورية الهند وكان هناك على جانبه الآخر مكان خال . . . لإمبراطورة الهند عندما تجيء للصلاة على قديس الهند .

كنا جالسين على الأرض التي فرشها فوق الرخام سجاد نحيل ، وكان صقيع الرخام ينفذ إلى أصابع أقدامنا التي خلعنا عنها الأحذية عند مدخل ساحة غاندي ، وطلب « باتاك » ـ نائب رئيس جمهورية الهند ـ بطانية يلف بها قدميه ولم أحسد أحداً في حياتي على غطاء ، ولكني ساعتها كنت أحسد « باتاك » على بطانيته .

وكانت مراسم الصلوات قد بدأت وبينها قراءة نص الجيتا ـ الكتاب المقدس للهندوس ـ من أوله إلى آخره وهو يستغرق بالترتيل أكثر من ساعتين .

وظهرت على المشهد حركة مفاجئة بدا منها أن إمبراطورة الهند في الطريق .

ووصلت أنديرا غاندي وحدها بلا حرس ولا حاشية ، ودخلت في صمت تتربع في مكانها وتخرج من حقيبة يدها نسخة من الجيتا ونظارة ثم تروح ترتل بشفتيها وبغير صوت مسموع وكان الترتيل لحظتها قد وصل إلى مقطع يقول :

« فلترحبوا بكل الكبرياء والسرور والألم .

بما قد يجيء إليكم من مغانم أو من خسائر .

ولتقابلوا ما تجيء به الأقدار من نصر أو هزيمة .

هكذا تكونون قد برئتم من الخطايا » .

ومضت التراتيل بعدها ساعة ونصف الساعة .

الرياح والصقيع وأريج البخور وعطر الزهر والطبل والناي والوتر الوحيد .

ثم انتهى الاحتفال بذكرى القديس أخيراً ونهضت الإمبراطورة ونهضنا جميعاً وقالت أنديرا غاندي وهي تبتسم :

ـ كان ذلك درساً إجبارياً لك عن « الجيتا ! » .

واستطردت تقول :

ـ سوف أعود الآن إلى البيت لأغير ملابسي ثم نلتقي في مكتبي بعد ساعة .

* * *

ودخلت مكتبها في مقر رئاسة الوزراء على حافة قصر «راشتراباتي بهافان » وكانت قد خلعت الساري الرمادي الذي كانت ترتديه في

الصباح تحت معطف أسود ، وارتدت سارياً أبيض اللون بخيوط ذهبية دقيقة وفوقه « بلوفر » من الصوف الأحمر .

وجلست على مكتبها وجلست أمامها على الناحية الأخرى من المكتب .

وراحت تبحث في درج المكتب عن علبة لحبوب مطهرة للزور ، ودقت الجرس تطلب كوب ماء ، ثم دست أنفها في منديل وقالت بصوتها الرقيق :

ـ كان البرد قارساً وقاسياً هذا الصباح ! »

وواصلت حديثها :

ـ أنت قادم هذه المرة لثمان وأربعين ساعة ... هل تستطيع أن تسمي ذلك زيارة للهند ؟ » .

قلت :

ـ للإنصاف لا أستطيع ... لا أستطيع أن أسميها زيارة ولكني أستطيع أن أسميها عملية مراجعة ... أظنني بشكل ما أعرف شيئاً عن الهند وهذه الزيارات السريعة تفيد في شيء أساسي ... إنها تضيف لمسات جديدة أخرج منها وكأنني ـ بتعبير صحفي ـ أحمل معي آخر طبعة لكتاب الهند !

وكانت تنظر ساكتة وقلت :

ـ منذ آخر مرة كنت فيها هنا حدث تطور كبير ... الحرب في شبه القارة الهندية ... قيام بنجلاديش ... انتصار على باكستان .

ولقد كنت أعرف ماذا فعلت المشاكل بالهند ؟

وهذه المرة أريد أن أعرف ماذا فعل النصر بالهند ؟

لست أخفي أنني أخشى على الشعوب دائماً من أوهام القوة العسكرية ... إنني أومن بالحرب العادلة، والحرب العادلة لا تكون إلا دفاعاً عن النفس ، ولم يكن واضحاً تماماً لي في حربكم مع الباكستان أنها كانت دفاعاً عن النفس .

ولعلي واحد من الذين يعتقدون أن بناء التقدم يحتاج إلى السلام كما أن الحرب لا تبني الحضارة ولعلها تؤدي إلى انهيارها .

هذه آراء لا أظنها غريبة عليك ... كان أكبر الداعين إليها أقرب الناس إليك جواهر لال نهرو » .

كان السؤال مشحوناً وكنت أعرف ذلك .

ولقد قصدته عن متابعة لشخصية أنديرا غاندي .

فيها ـ مثل ما كان في شخصية نهرو ـ نوع من التباعد الفكري يضاف إليه في حالتها هي نوع من الخجل الطبيعي بتأثير حياتها فترة طويلة في ظل عملاق عظيم تعلمت أن تجلس ساكتة تسمعه يتحدث إليها أو يتحدث إلى غيرها دون أن تتدخل . وليس هناك سبيل لإخراجها من هذا التباعد الفكري إلى التفاعل الفكري ... إلا بجهد محسوب !

* * *

وقالت أنديرا غاندي وقد بدا صوتها يعلو قليلاً وبحماسة :

ـ هناك أشياء كثيرة أريد أن أضعها في مكانها .

نحن أولاً لم نهاجم باكستان ... نحن لم ندخل في حرب غير عادلة .

لقد وجدنا حدودنا في الشرق تقع أمام زحف أكثر من عشرة ملايين لاجئ جاءوا إلينا من باكستان الشرقية بسبب المذابح التي وقعت هناك .

مجرد إطعامهم كان يحتاج إلى موارد تقصم ظهر الهند .

وفي الغرب كانوا هم الذين بدأوا بالهجوم على حدودنا تحت ظن أن ذلك الهجوم يخفف على جيشهم المحاصر في الشرق في بنجلاديش .

أما عن موقفنا نحن فدعني أسألك :

ـ أي قوة في التاريخ حققت انتصاراً كذلك الذي حققناه ثم انسحبت من الأرض التي احتلتها بعد شهور قليلة وبغير ضغط أو طلب من أحد ؟ !

قل لي أي قوة في التاريخ فعلت مثل ما فعلنا ؟ » .

واستطردت أنديرا غاندي :

لم يكن الأمر بالنسبة لنا عملية عسكرية انتصرنا فيها ونخشى أو يخشى أصدقاؤنا أن تؤثر في روح الهند وتفسدها .

إن هناك شيئاً جديداً في روح الهند ولكن الذي جاء بهذا الجديد ليس هو الانتصار العسكري وإنما هو شيء آخر » .

وراحت أنديرا غاندي تسأل نفسها :

ـ « شيء آخر . . . ماذا أسميه ؟ كيف أصفه بالضبط ؟ »

واستطردت :

ـ قد أستطيع أن أسميه أو أصفه بأنه شعور الثقة بالنفس . ولم تكن العمليات العسكرية هي التي جاءت به وإنما هذا الشعور هو الذي جعل

قبولنا للتحدي العسكري ممكناً :

أريد أن أقول إن الانتصار العسكري لم يصنع ثقتنا بأنفسنا .

ولكن ثقتنا بأنفسنا هي التي صنعت انتصارنا العسكري ، ورأيي أن أي انتصار عسكري محدود في قيمته .

المهم هو أن تكون لدى الشعب ثقة بنفسه .

من أين جاءت ثقتنا بأنفسنا ؟

أقول لك على الفور : جاءت من المشاركة . . . من إحساس شعب الهند أنه يشارك في صنع مصيره .

عندما يشارك الشعب يثق . . . وعندما يثق ينتصر .

إن التحول فيما أظن بدأ بانتخابات رئاسة الجمهورية . . .

كان المرشح الذي أيدته هو جيري رئيس الجمهورية الحالي ، وكان الشعب في الهند يحس أن نجاح « جيري » يعني انتصاراً لسياسة معينة تفتح الطريق لتحولات اجتماعية واسعة وعميقة في الهند .

كان انتخاب جيري مجرد اختبار للقوى في الهند .

وأحست جماهير شعب الهند بذلك .

لو أنك كنت موجوداً وقتها معنا لدهشت إلى أي درجة أحس الناس أن انتخابات رئاسة الجمهورية تعني ـ بالنسبة لهم مباشرة ـ شيئاً مهما .

ليست مجرد تغيير على قمة السلطة .

ولكن احتمالات تغيير في حياة الناس .

كان الصراع عنيفاً . . . وكان الاختيار مفتوحاً .

والاختيار وسط الصراع المفتوح والديمقراطي هو الذي يولد إحساس الناس بالمشاركة .

ما زلت أتذكر مشهداً وصفه لي صديق من أصدقائي كان في دلهي القديمة وقت إعلان نتائج انتخابات الرئاسة تباعا .

جاء وقت كانت فيه الأرقام تشير إلى تقدم جيري .

ثم جاء وقت بدا فيه أن منافسه يتساوى معه .

ومرت دقائق وكل شيء معلق في الميزان أمام الناس الذين كانوا يتابعون إعلان النتائج .

وبدا أن منافس جيري يتقدم عليه .

وإذا بمئات الناس يركعون على ركبهم للصلاة .

وبدأت أرقام « جيري » تصعد ثم بدا فوزه مؤكداً .

وانفجرت مشاعر الناس .

انتخابات الرئاسة كانت هي أول تجربة قريبة لإحساس الناس بالمشاركة المباشرة .

بعدها جاءت الانتخابات البرلمانية وتقدمت عن حزب المؤتمر بقائمة واكتسحت هذه القائمة كل ما كان أمامها .

ليس لشخصي وليس من أجلي . . . ولكن الناس كانوا يعرفون أن نجاح القائمة التي تقدمت بها يعني برنامجاً معيناً يؤثر تأثيراً مباشراً في

حياتهم ... تأثيراً يريدونه » .

* * *

واستطردت أنديرا غاندي :

ـ هذه هي المسألة ... ثقة الشعب بنفسه ... ثقته التي تأتي من إحساسه بأنه يشارك ... إحساسه بأن هناك برنامجاً معيناً يعبر عنه ... إحساسه بأنه يستطيع أن يجيء بالسلطة التي تتولى تنفيذ هذا البرنامج .

هذه هي المسألة .

وعندما تأزمت الأمور مع باكستان في الشرق والغرب فلقد كان أكثر ما حرصت عليه هو أن تبقى لشعب الهند هذه الثقة في نفسه » .

وسكتت أنديرا غاندي لحظة ثم استطردت :

ـ كان ذلك هو السبب في أنني عقدت معاهدة مع الاتحاد السوفيتي .

إن حرصي على استقلال الهند شديد .

وتمسكي بسياسة عدم الانحياز في دمي .

ولكني أحسست أن شعب الهند يبحث حوله عن صديق في ظروف صعبة .

باكستان يحكمها نظام عسكري مسلح .

الصين تؤيد باكستان لأسباب تخصها .

الولايات المتحدة تؤيد باكستان بحكم أحلافها معها .

شعب الهند بدأ يتصور أنه وحيد في العالم وخفت أن تتأثر ثقته بنفسه .

وهكذا عقدت معاهدة مع الاتحاد السوفيتي ... كان هدفي منها رمزياً بالدرجة الأولى وهو أن يعرف شعب الهند « أن لنا نحن الآخرين أصدقاء » .

إن المعاهدة لم تضف إلينا شيئاً لم يكن موجوداً عندنا قبلها .

والاتحاد السوفيتي لم يكن سيحارب معنا مهما ساءت الأحوال .

المسألة بالنسبة لي أن أقول لشعب الهند : « إن لنا صديقاً » .

لم أكن أريد أن تتأثر ثقة شعب الهند بنفسه بعد إحساسه بالمشاركة في صنع القرار السياسي وما يعنيه هذا القرار من تحولات اجتماعية » .

* * *

واستطردت أنديرا غاندي :

ـ هل سعينا إلى حرب مع باكستان ؟

لماذا نسعى إلى حرب مع باكستان ؟

لقد كنا أمة واحدة ، ثم جاء التقسيم ، وقد قبلناه عن طيب خاطر وحاولنا أن نتعاون ، وساروا في طريق وسرنا في طريق ، وجاء الحكم العسكري في باكستان يبحث لنفسه عن مغامرات يشغل بها الناس عن مشاكلهم الحقيقية .

وتحالفوا مع أمريكا .

وتحالفوا مع الصين .

هم أحرار فيما يقررون لأنفسهم ولكنهم راحوا يتحرشون بنا لغير سبب وحين عجزوا عن الاحتفاظ بباكستان الشرقية واختار شعبها أن

يستقل ببنجلاديش فإنهم لم يحاسبوا أنفسهم على أخطائهم وإنما أرادوا أن ندفع نحن نيابة عنهم ثمن الفشل ... هل هذا ممكن ؟

هكذا حدث ما حدث ... فأي ذنب لنا فيه ... وما الذي نستفيده من كسر باكستان » .

قلت :

ـ ربما قال بعض الناس إن الهند صفت حسابها مع جبهة ... حتى لا تجد نفسها في لحظة خطر أمام حرب على جبهتين .

الآن ليس أمامكم غير الصين ؟ »

قالت أنديرا غاندي بسرعة :

ـ ... وهل صفينا جبهة باكستان ... إنني أختلف معك .

في اجتماع سيملا مع بوتو ـ ذو الفقار على بوتو رئيس جمهورية باكستان ـ كان يحدثني عن ضرورة الإفراج عن أسرى الحرب الباكستانيين وفجأة إذا به يقول لي :

ـ هل تظنين أن احتفاظك بهؤلاء الثمانين ألفاً من جنودنا يمنعنا من إقامة جيش ... نحن نجند غيرهم ... إن السند والبنجاب معين لا ينفد للقوى البشرية المحاربة والسلاح موجود والحصول عليه سهل ؟

هكذا قال لي بالحرف وهم يتسلحون من الرأس إلى أخمص القدم » .

قلت لإنديرا غاندي :

ـ لقد أثرت الآن موضوعاً مهماً .

لماذا تحتفظ الهند بهؤلاء الأسرى ... أليس ذلك نوعاً من الضغط

على « بوتو » خصوصاً أن هؤلاء الأسرى كلهم من السند والبنجاب وهذان الإقليمان هما قاعدة سلطته ؟ »

وقالت أنديرا غاندي :

ـ هل تظن أنني أريد أن أحتفظ بهؤلاء الأسرى . . . ماذا أفعل بهم . . . إن إطعامهم عبء لا تستطيع الهند أن تتحمله . . . مجرد إطعامهم » .

قلت :

ـ إطعامهم على أي حال أسهل من إطعام عشرة ملايين لاجئ من بنجلاديش . . . » .

قالت أنديرا غاندي بسرعة :

ـ أبداً . . . الظروف اختلفت .

إطعام هؤلاء الأسرى الآن في نفس صعوبة إطعام اللاجئين أمس مع فارق العدد الكبير .

وهناك سببان :

السبب الأول أننا نواجه قحطاً شديداً . . . ولم يكن لدينا هذا القحط قبل سنتين .

والسبب الثاني أن الحصول على الحبوب الآن مشكلة . . .

قبل سنتين كنا نستطيع أن نشتري من الأسواق العالمية إذا احتجنا .

الآن دخلت قوى كبرى واشترت مخزون القمح .

الاتحاد السوفيتي والصين اشتريا مخزون القمح من أستراليا وكندا وأمريكا .

هذه مشكلة .

الأقوياء والأغنياء الآن يشترون الحبوب ولم يكونوا يشترونها من قبل . . . من قبل كنا نحن الذين نحصل على معونات الأغذية من الدول المتقدمة والآن أصبح سعر القمح في السماء » .

واستطردت أنديرا غاندي :

ـ أنت ذاهب بعد غد إلى باكستان . . . سوف تقابل بوتو فيما أعلم . . . قل له إنه يستطيع أن يأخذ كل أسراه ولكن يجب أن نصل إلى تسوية شاملة لمشاكلنا .

عندما التقينا في سيملا في ٢٧ يونيو ١٩٧٢ قال لي إنه سوف يعترف ببنجلاديش ولكنه يريد شهرين أو ثلاثة حتى يستطيع أن يرتب نفسه ويؤهل جماهير شعبه لهذا الاعتراف . . . كان وعده أن يعرض ذلك على الجمعية التشريعية في أغسطس أو سبتمبر ولكنه لم يفعل .

لماذا لم يفعل ؟

لماذا لم يحتفظ بكلمته معي ؟

هل هناك ضغوط عليه ؟

ومن الذي يضغط ؟

أفهم أن هناك تعبئة في مشاعر الرأي العام ، ولكن القيادة السياسية تقود الرأي العام ولا تنقاد له ، وأفهم أن هناك دوراً للعسكريين يضغطون به . . . وهذه مسألة خطيرة . . . ألا ترى ذلك ؟ » .

قلت لأنديرا غاندي :

ـ دعينا من المشاكل مع باكستان . . . أريد أن أسألك ما هو العمل في مشاكل الهند ؟ »

قالت أنديرا غاندي :

ـ لا تصدق دعاة الشؤم . . . في صحافة الغرب كانوا يتحدثون عن انهيار الهند . . . وذلك الانهيار لم يحدث . . . وأظننا نتقدم . . . ونحن نتقدم ببطء ولكننا نتقدم » .

قلت :

ـ هناك شيء أحسست به ولن أخفيه عليك . . . إنني قادم من شرق آسيا وهناك إحساس هام بأن القوى المؤثرة في مصاير آسيا اليوم وغدا هي الاتحاد السوفيتي والصين واليابان . . . لقد أدهشني أنه لا أحد يتكلم عن دور أو تأثير للهند .

أين الهند في مصاير آسيا ؟ » .

وقالت أنديرا غاندي :

ـ يستحيل في آسيا نسيان دور الهند . . . طبيعياً جغرافياً تاريخياً . . . الهند لها دورها ولهذا الدور تأثيره .

لسنا قوة نووية، ولكننا نستطيع إذا أردنا. والمشكلة هل ندفع هذا الثمن الباهظ في الأبهة النووية . . . سلاح لا يمكن استخدامه . . . أو ندفعه للتنمية . . . إذا اضطررنا فسوف نتخذ القرار .

ليس لنا مقعد دائم في مجلس الأمن : ولكن الأمم المتحدة ليست

مكاناً تحل فيه المشاكل ولكنها مكان يمكن فيه إفراغ المشاكل من شحناتها المتفجرة .

نحن وأنتم وغيرنا من الشعوب ... حتى إذا لم نكن قوى نووية ، وحتى إذا لم تكن لنا مقاعد دائمة في مجلس الأمن ، لنا دور .

أليس لنا دور؟ ... ألم نكن نؤدي هذا الدور؟ » .

قلت لأنديرا غاندي :

ـ لقد كنت أريد أن أسألك عن سياسة عدم الانحياز ... أين مكانها وسط عصر التوازنات الدولية بين الكبار؟ » .

قالت أنديرا غاندي :

ـ دورها موجود ....

إن عدم الانحياز سياسة صحيحة وسليمة .

كانت كذلك في الماضي وهي كذلك الآن وفي المستقبل .

عدم الانحياز ليس أن تكون غير متحيز لهذا الطرف الدولي أو ذلك الطرف الدولي الآخر .

وإنما عدم الانحياز أن تأخذ في كل قضية عالمية رأياً يتفق مع مبادئك .

وهذه سياسة لا تتغير .

يتحدثون كثيراً عن عصر التوازن الدولي بين القوى الكبرى .

هناك بالقطع متغيرات كثيرة في العالم ولكن علينا أن نتذكر أن نفس النوايا القديمة ما زالت كامنة .

المهم أن ننشط دور الدول غير المنحازة .

ليست هذه مسئولية الهند وحدها ... أنتم أيضاً مسئولون ... يوجوسلافيا .... غيرنا وغيرنا » .

قلت :

ـ هل ترين بعقد مؤتمر لدول عدم الانحياز ؟ » .

وسكتت أنديرا غاندي قليلاً ثم قالت :

ـ هل تعرف ... بي خشية على الدوام من المؤتمرات الكبيرة الواسعة ... المظاهر تستطيع أن تبلع الفكرة ! » .

* * *

وابتسمت أنديرا غاندي وقالت فجأة :

ـ هل تريد أن تسأل أنت طول الوقت ؟

لدي أسئلة أريد أن أسمعك فيها » .

وقلت ضاحكاً ·

ـ هل هناك من يستطيع أن يعصي أمراً لإمبراطورة الهند ؟ » .

قالت وهي تهز رأسها بنفي سريع :

ـ هل تصدق هذه الأوصاف الصحفية .. ؟ »

وواصلت حديثها على الفور ، لم تترك لصحفي فرصة الدفاع عن مهنته .... قالت :

ـ هناك أسئلة كثيرة تجول بفكري » .

قلت :

ـ إنني على استعداد بقدر ما أستطيع » .

قالت :

ـ ما هو الحل لأزمة الشرق الأوسط ؟ » .

وطرحت أمامها تصوري الشخصي . . .

قالت :

ـ هل هناك عدول عن فكرة الدولة العلمانية في مصر؟ »

وشرحت لها رأيي .

قالت :

ـ لماذا لم تعترف معظم الدول العربية ببنجلاديش ؟ » .

وقدمت لها التفسير الذي أتصوره .

* * *

وتشعب الحديث إلى ذكريات أيام مضت حين كانت دول عدم الانحياز تلعب دورها على مقدمة المسرح السياسي الدولي .

وتحدثنا طويلاً عن « نهرو » وعن أول مرة استمعت إليه فيها مطولاً في باندونج سنة ١٩٥٥ إلى آخر مرة رأيته فيها على فراش المرض في غرفة نومه سنة ١٩٦٤ بالمقر الرسمي لرئيس الوزراء .

وقالت أنديرا غاندي :

ـ لقد أصبح هذا البيت متحفاً لحياته وأعماله .

لقد ذهب في نفس الغرفة التي قابلته أنت فيها آخر مرة » .

واستطردت :

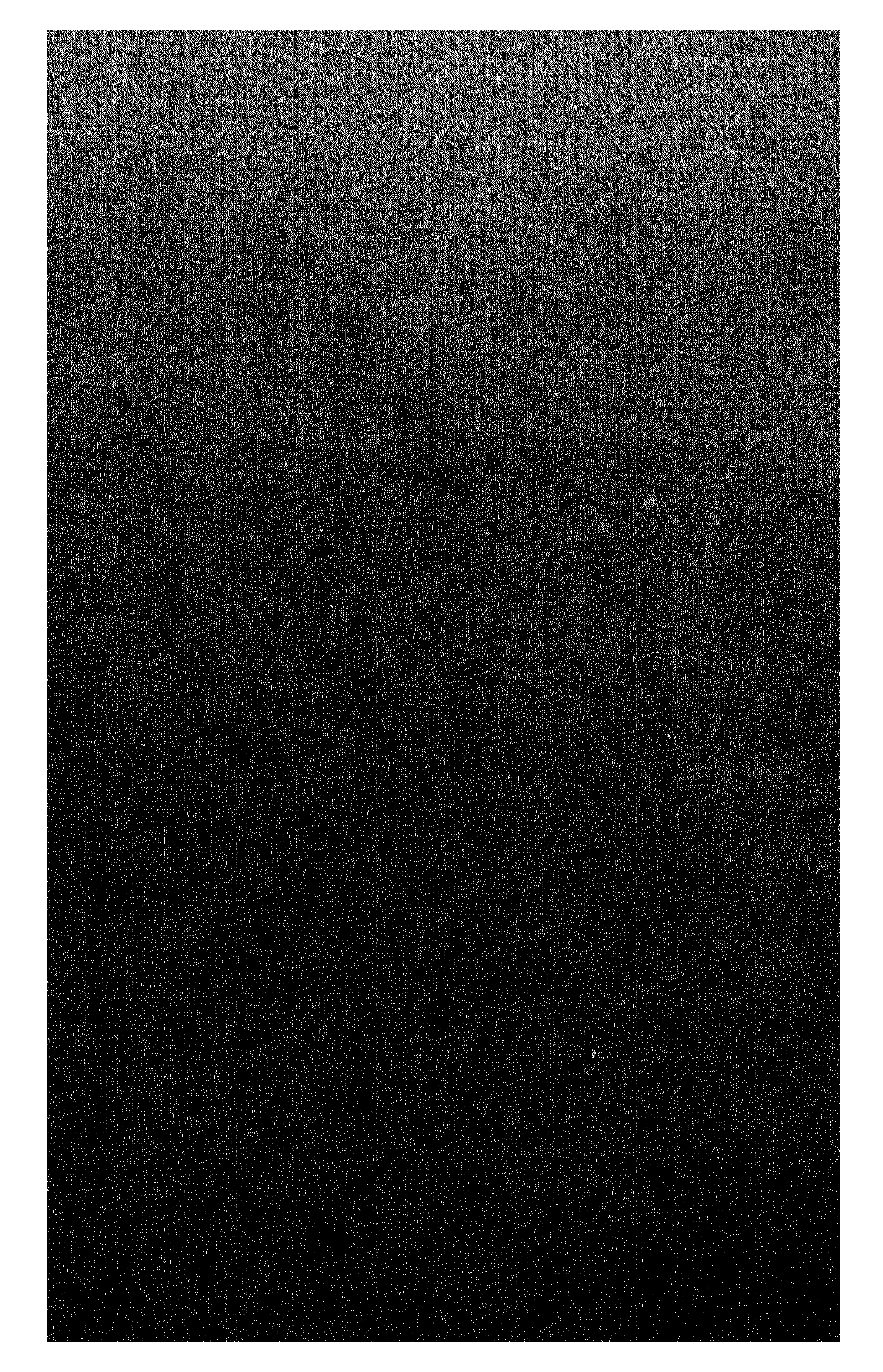
ـ كان يكتب خواطره بانتظام كل ليلة قبل أن ينام .

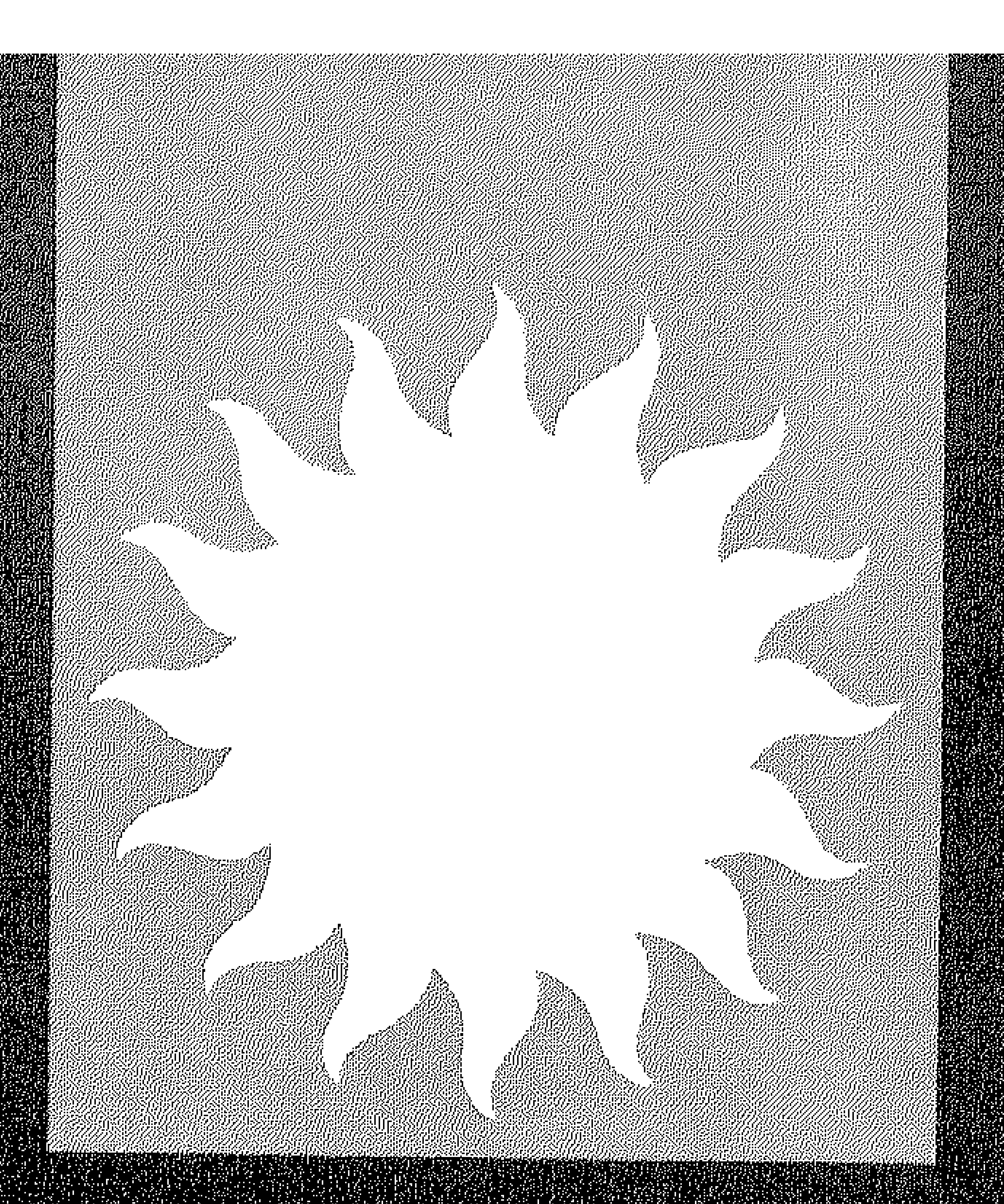
في الليلة الأخيرة كتب مقطعاً من قصيدة لروبرت فروست .

واختلج صوت أنديرا غاندي وهي تستعيد السطور الأخيرة التي كتبها والدها قبل النهاية بساعات :

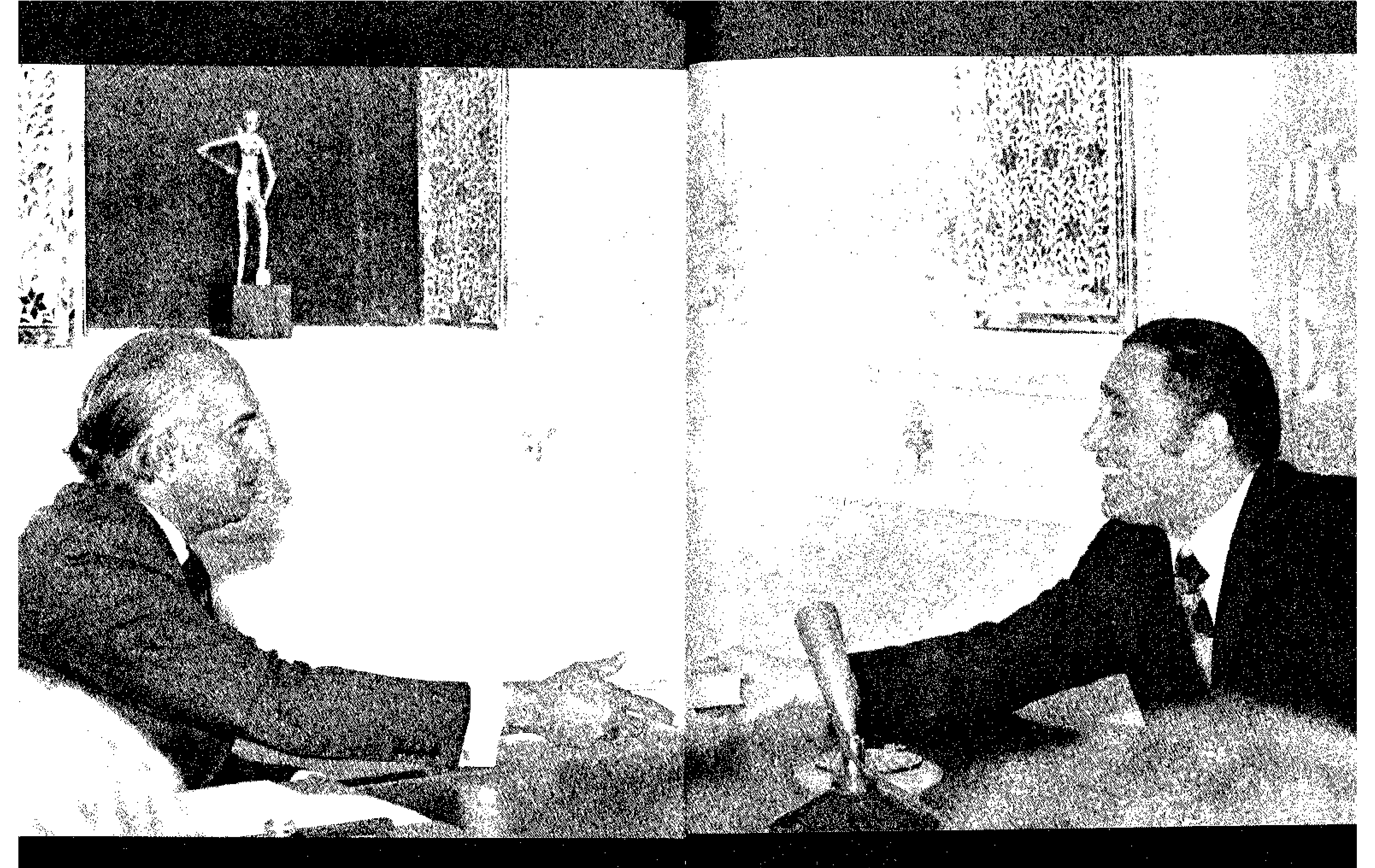
« الغابة جميلة .. مظلمة ... وعميقة .

ولكن لدي موعداً لا بد أن أحفظه وأميالاً طويلة أقطعها قبل أن أنام ، أميالاً طويلة أقطعها قبل أن أنام » !





بُوتو وَباكستَان



الرئيس الباكستاني ذوالفقار علي بوتو يتناول نسخة من كتاب محمد حسنين هيكل عن عبد الناصر وعمالقة العصر .

الشعور السائد في باكستان كلها هو الشعور بالوحشة !

وحشة شديدة حزينة أحياناً ، غاضبة في أحيان أخرى ، مجروحة في معظم الوقت ، محسوسة طول الوقت بألم نافذ حتى العظام . . .

وظني أن جميع أصدقاء الباكستان يتحتم عليهم أن يساعدوها لكي تواجه ولكي تجتاز ، وحتى تتعدى مرحلة النقاهة بعد أن تخطت مرحلة الخطر .

والصديق لا يساعد صديقه بمسايرته في الوهم ، وإنما تأتي مساعدة الصديق لصديقه من باب واحد هو : باب الفهم . . .

* * *

والشعور بالوحشة له ما يبرره في باكستان .

إن الدولة ولدت في ظروف اضطراب تاريخي عظيم اجتاح شبه القارة الهندية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وجعل تقسيم الهند سنة ١٩٤٧ ضرورة سياسية لا بديل لها إزاء استحكام العداء بين الهندوس والمسلمين ، وهكذا فإن الأقاليم ذات الأغلبية من السكان المسلمين في غرب الهند [السند والبنجاب أساساً] وفي شرق الهند [البنغال الشرقية كلها] انفصلت عن الهند وأعلنت نفسها تحت قيادة محمد علي جناح ـ قائد أعظم كما يلقبونه في باكستان ـ دولة مستقلة مسلمة .

وكانت الباكستان من أول يوم تشعر بالخطر من عدة عوامل :

* الدولة جديدة ليس لها أساس قائم بذاته وليست لها قواعد ثابتة ترتكز عليها ، لأن ذلك كله طوال قرون ممتدة كان في دلهي أو متصلاً بها .

* الدولة بظروف قيامها قسمان أحدهما في غرب الهند والثاني في شرقها ، والهند نفسها بين القسمين تقوم بدور العازل أكثر مما تقوم بدور الجسر على عرض ١٥٠٠ ميل ـ وفضلاً عن ذلك فهناك اختلاف لغات واختلاف قوميات إلى آخره .

* الدولة بإحساسها الدفين تشعر بأن الهند أمامها [٤٠٠ مليون وقتها أمام ١٠٠ مليون] لا تستطيع أن تغفر لها انسلاخها عنها .

* * *

هذه العوامل جعلت الباكستان تبحث لنفسها عن أمنها ـ أو ما تتصوره أمنها ـ بوسائل متعددة بينها :

١ ـ الحماسة الزائدة للأحلاف العسكرية الغربية فكانت باكستان على سبيل المثال عضواً نشيطاً ، ومؤسساً ، في حلفين : حلف بغداد أو الحلف المركزي الآن ، ثم حلف جنوب شرق آسيا .

٢ ـ الولاء المطلق عبر سنوات طويلة لمخططات الولايات المتحدة الأمريكية وربما كان دافع باكستان إلى ذلك ـ أو على الأقل دفاعها عن نفسها حياله ـ هو أن هذا وحده هو الطريق لبناء جيش قوي مزود بأحدث السلاح ومدرب بمنتهى الكفاية على استعماله .

٣ ـ تغطية ذلك كله أو تعزيزه بالانتماء الإسلامي ، وفي وقت من الأوقات كانت فكرة حلف بغداد أصلاً وأساساً هي فكرة حلف إسلامي يحلم به راسمو السياسة الأمريكية ويتمنونه مستنداً على تركيا ومصر وباكستان وعندما رفضته مصر وتحولت نقطة الوسط من القاهرة إلى بغداد اتخذ الحلف اتجاهاً آخر ، ومع ذلك بقيت فكرة الحلف الإسلامي في خيالات راسمي السياسة الأمريكية تظهر وتختفي ، وتسخن وتبرد وفق تطورات الظروف .

* * *

محصلة ذلك كله أن الباكستان بدأت تشعر تجاه الهند بنوع من الأمن :

* عليها حماية حلفين عسكريين تقودهما الولايات المتحدة .

* لديها جيش قوي مسلح ومدرب بسلاح أمريكي حديث .

* دورها الإسلامي محاط باستمرار بهالة أنها أكبر دولة للمسلمين من حيث تعداد السكان ومن هنا فإن صلاتها الإسلامية تستطيع أن تعطيها عمقاً واسعاً في الدفاع عن نفسها .

كان ذلك شعوراً زائفاً استيقظت منه الباكستان سنة ١٩٧١ على حقائق قاسية مؤداها :

(١) أن الخرائط المرسومة والملونة لا تصنع الدول .

(٢) إن الجيوش القوية لا تكفي إذا لم تكن هذه الجيوش أداة تعبر عن انسجام تاريخي واستراتيجي واضح تحركه قيادة سياسية تفهم قوانين التطور وتستوعب روح العصر .

(٣) إن التأثير الأكبر على الحركة السياسية لأي شعب من الشعوب أو أمة من الأمم يجيء من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية وتراكماتها التاريخية والحضارية أولاً وقبل أي شيء آخر .

من هنا فوجئت الباكستان بما لم تكن تتوقعه :

* الخريطة الملونة للباكستان غرباً وشرقاً تمزقت ، واستقل شرق الباكستان تحت اسم بنجلاديش .

* الجيش الباكستاني تعرض لهزيمة مهينة في الشرق وفي الغرب معاً .

* أحلاف أمريكا لم تردع ... والصيحة بـ « واسلاماه » لم تكن في زمانها ولا في مكانها !

والنتيجة كما قلت شعور سائد بالوحشة في باكستان .

وحشة حزينة ، غاضبة ، مجروحة ، مؤلمة .

وإلى جانب الأسباب العملية ـ وقد لمست بعضها ـ فقد كانت هناك أسباب نفسية يحسونها في باكستان ولكنهم لا يتكلمون عنها صراحة وبينها :

(١) أن هزيمتهم الساحقة كانت انتصاراً لعدوهم التقليدي أو لمن يعتبرونه عدوهم التقليدي وهو الهند .

(٢) أنهم في أعماق أعماقهم يدركون أنه لم يكن هناك مفر من قيام بنجلاديش لأسباب حقيقية وطبيعية من ناحية ، ثم لنوعية السياسة والساسة والقرار السياسي للسلطة الحاكمة في إسلام أباد وحتى وقعت المأساة .

(٣) أنهم يشعرون بعذاب حارق في الضمير لأن جزءاً من حقيقة ما وقع في بنجلاديش وصل إليهم وكان ضرورياً أن يصل فلم يكن معقولاً أن تخفى مذبحة من نوع ما حدث في بنجلاديش ثم لا تصل صور منها إلى باكستان ، كما أنه لم يكن معقولاً أن تصل الصور دون أن تمس الضمير الباكستاني حتى وإن تظاهر بالإنكار .

* * *

ولو بحثنا عن الإنصاف فإن شعب باكستان لم يكن مسئولاً عن كل ما جرى :

١ ـ الاستغلال الطبقي البشع الذي كانت تمارسه ٢٢ عائلة يعدها الرئيس ذو الفقار علي بوتو واحدة بعد واحدة ـ كانت تمارس استغلالها في شرق باكستان وفي غرب باكستان أيضاً .

٢ ـ السياسة والساسة والقرار السياسي الذي أدى إلى مذبحة الشرق كان هو نفسه سلطة الحكم في الغرب .

٣ ـ إن شعب باكستان في الغرب ، وربما من قبل المأساة ، كان هو الذي ثار على السلطة القديمة وحاول بإرادته الحرة أن يعطي لنفسه بداية جديدة ، ولكن السلطة القديمة عطلت إرادته ولم تبتعد عن طريقه إلا

بعد أن وقعت المأساة وعجزت عن مواجهة آثارها وانتزع الشيخ مجيب الرحمن سلطة الحكم في بنجلاديش بقوة الثورة ، كما أن الرئيس ذو الفقار علي بوتو تسلم سلطة الحكم في باكستان [في الغرب] عندما أشهرت السلطة القديمة إفلاسها بنفسها ورجته أن يتقدم ليتسلم تركة مثقلة بأعباء مادية ونفسية رهيبة !

ومهما يكن من أمر المسئولية وأين تقع تماماً ، فإن الشعور بالوحشة ، حزينة غاضبة مجروحة مؤلمة ، في باكستان يصبح أمراً طبيعياً .

* * *

والمشكلة أن جميع المأزومين بالوحشة يضيعون وقتاً غالياً في تبرير أنفسهم ، وأخطر من ذلك فهم أحياناً يجدون نوعاً غامضاً من اللذة في تعذيب أنفسهم بما يتصورونه عن اضطهاد الآخرين لهم وتخليهم عنهم .

وذلك نوع من الهرب .

وأعترف أنني واجهت بعضاً من ذلك خلال زيارتي للباكستان ولكني حاولت قدر ما أستطيع إنسانياً ألّا أجعل لذلك سبيلاً يؤثر في رؤيتي الموضوعية للحوادث أو للناس ولا أعرف هل نجحت أو فشلت .

وعندما وصلت إلى « كاراتشي » ذات صباح باكر قادماً من الهند كانت الرياح تهب ساخنة وباردة . . .

تلقفت صحافة باكستان مقتطفات من محاضرة ألقيتها في معهد العلوم السياسية والاستراتيجية بجامعة جواهر لال نهرو في الهند وأقامت الدنيا وأقعدتها .

* كنت قد قلت : « إنني لا أستطيع أن أتصور موقفاً محايداً أزاء

ما حدث في بنجلاديش » .

* وكنت قد أشرت : « إلى مساعدات سوفيتية وصلت إلى الهند عن طريق مصر» .

* وكنت قد اعترفت : « بأنني لا أرى سبباً منطقياً يدعو معظم الدول العربية إلى تأخير اعترافها ببنجلاديش » .

كنت قد تحدثت في ذلك كله وغيره في جامعة جواهر لال نهرو إزاء موجة عتاب في الهند راحت تلح علي فهم موقف وسياسة ودور مصر وكيف أن الهند وقفت معها باستمرار ومع كل قضية نضال عربي ، في حين أن مصر تبدو وكأنها قد تركت الهند وابتعدت عن صداقتها التقليدية معها .

* * *

ونزلت في مطار «كاراتشي» وإذا بين الذين جاءوا لانتظاري السفير المصري علي خشبة وهو بطبيعته رجل عاقل مجرب وهادئ الأعصاب .

وهمس علي خشبة في أذني قائلاً :

ـ الدنيا هنا قائمة قاعدة بسبب ما نقل من تصريحاتك في الهند » .

قلت له ضاحكاً :

ـ هل يحل مشاكلك أن أعود إلى الطائرة مرة أخرى . . . هي في طريقها إلى بيروت وأستطيع من بيروت أن أستقل أول طائرة ذاهبة إلى القاهرة ؟ »

وقال علي خشبة بجد :

ـ هذا يزيد المسائل تعقيداً ولا يحل شيئاً » .

والتفت إلى صديقين من باكستان كانا في انتظاري وهما : نسيم أحمد وزير الدولة للإعلام وكان صحفياً مرموقاً قبل ذلك ، ثم كمال أظفر وزير المالية في حكومة السند ومن أقرب المعاونين إلى الرئيس ذو الفقار علي بوتو ـ وقلت :

ـ هل أستطيع أن أجد مجموعة من صحف الباكستان الصادرة اليوم لكي أرى ماذا فعلوا بما قلت أمس في الهند ؟ » .

ودخلت إلى قاعة المطار وإذا عشرات من ممثلي الصحافة والإذاعة والتليفزيون ينتظرون بالأقلام والعدسات وكشافات الضوء الباهر .

وقلت :

ـ إنني أعرف ماذا قلت في الهند أمس وأتحمل مسئوليته . . . وظهر اليوم فأنا ضيف غداء مع كل رؤساء تحرير الصحف الباكستانية الكبرى ، وعلى الغداء فسوف أكون مستعداً للإجابة على كل سؤال ، وفي هذه الفرصة فإنني سأقرأ كل ما نسب إلي في صحافة باكستان اليوم » .

* * *

وأعترف أن الأسلوب الباكستاني معي كان ممتعاً .

كانوا من قبل يعرفون ـ وقد قرأوا بالكامل ـ ما كتبت تأييداً لبنجلاديش وتمسكاً بالصداقة مع الهند شريطة ألّا يكون ذلك على حساب باكستان .

وكانوا قد تابعوا ـ ونقلوا في الصحافة والإذاعة والتليفزيون ـ ما قلت قبل ساعات في دلهي وأخذه كل طرف على النحو الذي يحلو له .

وكان الأسلوب الباكستاني معي ـ كما قلت ـ ممتعاً :

الدولة تبالغ في عنايتها بي ويقال لي رسمياً إن الرئيس بوتو أمر بنفسه أن أعامل كضيف شرف في باكستان .

وأقدم الشكر ولكني أقول بصراحة :

ـ إنني أشعر إزاء هذا كله بغربة شديدة ، وما أراه من حولي يخرجني عن إحساسي بأنني صحفي ورجائي هو النظر في إعفائي منه كله » .

الصحافة والإذاعة والتليفزيون في حالة ثورة عارمة تطالبني بتفسيرات وتوضيحات لموقفي من بنجلاديش والهند وباكستان وتصل إحدى الصحف إلى حد أن تجعل عنوانها الرئيسي في صفحتها الأولى عند وصولي إلى كاراتشي : « غضب عام في المدينة ضده » !

طائرة هليكوبتر خاصة في انتظاري بمطار لاهور لتأخذني إلى المناطق التي احتلتها وجلت عنها الهند وأجد جنرالاً باكستانياً مؤمناً وطيباً يصحبني في الهليكوبتر ويقول لي ـ بالعربية الفصحى وبنطق باكستاني ـ مشيراً إلى بعض الأطلال المخربة :

ـ هذا ما فعله أصدقاؤكم الهنود ؟ » .

وقلت :

ـ الحرب هي ذروة المأساة الإنسانية كلها » .

وعاد الجنرال الباكستاني يقول :

ـ الهنود كفار . . . وهم في إسرائيل كفار . . . والكفر كله ملة واحدة » .

وأقول :

ـ هذه مسألة يطول فيها الحوار» .

وأجد نفسي فجأة أمام بطارية من عدسات وكشافات التليفزيون ومجموعة من زوجات أسرى الحرب الباكستانيين الذين ما زالت الهند تحتجزهم ويقلن لي :

ـ ألا تساعدوننا في استعادة أزواجنا ؟

وأضعف أمام الدموع وأقول بصدق :

ـ لكنّ كل الحق في المطالبة بعودة الرجال من الأسر ، ونأمل كما انتهت الحرب أن تسوى كل آثارها » .

وأواجه على غير انتظار وباستمرار بسؤال يقول :

ـ ما هو الفارق بين قيام بنجلاديش وقيام إسرائيل ؟

وأقول بهدوء :

ـ فارق كبير . . . في إسرائيل قومية دخيلة جاءت بالسلاح وطردت قومية أصيلة كانت تعيش في الأرض واستولت على الوطن وكل ما كان عليه .

وفي بنجلاديش فإن البنغاليين ـ وهم القومية الأصيلة في البنغال ـ قرروا بأنفسهم في انتخابات حرة مصيرهم الوطني على ترابهم الوطني وووجهوا بما ووجهوا به فاختاروا الاستقلال الكامل وبقوا على أرضهم لم ينتزعها منهم غيرهم . . .

أليس هذا فارقاً كبيراً ؟ » .

وحاولت في غداء مع رؤساء تحرير الصحف الباكستانية أن أضع

ما قلت في الهند داخل إطاره .

قلت لهم :

« إنني في الهند ذكرت أنني لا أستطيع أن أتصور موقف حياد إزاء ما حدث في بنجلاديش .

وما زال ذلك رأيي لأن أي إنسان في الدنيا كلها لا يستطيع أن يكون محايداً إزاء مذبحة من حجم ونوع ما حدث في بنجلاديش » .

وقلت لهم :

« .. إنني في الهند أشرت إلى مساعدات سوفيتية وصلت إلى الهند عن طريق مصر ... وذلك صحيح ولهم أن يقرأوا نص ما قلت لكي يعرفوا أن ذلك السلاح لم يذهب في وقت المعارك ولكنه ذهب قبل أن يخطر في بال أحد أن الحرب سوف تنشب فعلاً بين الهند وباكستان .

ومع ذلك فلماذا نسيان أن هناك سلاحاً وصل وقت المعارك إلى باكستان من دول عربية لم تخف موقفها وإنما أعلنته ؟ »

وقلت لهم :

« إنني في الهند اعترفت بأنني لا أرى سبباً منطقياً يدعو معظم الدول العربية إلى تأخير اعترافها ببنجلاديش .

وفي ذلك فقد كنت أعبر عن رأي شخصي لا يملك أي تأثير رسمي ولست أفهم لماذا تترك الدول العربية دولة إسلامية مثل بنجلاديش وحدها يعترف بها العالم كله إلا أقرب الناس إليها بالعقيدة الدينية . ثم إنني لا أدعو إلى الاعتراف العربي ببنجلاديش على أساس الأمر الواقع وإنما أدعو إليه على أساس حرية الأمة البنغالية في تقرير مصيرها وهو

نفس ما نطالب به لشعب فلسطين » .

ثم قلت لهم :

ـ إنني لا أخفي حرصي على الصداقة بين مصر والهند في إطار سياسة عدم الانحياز ، ولكني لا أرى أن هذه الصداقة سوف تكون على حساب الباكستان » .

ثم أضفت في النهاية :

ـ إنني تعرضت لضغوط كثيرة منذ جئت إلى باكستان ولكن ذلك لن يدفعني إلى أن أغير موقفي أعني أنني لن أقول في « كاراتشي » أو « لاهور » أو « إسلام أباد » كلاماً يختلف عما قلته في دلهي كما أنني لست على استعداد لأن أكون طرفاً في الحرب الباردة بين صحافة الهند وصحافة الباكستان .

ثم إن أية ضغوط لن تؤثر في فهمي ـ وأنا أحاول تعميقه إلى أقصى حد ممكن ـ بمشاكل باكستان العملية بل حتى مزاجها النفسي » .

* * *

كان ذلك هو الجو الذي التقيت فيه بالرئيس الباكستاني ذو الفقار علي بوتو .

[والغريب أن موعدي معه جاء في نفس اليوم الذي كانت سفارة مصر في إسلام أباد تتلقى احتجاجاً على بعض ما قلت ، كما أن سفارة باكستان في القاهرة كانت في نفس اليوم تقدم احتجاجاً إلى وزارة الخارجية هنا] .

وكان لقاؤنا في قاعة الاجتماعات بقصر الرئاسة في راولبندي .

ولقد ذكرتني القاعة حين دخلتها بتأثيرات الفن الفارسي على القصور الملكية في عصر أسرة قاجار بالتحديد ، وبدت لي القاعة طبعة متقشفة من أبهاء المرايا في قصر جولستان التي أعيد ترميم بعضها في القرن التاسع عشر.

ودخلت قاعة الاجتماعات قبل الرئيس بوتو بدقيقة ثم انفتح الباب على مصراعيه وبدا اثنان من حراس البنجاب بالقامات الطويلة والرماح المنصوبة ـ كل منهما يمسك بالباب من ناحية ... ودخل الرئيس الباكستاني بخطى شابة نشيطة رغم الشعر الذي سرح فيه الشيب ، وابتسامة عريضة وخلية البال على شفتيه ، رغم الهموم الثقال !

* * *

وكانت البداية كالعادة في أي حديث مدخلاً شخصياً يدلف منه المتحدثون إلى شواغلهم العامة .

قال لي :

ـ لقد فرغت قبل أسابيع قليلة من قراءة كتابك عن عبد الناصر وعمالقة العصر الذين تعامل معهم ... »

واستطرد بوتو :

ـ كان الفصل الذي كتبته في هذا الكتاب عن شواين لاي مثيراً وأريد أن أعرف هل تحدث معك شواين لاي عنه عندما قابلته أخيراً في بكين .

تصورت أنه سيتحدث معك فيما ذكرته عنه من أنهم ردوا حرب

الأفيون إلى الغرب في فيتنام وأثروا بذلك في معنويات القوات الأمريكية ؟ » .

قلت :

ـ إن شواين لاي لم يفتح هذا الموضوع معي .

ومع ذلك ... أليس من حق الصين أن ترد التحية بأحسن منها » !

وضحك بوتو وتشعب الحديث قليلاً إلى شخصية شواين لاي وإلى روح الصين الجديدة وأثرها على آسيا .

وقلت :

ـ إنني وصلت إلى باكستان في آخر محطة لي بعد رحلة آسيوية طويلة » .

وقال الرئيس بوتو برقة :

ـ لعلها لم تكن رحلة متعبة ... هل زادت متاعبك معنا هنا ؟ » .

قلت :

ـ بالحق أبداً ... إنني أستطيع أن أفهم شعور الوحشة في باكستان .

ربما كنا في مصر أقدر من غيرنا على أن نحس بما تحسون به .

لقد عشنا من قبل عذاب انفصال .

وعشنا من قريب محنة هزيمة مع أن ظروفنا في التجربتين تختلف كثيراً عن ظروفكم .

لقد قلت هذا لكثيرين من الأصدقاء هنا » .

وقال بوتو :

ـ إننا عشنا تجربة قاسية » .

وقلت :

ـ كانت قاسية عليكم وعلى غيركم ... إنني سمعت كثيراً في بنجلاديش عندما قابلت مجيب الرحمن وغيره من قادة بنجلاديش » .

وقال بوتو بسرعة :

ـ دعني أصحح لك . إنك تقول « مجيب الرحمن وغيره من قادة بنجلاديش » ليس هناك غيره قادة في بنجلاديش ... ليس في بنجلاديش إلا مجيب وحده » .

قلت :

ـ ليكن ... لن يستحكم خلاف بيننا حول هذه النقطة ....

أريد أن أسمع منك وجهة النظر الأخرى .

إنني أعتقد أنك تتحمل مسئولية ضخمة .

بلدك خارج من مأساة انفصال ومحنة هزيمة .

وأنت تحاول أن تبدأ بداية جديدة .

وألمح في بعض تطبيقاتك للاشتراكية آثاراً واضحة من تجربة عبد الناصر .

وأعتقد أنك أمام لحظات اختبار واختيار حاسمة .

ولديك بالتأكيد كثير تقوله وأمامي كثير أسمعه » .

وتنهد الرئيس ذو الفقار علي بوتو من أعماقه وأمسك بسيجار كان أحد الحراس قد وضعه أمامه على المكتب وراح يحركه ويدق به أمامه وهو يتحدث ثم قال :

ــ لقد استفدنا كثيراً من تجربة عبد الناصر . . . هذا صحيح وكان عبد الناصر يشجعني باستمرار وكنت أذهب إليه عندما كنت وزيراً للخارجية في عهد الماريشال أيوب خان وأشكو له همومي وكان يسمعني في صبر .

تجربتكم في مصر كلها بالغة الأهمية لنا ولذلك فنحن نتابعها ، ولذلك أيضاً فإننا نؤيدكم في كل مواقفكم ، لا نؤيدكم لمجرد أننا مسلمون مثلكم ولكن نؤيدكم عن استحقاق .

نحن نشكر الله لأننا مسلمون ، ولكن ذلك ليس وحده سبب تأييدنا لكم .

لقد تأثرت علاقاتنا بدول أخرى بسبب موقفنا من إسرائيل ، ولكن ذلك لن يؤثر فينا وانما سنقف معكم إلى النهاية .

إن إسرائيل لا تكف عن مضايقتنا ولكننا لا نهتم .

لقدأسهموا في تمزيق باكستان . . .

إن الخطة لم توضع في «دلهي» ولكن وضعت في « تل أبيب » .

وكانوا هم الذين أعطوا أسلوب العمل لجماعات المختي باهيني .

قلت :

ــ سيادة الرئيس . . . إنني سمعت بعض الأصدقاء الباكستانيين يشيرون

إلى هذا ولكن أحداً منهم لم يقدم لي دليلاً عليه .

ولقد قابلت كثيراً من قادة الثورة الشعبية للمختي باهيني في بنجلاديش وأعتقد أن شعورهم فيما يتعلق بإسرائيل كان قاطعاً » .

وقال الرئيس بوتو :

ـ هناك أشياء لا تظهر إلا بمرور الأيام ومع ذلك فدعنا نترك هذه النقطة ونواصل حديثنا » .

واستطرد الرئيس بوتو :

ـ إنني في كل ما حدث لا أريد أن أتهرب من مسئولياتنا .

علينا نصيبنا من المسئولية ولكني كنت أتمنى أن يساعدني مجيب الرحمن حتى تعود وحدة باكستان في الشرق والغرب . . .

لقد تطورت الأمور مع الأسف على نحو مأساوي .

أظهر جزء في المأساة أنه كان لدينا جيش قوي ولم تكن لدينا قيادة سياسية قادرة وهذه كارثة .

لقد كانت لدينا حكومة عسكرية فقدت ثقتها بنفسها وكان أيوب خان مريضاً ولم يستطع أن يواجه الثورة الشعبية ضده وكنا نتوقع حكومة مدنية ولكن أيوب خان ترك المسرح وجاء بيحيي خان وهو رجل ضعيف يغطي ضعفه بالإسراف في الشراب وكان أيوب يريده واجهة باعتباره قائد جيش ولكن يحيى بدأ يحلم بأن يكون رئيساً .

كان مفروضاً أن يشرف على عملية الانتقال من الحكم العسكري إلى السلطة المدنية .

وحين شددنا الحملة ضده مطالبين بإجراء انتخابات حرة وباتخاذ سياسة خارجية مستقلة فإنه دعاني لمقابلته وأقسم لي على الكتاب أنه سوف يجري انتخابات حرة شريطة أن أوقف الحملة ضده .

أعطانا سنة كاملة للحملة الانتخابية .

هل هذا معقول في بلد حرم من الحياة النيابية لمدة ١٤ سنة ؟

كانت النتيجة أن الجو كله أصبح متوتراً لأن كل المشاكل الكامنة طفت على السطح وبدت القلاقل غير محتملة .

وأصبحت أشك فيه . . .

كان اعتقادي أنه يترك الفوضى لكي يثبت أن الحياة المدنية محكوم عليها مقدماً بالفشل وأنه ليس هناك من بديل للاستقرار غير الحكم العسكري .

وعندما أجريت الانتخابات كان الجو محموماً .

وفي الشرق تضافرت عوامل كثيرة على رفع درجة الحرارة بشكل خطر وخرجت الأمور وأفلتت من كل زمام .

في ٢٥ مارس اتخذ يحيى خان قراراً سيئاً في رأيي ، لأنه قرر أن يضرب بقوة الجيش ضد الشعور الشعبي في بنجلاديش .

لقد ضرب وأنا لا أنكر ذلك . . . ضرب بيد غليظة وبفظاظة .

بالطبع هناك ضرورة لبعض الإجراءات الخشنة إذا كان الأمر يتعلق بالمحافظة على وحدة الوطن ولكن قرار يحيى خان كان سيئاً من الناحية السياسية وأسوأ من ذلك أن جميع قراراته العسكرية كانت خاطئة عندما

تطورت الأمور» .

وسكت الرئيس ذو الفقار علي بوتو قليلاً وكأنه يتأمل في فكره شيئاً ثم استطرد :

ـ كانت المأساة في نجومنا .

لقد قابلت بعد ذلك الجنرال بير زاده المستشار العسكري ليحيى خان وقلت له: « بعد كل ما حدث فإنكم لا تستطيعون مواجهة المشاكل . . . لا بد من اصلاح اجتماعي واقتصادي واسع النطاق لكي يشعر الناس ببعض الأمل في المستقبل » .

وقلت لبير زاده: « المطلوب الآن قرارات عسكرية أقل وقرارات اجتماعية واقتصادية أكثر » .

واستطرد الرئيس بوتو يكرر :

ـ كانت المأساة في نجومنا . . .

لو أن « مجيب » تعاون معي وكان أكثر صبراً وأقل عناداً لأمكن إنقاذ الموقف .

كان مجيب معي في الرأي بأن يحيى خان يريد أن يثبت فشل الديمقراطية لكي تستمر الديكتاتورية.

كان يحيى يريد أن يلعب بمجيب الرحمن .

وكان يريدأن يلعب بي أيضاً .

كل ما يهمه كان يريد أن يصبح رئيساً للجمهورية وقد قال لي بنفسه ذلك واعترف به أمامي . . . قال لي :

ـ ماذا أصنع ... أريد أن أصبح رئيساً للجمهورية » !

واستطرد الرئيس بوتو يقول :

ـ لقد انتهى الأمر كما رأينا بمأساة ولكننا نريد الخير لإخواننا في البنغال الشرقية لقد تقاسمنا معهم الحياة فترة طويلة والسلام ضروري لهم كما هو ضروري لنا .

ونحن على أي حال واجهنا أمورنا وأعتقد أن أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية أحسن ... الناس هنا يعملون والأرض خصبة وهناك قاعدة صناعية لا بأس بها ، ورصيدنا من العملات الأجنبية يزداد .

ونحن على استعداد للتفاوض معهم والوصول إلى اتفاق نفتح به صفحة جديدة » .

وقلت للرئيس بوتو :

ـ لقد راودني شعور غريب وأنا أسمع بعض من قابلت في بنجلاديش ... برغم كل شيء... برغم المذابح وماجرى فيها ... فإنهم على استعداد لأن ينسوا وأن يبدأوا معكم هنا في الغرب صفحة جديدة .

لو أن كل شيء سار في طريق طبيعي وانتهى التوتر بينكم فإنني لا أستبعد في ظرف عشر سنوات على الأكثر أن يقوم بينكم وبينهم هناك نوع من الارتباط الوثيق » .

وقال الرئيس بوتو :

ـ إنني أبذل كل جهدي لأقنع شعبي وأنت تعلم أنني أواجه في ذلك مشاكل كثيرة ولكني لم أخف أبداً رأيي في ضرورة اعترافنا ببنجلاديش

فور تسوية بعض المسائل المعلقة بيننا » .

وقلت :

ـ إنني أعرف . . . . »

ثم أضفت ضاحكاً :

ـ إنني قرأت في برقيات وكالات الأنباء العالمية قصة طريفة نقلتها هذه الوكالات . . . أنك كنت تتحدث إلى جماهير واسعة حول الاعتراف ببنجلاديش وبدأت هذه الجماهير تقاطعك وإذا أنت تقول لها من الميكروفون : إذا لم تكونوا على استعداد لأن تسمعوا فاذهبوا إلى الجحيم .

هل القصة صحيحة ؟ » .

وقال بوتو ضاحكاً هو الآخر :

ـ ذلك حدث .

المشكلة أننا نحن الذين يجب أن نتخذ القرار الصعب . . . هذه دائماً مشكلة المهزوم . . . عليه أن يتخذ القرار الصعب .

أنديرا ليس لديها قرار صعب تتخذه . . . انتصرت في الحرب .

مجيب ليس لديه قرار صعب يتخذه . . . تحقق له ما يريد .

أما أنا هنا فعلي أن أتخذ القرار الصعب .

لقد حاولت تخفيف الصدمة فقلت للناس : إننا لم نكسب الحرب ولكننا لم نخسرها . ومع ذلك أحس الناس بالصدمة لأنهم هنا لا

يستطيعون نسيان ٧٠٠ سنة من التاريخ كانت لهم فيها السيطرة على الهند . . .

لا يمكن لأحد أن يقنعهم بأنهم هزموا .

أقصى ما يستطيعون الوصول إليه لتفسير ما حدث وتبريره أنها لعنة هبطت عليهم من السماء ولكنها ليست حقيقة .

إنني في سملا كنت وعدت أنديرا غاندي أن يجيء اعترافنا ببنجلاديش في شهر أغسطس الماضي وعندما عدت إلى روالبندي وتقابلت مع أقطاب حزبي وتحدثت إليهم في ضرورة تهيئة الناس لقبول الحقيقة كان قولهم لي بالإجماع :

هذه كارثة لا نستطيع مواجهتها شعبياً .

ماذا أفعل ؟ هل أحل الحزب وأدخل في تناقض مع الشعب أم أعطي لنفسي الفرصة لأقود حزبي وشعبي .

إنهم في الهند يقولون لي كل يوم : أنت وعدت بالاعتراف في أغسطس ولم تنفذ .

وليس ذلك دقيقاً انني وعدت أن أحاول وأن أهيئ الظروف وما زلت ملتزماً بذلك .

ولكن ماذا عن بقية المشاكل الأخرى التي يجب أن تسبق الاعتراف . . .

أسرى الحرب الباكستانيون مثلاً هل يجوز تأخير إعادتهم إلى وطنهم أكثر من ذلك ؟ » .

قلت :

ـ المشكلة أن البعض هناك يتصورون أنك تريد أن تكسب وقتاً لتعد فيه لجولة ثانية في الحرب ... إنك قلت لأنديرا غاندي ـ وقد سمعت منها بنفسي ـ إنها مخطئة إذا تصورت أن عدم عودة أسرى الحرب الباكستانيين يمكن أن يمنعك من بناء جيش جديد ؟ » .

وقال الرئيس بوتو :

ـ إنني قلت لها ذلك فعلاً في سملا .

قالت لي إنها لا تستطيع إعادة الأسرى إلا بعد السلام .

وقلت لها إن هناك مشاكل لا بد من حلها قبل السلام « ولكن إذا كنت تتصورين أنني أريد الحرب فإنني أستطيع تجنيد قوات تحل محل هؤلاء الأسرى الذين تحتفظين بهم في قفص كما يفعلون في حدائق الحيوانات » .

وقالت لي مسز غاندي : الاعتراف أولاً .

ووعدت أن أحاول .

وجاءني السوفيت يقترحون حلاً وسطاً وقلت لهم إنني على استعداد لعقد صفقة كاملة نسوي بها جميع المشاكل مرة واحدة .

إنني قدمت الدليل على حسن نيتي حين أفرجت مقدماً عن مجيب الرحمن بلا قيد ولا شرط. أليست هذه دلالة كافية » .

واستدرك الرئيس بوتو يقول :

ـ لماذا لا تحاول مصر أن تتدخل لحل هذه الأزمة ... لماذا لا تحاول الدول العربية ... أنتم الأقرب إلينا .

قولوا لهم إننا سنعترف بهم . . . قولوا لهم إن لنا مصلحة في الاحتفاظ بأقوى العلاقات مع البنغال المسلمة ولكن هناك قضايا لا بد من تسويتها » .

قلت :

ـ قبل أن نؤكد لهم أنكم سوف تعترفون بهم أليس من الضروري أن نعترف بهم نحن أولا ؟

إننا أخرنا اعترافنا بهم بناء على طلبك شخصياً فيما أعرف .

كان رأيك أن ذلك سوف يحرج باكستان ويؤثر في مشاعر شعبها ثم إنه قد يساعد على تشجيع نزعات انفصال أخرى في إقليم الحدود الشمالية الغربية مع أفغانستان ، وفي إقليم بالوشستان أيضاً .

وقال الرئيس بوتو :

ـ دعني أقرر لك بصراحة أننا لا ندعي لأنفسنا ذكاء يفوق ذكاء غيرنا ، ولا نريد أن نمارس على أصدقائنا ضغطاً يقيد حريتهم في العمل ، ولكن يجب أن تعرفوا أن صداقتكم مهمة جداً لشعب الباكستان وأن تفهمكم لأوضاعه ضروري » .

* * *

قلت للرئيس بوتو :

ـ لقد كنت وزيراً للخارجية زماناً طويلاً ، وسياسة التقارب بين الصين وباكستان كانت سياستك ، وخلافك مع أيوب خان بدأ بالسياسة الخارجية وبما حدث في مؤتمر طشقند الذي توسط فيه السوفيت بينكم وبين الهند ، لهذا كله وغيره فأنا أريد أن أنتقل بالحديث إلى الأوضاع العالمية .

إنني قادم من شرق آسيا وإحساسي أن النزاع الصيني السوفيتي هو العنصر الأساسي الذي يؤثر في اتجاهات الحركة العامة في آسيا وربما أوسع من ذلك . . . ما رأيك ؟ » .

وقال الرئيس بوتو :

ـ بعد انتهاء حرب فيتنام ، أو بعد وقف إطلاق النار في فيتنام على الأصح ، فإنني أتصور أن الاهتمام سوف يزداد بأحوال شبه القارة الهندية .

ذلك سوف يؤثر فينا بشكل مباشر .

الصين والاتحاد السوفيتي كلاهما على حدودنا ، وكلاهما مهتم بشبه القارة الهندية .

والاتحاد السوفيتي يؤيد الهند وقد أعطاها كميات هائلة من السلاح كما أنه وفقاً لمعلوماتنا فإن الروس يقيمون قاعدة بحرية كبيرة في شيتا جونج [بنجلاديش] وهذه القاعدة نقطة هامة بالنسبة لهم في سياستهم تجاه الصين .

من ناحية أخرى فإن الصين قوة آسيوية ضخمة لها دورها الواسع ووجودها وتأثيرها محسوسان في كل مكان في آسيا ونحن على علاقة طيبة معها وكان ذلك كما أشرت أنت موضوعاً من أهم ما أنجزته عندما كنت وزيراً للخارجية .

بالطبع نحن نريد علاقات أفضل مع الاتحاد السوفيتي ونسعى لذلك »

وقلت مقاطعاً :

ـ سيادة الرئيس إن أحد معاونيك ذكر لي أن كوسيجين رئيس وزراء

الاتحاد السوفيتي قال لك صراحة عندما كنت في موسكو إن الاتحاد السوفيتي سوف يساعد الهند ضدكم في أي معركة بينها وبينكم » .

وقال بوتو :

ـ إن كوسيجين ذكر شيئاً يحمل هذا المعنى ، ولكن ذلك لا يهم . . . في العلاقات مع الدول الكبرى فإننا لا نستطيع أن ندخل في مواجهة بالتناطح ، أليس ذلك تعبيرك . . . إنني قرأت مقالاتك عن أسلوب إدارة الصراع بين القوى العظمى وبين القوى الصغرى وما زلت أذكر وصفك لأسلوب مصارع الثيران وأنا أوافق على تحليلك » .

قلت :

ـ سيادة الرئيس . . . لا تذكرني بذلك الآن لأن هذه المقالات أغضبت مني كثيرين » .

وقال بوتو :

ـ ولكنك كنت على حق.إن أحوال العالم تتغير ، ولا بد لنا أكثر من غيرنا أن نتفهم حقيقة المتغيرات في العالم لكي نستطيع أن ندير سياساتنا .

أعود إلى ما كنت أحدثك فيه .

نحن نريد علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتي ، ولكن الاتحاد السوفيتي يحاول الآن تنفيذ ما أسميه « حلف بريجنيف » وهو معاهدة للأمن في آسيا يعرضها على كل دولها .

لا أعرف لماذا يطالبون الآن بحلف بريجنيف وما هو هدفهم ؟

إن الصين مهما قالوا تريد علاقات أفضل مع الهند .

ونحن نريد تفاهماً أفضل مع الهند .

وإذن لماذا حلف جديد في آسيا . . . لماذا حلف جديد للأمن . . ؟

أمن من ضد من ؟

إن آسيا تستطيع أن تحل مشاكلها بالتفاهم وليس بالأحلاف .

يكفينا ما فعلته بنا الأحلاف . . . نحن كنا عضواً في حلفين في نفس الوقت .

سيّئ أن تكون أي دولة عضواً في حلف ، وأسوأ أن تكون عضواً في حلفين .

. . . إذا استطاعت اليابان ان تتفاهم مع الصين وهذا يحدث . . .

. . . وإذا استطاعت الهند أن تتفاهم مع اليابان وهذا محتمل . . .

. . . وإذا استطعنا أن نسوي مشاكل شبه القارة الهندية بيننا وبين الهند وهذا ما نسعى إليه . . .

إذن فلماذا أحلاف جديدة في آسيا .

لا نستطيع بالطبع أن ننسى أن الولايات المتحدة طرف في صراعات آسيا . لقد كانوا إلى وقت قريب غارقين في حرب فيتنام ولكن وقف إطلاق النار سوف يعطيهم مرونة كبيرة في الحركة .

إن أمريكا سوف تنسحب من فيتنام ولكني لا أتصور أن أمريكا سوف تنسحب من آسيا ، لا ماديا ولا سياسياً ، وأعتقد أنها بانتهاء حرب فيتنام سوف تكون أقدر على التأثير . وعلينا أن ننتظر كيف ستمارس أمريكا دورها الجديد .

اهتمامهم بالطبع وبالدرجة الأولى الآن على الناحيتين ... على بحر الصين حيث اليابان والصين ، وعلى الخليج ...

وابتسم بوتو وقال :

ـ ما هو الاسم الذي ترضونه الآن للخليج ... الخليج العربي أو الخليج الفارسي ؟ ألم تكن هناك مشكلة بينكم وبين الإيرانيين على تسميته ؟ » .

واستطرد :

ـ ذات يوم كنت أتحدث مع سوكارنو ... وقال لي سوكارنو إن العرب مصممون على أن الخليج ليس فارسياً ولكنه عربي ... ونحن لماذا نسكت على تسمية المحيط الهندي بهذا الاسم ... ونحن نقترح أن نسميه المحيط الهندي الإندونيسي الباكستاني .

وقلت لسوكارنو : هذا اسم طويل ولن يحفظه أحد » .

ويعود بوتو إلى سياق حديثه :

ـ ما هو الدور الذي ستقوم به الولايات المتحدة ؟

سؤال ما زال معلقاً .

المشكلة أن أمريكا تعتمد كثيراً على حسابات العقل الإلكتروني ولكن العقل الإلكتروني لم يجعل السياسة الأمريكية عظيمة ... كانت السياسة الأمريكية عظيمة في العصر الويلسوني [نسبة إلى مبادئ وودرو ويلسون] .

في السياسة لا بد من هذين العنصرين :

اتخذ حساباتك كما تشاء .

ولكن لا تنس عنصر الأخلاق .

ليس صحيحاً أن هناك تعارضاً بين الحسابات وبين الأخلاق .

لماذا نتصور مثل هذا التعارض أو التناقض ؟ » .

واستطرد بوتو :

ـ إذا انتقلت من هنا إلى الشرق الأوسط فاعتقد أن الولايات المتحدة قد تبدي اهتماماً بأزمة الشرق الأوسط .

لا أعرف من الذي سيتصدر للحديث معكم في هذه المشكلة .

ربما نحوا روجرز جانباً هذه اللحظة وأبرزوا كيسنجر .

لا أحد يستطيع أن يتصور من الآن ما سوف يحدث ولكني أتمنى أن تكونوا على حذر .

تذكروا أنكم أنتم في مصر أساس أزمة الشرق الأوسط .

لو لم تكن هناك مصر لم تعد هناك أزمة .

الأزمة موجودة لأن مصر موجودة تناضل عن الحقوق العربية » .

وقلت لبوتو :

ـ أريد أن أسألك إلى أي مدى يمكن عزل النزاعات المحلية عن تأثيرات القوى الأعظم ؟ » .

وقال بوتو :

ـ لديهم مفاتيح ولكنهم لن يتدخلوا من أجل غيرهم في أي صراع ساخن ولهذا يجب أن نعتمد على أنفسنا وهذا يستلزم فهماً عميقاً لقوانين

وموازين العصر » .

وعدت أسأل :

ـ هل توافق على الرأي الذي يقول إن هناك خمساً من القوى الأعظم في هذا العالم وفي هذا العصر ؟ »

وقال بوتو :

ـ أنا أعتبرها ثلاثاً فقط . . . القوة يجب أن تكون مسلحة بنظرية ، والنظرية يجب أن تكون مسلحة بقوة ، لهذا فإن القوى الأعظم في رأيي هي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين .

اليابان قوة اقتصادية ولكنها ليست فلسفة سياسية .

وأوربا الغربية قوة سياسية واقتصادية ولكنها لا تطرح على أحد شيئاً مثل « حلف نيكسون » أو « حلف بريجنيف » .

واستطرد بوتو :

ـ هل تعرف ؟ أنني أتصور أن المنطقة التي نعيش فيها من العالم . . . نحن وأنتم سوف تصبح أخطر مناطق الصراع لأنها منطقة متنازع عليها .

من هنا من الباكستان إلى المحيط الأطلسي منطقة هامة وخطيرة وغنية والصراع المقبل سوف يكون عليها

علينا أن نستعد وعلينا أن نفكر .

وأمامنا قرارات مهمة لا بد أن نكون مستعدين عندما تطرح نفسها علينا .

* * *

وعندما تركت الرئيس بوتو كنت أقول لنفسي :

ـ هو نموذج حي للذين تنتظرهم القرارات المهمة . . .

إن الظروف سوف تطرح عليه أسئلة بالغة الأهمية وعلينا أن ننتظر كيف يجيب عليها !

١ ـ كيف يستطيع أن يقود تجربته الجديدة في باكستان ويمنع الانقسامات الجديدة . . .

إن انفصال بنجلاديش لم يقض على باكستان وفي الحقيقة فإنهم في باكستان كانوا يعتبرون البنغال ملحقاً إضافياً ـ ولا أقول مجالاً حيوياً للاستغلال ـ وربما كان الدليل على ذلك اسم باكستان نفسه فلقد أخذوا له الحروف الأولى من أسماء أقاليمهم :

ب : من إقليم بنجاب .

أ : من إقليم أفغانستان [والمقصود به إقليم الحدود مع افغانستان] .

ك : من إقليم كشمير .

س : من إقليم سند .

تان : نهاية اسم إقليم نالوشستان .

وفي هذا كله لم ترد إشارة إلى حرف مأخوذ من إقليم البنغال . . . وبالتأكيد فإن باكستان الغربية تملك مقومات دولة تستطيع أن تعيش وحدها وأن تتقدم وتتطور والمشكلة هي مشكلة القيادة .

٢ ـ كيف يستطيع أن يصل إلى حل مع الهند وإلى حل مع بنجلاديش ؟

استمرار الصراع مع الهند استنزاف لا نهاية له لشبه القارة كلها .

وبنجلاديش حقيقة طبيعية وسياسية وقومية لا مجال لإنكارها وعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء .

٣ ـ كيف يستطيع خلال ذلك أن يحتفظ بوحدة أقاليم باكستان الغربية وخصوصاً إقليم الحدود وإقليم بالوشستان مع العلم بأن الأحزاب السياسية في الإقليمين تراودها على الأقل نزعات استقلال ذاتي .

٤ ـ ما هو دور الجيش الباكستاني في ذلك كله وهل هو متربص في الدهاليز كما يقول البعض أو أين هو تماماً ؟

٥ ـ كيف يستطيع أن يحدد دوراً لباكستان ؟

لقد انسحب من حلف جنوب شرق آسيا لأن اشتراكه فيه لم يعد له مبرر بعد انسلاخ البنغال الشرقية [بنجلاديش] ، ولكنه ما زال يحتفظ بعضويته في الحلف المركزي .

والحلف المركزي نشيط في الشرق الأوسط .

وأكثر من ذلك فإن باكستان بعد انسلاخ البنغال الشرقية أصبحت من دول الشرق الأوسط فعلاً .

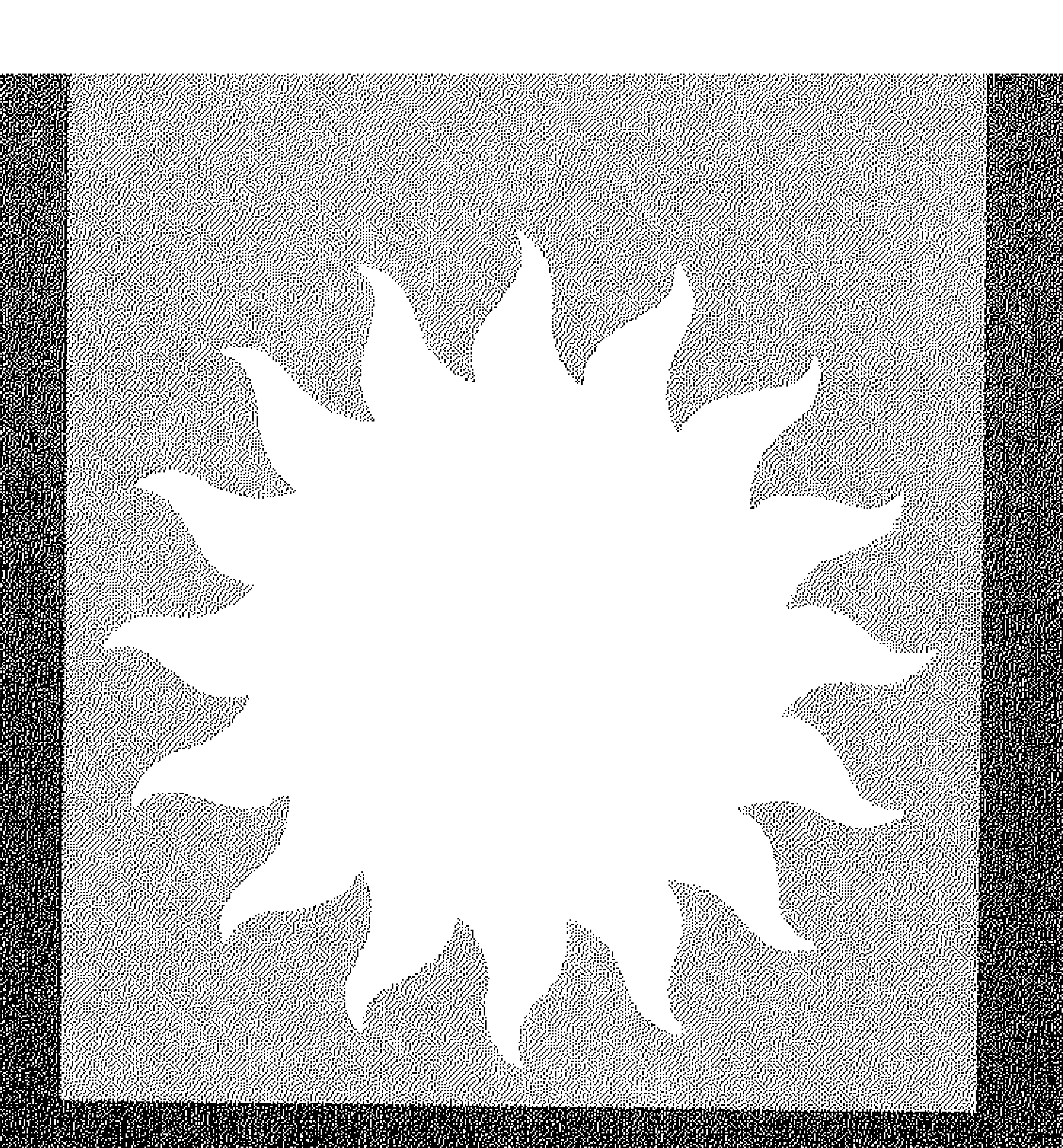
ومعنى ذلك أننا لا بد أن نتوقع لباكستان دوراً أكثر نشاطاً في شئون الشرق الأوسط وصراعاته .

* * *

وكان فكري كله وأنا أغادر قصر الرئاسة في راولبندي :

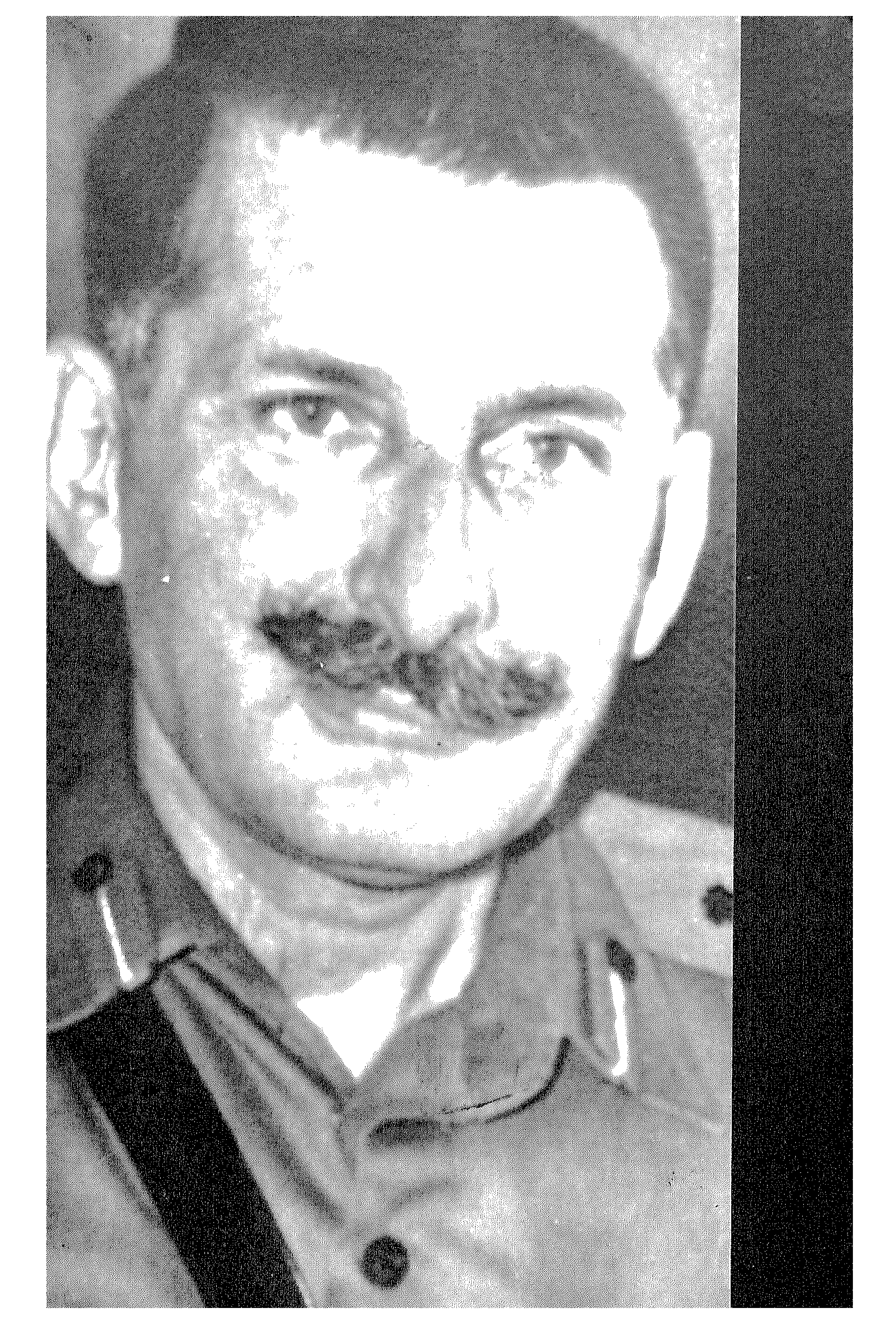
ـ ان باكستان قضية بالغة الأهمية بالنسبة لراسمي الاستراتيجية العربية وبالذات هنا في مصر .

تستحق اهتماماً كبيراً ... وتحليلاً عميقاً ... ثم حركة نشيطة قادرة على الخيال ، وعلى تحقيق الخيال في نفس الوقت ...



(الماريشال مانيكشو ...
الماريشال الذي انتصر)

الماريشال
الذي انتصر



لقد سعيت في شبه القارة الهندية إلى لقاء ضابطين كبيرين وضعتهما الظروف وجهاً لوجه في الحرب المحدودة والسريعة التي انفجرت في قلب آسيا مع الأيام الأخيرة من سنة ١٩٧١ .

* أولهما هو « الفيلد ماريشال مانيكشو » القائد العام للقوات الهندية، وكان النصر في تلك الحرب من نصيبه .

* وثانيهما هو « الجنرال تيكاخان » القائد العام للقوات الباكستانية ، وكانت الهزيمة في تلك الحرب من نصيبه .

والدول عادة لا تسمح للصحفيين بمناقشات مفتوحة مع قوادها العسكريين ، ومن هنا فانني أشعر بعرفان لا حدود له ، لأن السيدة أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند اتصلت بالماريشال مانيكشو وأذنت له أن يناقشني فيما أريد ، كما أن الرئيس ذو الفقار علي بوتو رئيس جمهورية

الباكستان فعل نفس الشيء مع الجنرال تيكاخان .

وهكذا قابلت الاثنين :

ـ الماريشال مانيكشو ، لمدة ثلاث ساعات ، في بيته ، وسط ثكنات قيادة المدرعات الهندية خارج دلهي .

ـ والجنرال تيكاخان ، لمدة ساعتين ونصف الساعة ، في مكتبه ، بمقر القيادة العليا للجيش الباكستاني في روالبندي .

* * *

كان اللقاء مع هذين الضابطين الكبيرين تجربة حرصت عليها وظننت أنها حلقة ضرورية في سلسلة الحرب الحديثة وتطورها وهو موضوع حرصت على أن أتابعه مرحلة بعد مرحلة ، وربما ساعدتني على ذلك ظروف العمل الصحفي خصوصاً في فترة من حياتي الباكرة قضيتها مراسلاً حربياً في ميادين قتال بعيدة وقريبة ، وكانت هذه الفترة هي التي تركت معي لهفة دائمة على متابعة كل شيء يتصل بالاستراتيجية العليا للدول بما في ذلك استخدام القوة المسلحة لتحقيق أهدافها في ظروف متغيرة ، وهكذا فإنني شاهدت وعشت عدة مراحل من تطور الحرب الحديثة ، حلقات بعد حلقات من السلسلة :

١ – مرحلة الحرب لتحقيق النصر بقوة السلاح وبلا قيد أو شرط ، وكانت الحرب العالمية الثانية آخر النماذج ـ ربما في التاريخ ـ لهذا النوع من الحروب .

وقابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة في الغرب وبينهم الجنرال أيزنهاور الذي قاد غزو الحلفاء لأوربا التي سيطرت عليها النازية ، والماريشال مونتجمري الذي اشتهر بحربه في الصحراء ضد روميل ،

والماريشال آلان بروك الذي كان رئيساً لهيئة أركان الحرب الإمبراطورية وكان مسئولاً عن الاستراتيجية البريطانية في الحرب العالمية الثانية ، والجنرال ماك آرثر الذي خاض معارك المحيط الهادي حتى خضعت اليابان وركعت .

كذلك قابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة في الشرق وبينهم الماريشالات سوكولوفسكي وروكوسوفسكي وماليونوفسكي وجريتشكو .

٢ – مرحلة الحرب الساخنة في عصر الحرب الباردة ، وكانت هذه مرحلة غريبة في قصة الحرب الحديثة بدأت معظم معاركها بغير إعلان وانتهت إلى غير نتيجة وكانت حرب كوريا من أبرز نماذجها .

وقد قابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة وبينهم في كوريا بالذات الجنرالات فان فليت وماكسويل تايلور [صاحب كتاب النفير المختنق الذي ألقى أضواء قوية على احتمالات الحرب المحدودة في عصر الردع النووي] ثم الجنرال الفرنسي بوفر وكان من أبرز قواد حملة السويس سنة ١٩٥٦ .

٣ – مرحلة احتمال الحرب النووية وهي مرحلة لم تجرب قط ، فقد أطلت ثم توارت بعد أن تبين أن تطور وسائل نقل الأسلحة النووية يجعل للضربة الثانية قوة قتل لا تقل عن الضربة الأولى ومن ثم تحققت استحالة هذه الحرب وتأكد معها أن الصدام المسلح المباشر بين القوى الأعظم غير مطروح على الإطلاق لأن الصراع حتى إذا بدأ بالأسلحة التقليدية فسوف ينقلب نووياً في أية لحظة .

وقد قابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة التي ظلت باستمرار فكراً وفلسفة،وربما كان أشهر هؤلاء الجنرال الفرنسي بيير

جالوا صاحب الكتاب المشهور « ميزان الرعب » !

٤ – مرحلة إمكانية الحرب المحدودة بين القوى العادية والصغرى ـ وبتأييد سياسي من القوى الأعظم ـ وهي حرب تجري في ظل موازين دولية ومحلية معقدة ، وتتطلب اشتراطات خاصة لخوضها والنجاح فيها ، وكانت الحرب الهندية الباكستانية أشهر وأقرب نماذج هذا النوع من الحروب .

ومن هنا كان حرصي في شبه القارة الهندية هذه المرة أن أقابل نجومها .

الماريشال مانيكشو الهندي .

والجنرال تيكا خان الباكستاني .

كان تصوري ، أنه إذا كانت الظروف لم تسمح لي أن أشاهد هذه المرحلة من تطور الحرب بنفسي ـ فلا أقل من أن أسمع التجربة كما يرويها أصحابها على الناحيتين .

* * *

كان « الماريشال مانيكشو » مفاجأة كاملة لي عندما وجدته واقفاً على باب بيته وسط ثكنات قيادة المدرعات خارج دلهي .

بشرة بيضاء مشربة بحمرة ، قامة ممشوقة ، ابتسامة مرحة من أول لحظة ، نشوة عصفور في عينيه ، ملابسه العسكرية أنيقة بسيطة ، بصلون ، قميص شمر أكمامه إلى ما فوق المرفق ، عصا ماريشالية تحت إبطه .

وقال لي على الفور :

ـ لماذا تريد أن تقابل جندياً انتهت قصته ؟ » .

قلت بسرعة :

ـ لأنها مرحلة في تطور الحرب أريد أن أسمعها منه ؟ » .

وتأبط ذراعي بسرعة واستدرنا داخلين إلى البيت وهو يقول :

ـ تعال أولاً أقدمك إلى زوجتي ... وأحذرك منذ البداية أنها السلطة العليا في هذا البيت » .

وكانت زوجته ، سيدة رقيقة جذابة ، تمسك في يدها بصينية عليها إناء قهوة ومجموعة فناجين وقالت ضاحكة :

ـ انتظر حتى أضع ما في يدي على المائدة » .

واستطردت تؤكد سلطتها العليا في البيت :

ـ أين ستجلسان .. ؟ هنا في هذا الركن ... هذا أفضل » .

وتطلعت إلى عصا الماريشالية يسحبها من تحت إبطه ويمسكها بيديه بعد أن جلس ، ثم تطلعت إلى علامة الرتبة العالية على كتفيه وقلت له :

ـ ماريشال مانيكشو ... أظنك أول قائد عسكري في العالم النامي كله يحصل على رتبة « فيلد ماريشال » في ميدان قتال وبعد معركة كان له فيها النصر ... ربما كان هناك ماريشالات كثيرون غيرك ، ولكن رتبهم سياسية وهذه كارثة من كوارث العالم النامي خصوصاً عندما يقرر هؤلاء الماريشالات السياسيون أن يقودوا جيوش بلادهم في العمليات فعلاً ... إذا كانت الرتب العسكرية لهؤلاء لمجرد الزينة أو لإضفاء جو المهابة عليهم فلست أمانع ... لكن المشكلة تنشأ حينما يصدق هؤلاء ما تقول به علامات الرتب بغض النظر عما تقول به الحقيقة ؟ » .

وقال الماريشال مانيكشو بمرح ، ونشوة العصفور في عينيه مرة أخرى :

ـ ومع ذلك تصور أن المقادير فرضت علي أن أتلقى أوامري من امرأتين :

زوجتي في البيت ...

ورئيسة الوزراء في المكتب .

اثنتان فقط لهما سلطة إصدار الأوامر لي في الهند .

زوجتي عملياً .

ورئيسة الوزراء دستورياً .

امرأتان في النهاية تأمران ... وفيلد ماريشال يطيع » .

ورحنا نضحك جميعاً ، وكل منا يمد يده ليأخذ فنجان قهوته في جو شديد الألفة من أول لحظة .

وبدأ يتحدث عن مصر وسألته :

ـ هل زرتها ؟ » .

قال :

ـ بعد انتهاء الحرب مررت بمطار القاهرة ذاهباً إلى لندن لألقي عدة محاضرات ... قضيت في مطار القاهرة ساعتين ...

والدي عرف مصر أكثر ... خدم مع القوات البريطانية في الحرب العالمية الأولى طبيباً في الجيش البريطاني ... قضى في مصر خمس سنوات ما بين سنة ١٩١٤ و١٩١٩ ... كان ذلك قبل زماني وزمانك .

لكني عرفت بعض « أولادكم » جاءوا إلينا يدرسون في كلية الدفاع الهندي وكنت قائداً لهذه الكلية ... كان بعض « أولادكم » أيضاً يدرسون في كلية أركان الحرب » .

قلت :

ـ فيلد ماريشال ... دعنا نترك الماضي والذكريات ... إنني مهتم بحربك في شبه القارة الهندية ... حدثني عنها ؟ » .

وقال الجنرال مانيكشو :

ـ كانت الحرب قصيرة ودامية ... سريعة وحاسمة » .

قلت :

ـ أريد أن أعرف ما هو أكثر من هذه الأوصاف ... الحرب التي خضتها أنت حرب مهمة لأكثر من سبب :

لقد جرت في ظل موازين القوى النووية .

وجرت في ظل سياسة الوفاق بين القوتين الأعظم .

وجرت بين قوتين متوسطتين في العالم النامي .

وكانت حرباً محدودة وصلت إلى نتيجة سياسية محددة .

عندما أقول محدودة فلست أعني أنها كانت نصف حرب ... أو أنها كانت في نصف ميدان ، ذلك شيء لا تعرفه الحروب إطلاقاً في أي عصر وفي أي ظرف ... وعندما يبدأ استعمال القوة المسلحة فإن الأطراف يستخدمونها إلى آخر ما يملكون منها وفي أي مكان .

الحرب المحدودة بالمعنى الذي أعنيه حرب تستهدف تغيير أوضاع

سياسية قائمة وخلق أوضاع أخرى بدلاً منها ملائمة .

أقصد أنها ليست بالمعنى القديم محاولة لفرض إرادة طرف فرضاً مطلقاً وبلا قيد أو شرط على طرف آخر ... مثل ذلك صعب في العصر الحديث وأحكامه وموازينه .

ما أقصده هو بالضبط ما قلته : كسر وضع قائم وخلق وضع ملائم ،

لا أريد أن أطيل في السؤال وإنما أردت أن أضع أمامك ما أتصور لكي يكون سؤالي واضحاً » .

وقال الماريشال مانيكشو :

ـ واضح ما تقول ... وسوف أجيب عليك » .

واستطرد يقول :

ـ نحن نعيش في ظل توازن دولي معين لا نستطيع أن ننساه لأنه يؤثر في حركتنا .

والقوى الأعظم مهتمة بما يجري على أرضنا سواء سمحنا لها بذلك أو لم نسمح ... هذه أوضاع العالم المعاصر .

لكن ذلك لا ينبغي له أن يشل قدراتنا وإنما هو يفرض علينا حسابات أدق .

وبالنسبة لي شخصياً كان أهم شيء هو وضوح التوجيه الصادر إلي من قيادتي السياسية ، وأعترف لك أنني كقائد عسكري كنت سعيد الحظ لأن رئيسة الوزراء كانت شديدة الوضوح في توجيهاتها الصادرة إلي .

لقد حددت لي كتابة طلباتها مني ...

قالت لي في توجيهاتها في بداية سنة ١٩٧١ ما يلي :

(١) إن هناك موقفاً ينشأ في البنغال لا تستطيع الهند أن تتحمله طويلاً وسبب هذا الموقف هو تدفق اللاجئين بالملايين من شرق البنغال ـ بنجلاديش ـ إلى غرب البنغال في الهند .

(٢) إن الهند تستطيع تحمل هذا الموقف وأعبائه الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لمدة تتراوح ما بين عشرة شهور إلى سنة ولكن هذا الموقف إذا طال أكثر من ذلك فسوف يكسر ظهر الهند .

(٣) علي أن أكون في هذه الفترة مستعداً لعمل مسلح هدفه بالتحديد هو فتح باب العودة أمام هؤلاء اللاجئين ليعودوا إلى أرضهم التي طردوا منها ، أو هربوا منها بسبب الإرهاب .

(٤) في هذه الفترة فإن حكومة الهند سوف تفعل قصارى جهدها لإيجاد مخرج سلمي من هذا الموقف الصعب وفي هذا السبيل فإنها سوف لا تكف عن شرح سياستها للقوى الكبرى وللرأي العام العالمي ، كما أنها ستظل على اتصال نشيط بالأطراف المباشرين في هذا الموقف .

(٥) إذا لم تنجح هذه المساعي كلها فإن الأمر سوف يصدر إلي بالعمل،وبسبب الأوضاع الدولية فإن الفرصة التي سوف تكون متاحة لي هي فترة تتراوح ما بين ثلاثة أسابيع إلى أربعة أسابيع،وبالتالي فإن علي أثناء إعداد خططي أن أراعي تحقيق الهدف في إطار هذه المدة » .

* * *

واستطرد الماريشال مانيكشو : « على هذا النحو ، وبهذه التوجيهات ، كانت كل الأمور واضحة .

التوجيهات صدرت إلي من قيادة سياسية تمثل إرادة شعب الهند .

وهذه القيادة حددت لي طلبها مني بدقة كاملة .

وما طلبته من احتياجات يجري توفيره في حدود إمكانيات الهند .

وحكومتي مسئولة بعملها السياسي عن التعامل مع حركة التوازنات الدولية .

ثم إن هذه الحكومة مسئولة أيضاً عن خلق الظروف المواتية للمهمة التي كلفتني بها .

بهذا الشكل أصبح دوري محدداً في ثلاث نقط :

ـ كان علي أن أضع خططي .

ـ وكان علي أن أقرر احتياجاتي .

ـ وكان علي أن أعد قواتي نفسياً وعسكرياً لتنفيذ ما كلفنا جميعاً به .

وليست هذه كلها أموراً صعبة ، ولقد ساعدني إلى أقصى مدى أنني كنت أعرف الإجابة على سؤالين لا بد أن يعرفهما أي قائد عسكري :

ـ النقطة الأولى : طبيعة الأرض التي تدور عليها الحرب .

ـ النقطة الثانية : طبيعة الخصم الذي تدور ضده الحرب » .

واستطرد الماريشال مانيكشو : « طبيعة الأرض كنت أعرفها .

إنني كنت قائداً للجيش الشرقي لمدة ٤ سنوات وذلك قبل أن أتولى منصب القائد العام للجيش الهندي .

حينما كنت قائداً للجيش الشرقي لم يكن لي عمل إلا قراءة الخرائط ، ولم أكن أكف عن التفكير في احتمالات ما يمكن أن يحدث لو نشبت

الحرب بيننا وبين باكستان ، وأحياناً كنت أغمض عيني وأتذكر حتى في الظلام كل خريطة باكستان الشرقية ... السهول والأنهار والمدن ... كانت الصورة ماثلة في ذهني طول الوقت وبكل التفاصيل .

من هنا كان سهلاً على أن أتصور الخطة وأتصورها على الأرض فعلاً .

أما عن الخصم فلعلك لم تنس أننا كنا ، نحن وجيش الباكستان ، جيشاً واحداً .

أنا شخصياً كنت أنتمي إلى لواء موجود الآن في باكستان وعندما وقع تقسيم الهند فقد تفرقنا ... بعضنا جاء إلى هنا وبعضنا الآخر ذهب إلى هناك .

كان يحيى خان [رئيس باكستان وقت الحرب] يعمل تحت رئاستي سنة ١٩٤٥ ... كنت أنا كولونيل [عقيد] وكان هو ماجور [رائد] .

وربما كانت معرفتي الشخصية بيحيى خان هي التي جعلتني واثقاً من أنه سوف يعطيني الفرصة التي أنتظرها .

وتوقف الماريشال مانيكشو عن الحديث لحظة ثم ابتسم وهو يقول :

ـ هذه مسألة أخرى ! »

وقلت :

ـ لماذا توقفت عن الحديث ؟ »

وقال الماريشال مانيكشو :

ــ لم أتوقف عن الحديث ولكني لم أكن أريد أن أقفز فوق سياقه المنطقي .

إنني أعتقد أن يحيى خان بغبائه الشديد أعطاني الفرصة التي كان من الصعب على أن أتصرف بغيرها .

سوف أقول لك كيف ...

في الفترة من بداية سنة ١٩٧١ إلى نهاية شهر نوفمبر ١٩٧١ كان كل شيء قد وصل إلى مكانه .

الشعب لدينا معبأ بالكامل خلف قيادته .

القيادة السياسية للهند أدارت علاقاتها جيداً بين خطوط التوازن الدولي .

هذه القيادة أيضاً شرحت موقفنا للقوى المتعددة وللرأي العام العالمي الذي أصبح يتفهم موقفنا بوضوح خصوصاً بعد ما ظهرت أبعاد المذبحة في بنجلاديش .

خططي كلها معدة ، وما طلبته لها تم توفيره .

قواتي تعرف تماماً ما هو مطلوب منها .

كل ذلك تحقق وفي نفس الوقت فإن المهلة المعطاة لي كي أتصرف قد أوشكت أن تنتهي ...

... في نوفمبر ١٩٧١ كان قد مضى على التوجيهات السياسية الصادرة إلي في بداية السنة ما يقرب من تسعة شهور أو عشرة .

تتذكر أنني قلت لك إن توجيهات رئيسة الوزراء كانت بأن الهند

تستطيع تحمل عبء الموقف الناشئ من تدفق اللاجئين إليها ما بين عشرة شهور إلى سنة واحدة .

حسناً ... الشهور العشرة كانت على وشك أن تنتهي .

ماذا سنفعل ؟

ما هي النقطة التي سوف نتدخل عسكرياً عندها ؟

كان هذا سؤالاً هاماً في أذهاننا جميعاً .

كنا نناقشه في اجتماعاتنا مع القيادة السياسية ومع هيئة أركان الحرب .

وقلت لهم ذات مرة :

ـ اطمئنوا ... لا تشغلوا أنفسكم بذلك ... إن يحيى خان سوف يعطينا ما نطلب دون أن يدري .

هو كذلك كما عرفته شديد الغباء ...

وفي أي لحظة فإنه سوف يرتكب تصرفاً ظاهر الحمق ولحظتها نتصرف » .

واستطرد الماريشال مانيكشو :

ـ في اشتراطات الحرب الحديثة وفي ظروف الموازين القائمة فإنه من أهم العناصر التي تخدم أي طرف في وضع خطته موضع التنفيذ ـ أن يترك خصمه يرتكب أول خطأ فاضح أمام العالم .

دعه يتورط ... دعه يتهور ... دعه يقع في الحماقة كلها وهذا سيعطيك العذر لأن تضرب بقسوة .

حماقته سوف تبرر قسوتك .. وربما تغفرها أيضاً » .

وضحك الماريشال مانيكشو من قلبه ورقصت في عينيه مرة أخرى نشوة العصفور وقال :

ـ ارتكب يحيى خان حماقته التي كنت أنتظرها .

لم أكن أعرف ما سيفعل بالضبط ولكني كنت واثقاً أنه لن يمسك أعصابه ... وهكذا فعل مساء ٣ ديسمبر ١٩٧١ حين أمر بشن هجوم على مواقعنا في الغرب بالطيران .

كانت الساعة السادسة إلا ربعاً في المساء حين أغارت طائراته بأمر منه على مواقعنا في الغرب .

كان يتصور أنه بذلك يخفف الضغط عن قواته في الشرق .

كانت قواته في الشرق معرضة لضربات الثورة في بنجلاديش وكانت حشود قواتنا في الشرق تضغط بمجرد وجودها هناك وكان ضغطها محسوساً .

وحينما تلقيت أنباء الضربة الجوية وكانت شيئاً قدرنا احتمال وقوعه وأخذنا احتياطنا له فإنني اتصلت بمكتب رئيسة الوزراء ولكنها كانت تتحدث في هذه اللحظة في اجتماع شعبي في كلكتا .

وزير الدفاع كان في مهمة في الخارج ... وزير الخارجية أيضاً .

كنت على هذا النحو مسئولاً عن لجنة الدفاع وقائداً عاماً ولهذا اتخذت بعض القرارات السريعة حتى اتصلت بي رئيسة الوزراء فأخذت موافقتها على ما اتخذت من قرارات في إطار خطتنا وتلقيت إشارتها بالانطلاق» .

* * *

وطلب الماريشال مانيكشو من زوجته مزيداً من القهوة لنا ثم استطرد :

ـ كنت أدرك أنها ستكون معركة دامية ولكننا سوف نحقق هدفنا .

سوف تكون معركة دامية لأني أعرف الجنود الباكستانيين .

مقاتلون شجعان بغير جدال وفي المعارك فإنهم سوف يكونون في منتهى الشراسة .

لكني كنت واثقاً أن الحرب سوف تنتهي لصالحنا لأني كنت أعرف القيادة الباكستانية .

الشجاعة في المعارك شيء .

ونتيجة الحرب شيء آخر .

إذا كانت الشجاعة في المعارك تتصل بشراسة الرجال فإن نتيجة الحرب تتصل بالفكر السياسي والعسكري الذي يقود .

كان الفكر السياسي العسكري الباكستاني مرتبكاً .

ونتيجة ذلك أن اقتناع القوات بما هو مطلوب منها كهدف كان مهتزاً .

كانت السيطرة ضعيفة وخطوطها واهية .

والسيطرة لا تجيء من لغة الأوامر ولكن تجيء من سلامة هذه الأوامر نفسها وصدورها عن قيادة مقتنعة وقادرة على الإقناع » .

وعادت الابتسامة عريضة إلى وجه الماريشال مانيكشو وهو يقول :

ـ كانت خططنا جيدة .

وكانت توقيتاتنا مضبوطة .

ولم يكن يهمني أن تكون حربنا في عناوين الصفحات الأولى من الجرائد .

لو كان ذلك يهمني لحاولت دخول المدن الكبرى في طريقنا .

ولكنني حرصت على أن أتفادى دخول المدن تماماً .

المدن مغرية لأن سقوطها يصنع دوياً إعلامياً .

ولكن المدن قادرة على ابتلاع الجيوش ... وعلى أكل الجنود .

إذا دخلت مدينة كبيرة فقد ضيعت فرقة لتأمينها .

وإذا دخل جنودي المدينة فإن مغرياتها سوف تناديهم إلى البقاء في راحتها وهذا خطر .

المدن سهلة ... تستسلم بسرعة وتملأ عناوين الصحف .

لكني تفاديتها تماماً في خطتي » .

* * *

وقلت للماريشال مانيكشو :

ـ أريد أن أسألك بصراحة ... هل استفدت من تجربة حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط ... هناك كثيرون من النقاد العسكريين يرون أنكم استفدتم كثيراً منها » .

وقال الماريشال باستقامة واضحة :

ـ بالتأكيد درستها ... إن الجندي الذي لا يدرس ولا يستفيد من

دروس حروب أخرى في التاريخ أو في زمانه لا يستحق أن يكون جندياً .

درستها ... ودرست حرب الأيام الستة باهتمام يشبه اهتمام الطبيب الجراح الذي يسمع عن عملية جراحية جديدة ويريد أن يعرف كيف جرت » .

قلت :

ـ ماريشال مانيكشو ... سوف أسألك سؤالاً أكثر صراحة ...

ما هو في رأيك الخطأ الذي وقعنا فيه ؟ » .

وقال الماريشال :

ـ لقد قرأت لك بعض مقالاتك ... وأشعر أنك تعرف .

ومع ذلك ولكي لا تتصور أنني أتهرب من الرد عليك فسوف أقول لك عن خطأ أحسست به في دراستي لحرب الأيام الستة .

الخطأ أنكم لم تحتفظوا بأعصابكم حتى بعد أن جاءت ضربة الطيران مفاجئة لكم .

الأعصاب التي كانت تقود المعارك عندكم اهتزت بسرعة .

هناك درس يجب أن نتعلمه في الحرب دائماً .

إنك قد ترى المسائل تسير في اتجاه خاطئ بالنسبة لك .. ولكن لا تفقد أعصابك ... تأكد أن هناك أخطاء أخرى فظيعة لدى عدوك .

إذا وجدت نفسك في وضع حرج فليس معنى ذلك أن عدوك في وضع آمن .

عندما كنت أسمع عن بعض الأخبار السيئة من الجبهة أثناء حربنا ،

كنت أقول لنفسي :

ـ ليكن ... إنها أسوأ على الجانب الآخر .

كان من الخطأ أن تتصوروا أنكم هزمتم لأن القوات الإسرائيلية تقدمت بسرعة في أول يوم .

تقدمهم السريع كان يمكن أن يكون مصدر خطر كبير عليهم لو أن قيادة المعركة عندكم لم تفقد أعصابها .

كان يجب أن توجهوا إليهم الضربة المضادة عندما امتدت خطوطهم بسرعة مع تقدمهم السريع ... بدلاً من ذلك فإن قوادكم فقدوا الثقة في أنفسهم .

لماذا .. ؟ !

كان ذلك خطأ في رأيي .

أؤكد لك أن الإسرائيليين كانوا في دهشة للطريقة التي تصورت بها قيادتكم العسكرية في وقت مبكر من المعركة أنها خسرتها .

كان في استطاعتكم أن تضعوهم في مأزق حقيقي لو أن أعصابكم بقيت متماسكة » .

* * *

وسكت الماريشال مانيكشو ثم قال وهو يبتسم :

ـ لنترك حرب الأيام الستة لا داعي لأن نتحدث طويلاً فيها ... دعنا نعد إلى شبه القارة الهندية .

كانت الحرب كما قلت لك دامية سريعة وحاسمة .

في اثني عشر يوماً كان كل شيء قد انتهى .

وأدرك الجنرال نيازي المسكين [القائد المحلي في بنجلاديش] أن عليه أن يستسلم للقوات الهندية وإلا فإنه سوف يذبح إذا وقع في يد المقاومة الشعبية في بنجلاديش » .

قلت :

ـ هل قابلت الجنرال نيازي ؟ » .

قال :

ـ لقد حرصت على ألّا أقابله ، تركت الجنرال جاكسون يقابله ..

إنني أمليت شروط الاستسلام وقلت لجاكسون اطبعها من ٥ نسخ واحصل على توقيع نيازي عليها .

وقد فهمت أن الجنرال نيازي أحس بالراحة لأن الكابوس كله انتهى بالنسبة له ... مسكين نيازي لم يكن لديه التكوين العسكري أو المزايا التي تؤهله ليكون قائداً لقوات بهذا الحجم الذي وضع تحت إمرته .

أنا لا أعرفه جيداً ... بعض معاوني يعرفونه ، ولكني درست شخصيته ... إن أي قائد عسكري يجب أن يدرس نوعية قيادات الطرف الآخر ... وكان نيازي من كل ما عرفت عنه « رجلاً طيباً » ولكني لا أحب ذلك الوصف ... « الرجل الطيب » لا يصلح لأن يكون قائداً عسكرياً ممتازاً .

عندما يقولون لي عن إنسان أنه « رجل طيب » فأنا أقول : إذن فسوف أقابله في حفل كوكتيل ولكني لا أستطيع أن أحارب معه .

لا بأس « برجل طيب » معي في رحلة بسيارة ... ولكني بالتأكيد

لا أريد « رجلاً طيباً » معي في نفس الدبابة » .

* * *

وتطرق الحديث إلى موضوعات شتى .

شبه القارة الهندية وعلاقات القوى فيه ، وتأثره وتأثيره بما يجري في آسيا كلها ، دور الصين واليابان والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بالقرب من الهند ومن حولها ، موازين العالم المتحركة والمتغيرة والقوانين الجديدة للصراع الدولي .

وعند نقطة من الحديث سألت الماريشال مانيكشو :

ـ ان الاتحاد السوفيتي بالقرب منكم دولة نووية ، والصين أصبحت هي الأخرى دولة نووية ، وليس هناك من يستطيع أن يمنع اليابان من صنع « القنبلة » في أي وقت تشاء ... والهند أين هي في هذا السباق ؟

وقال الماريشال مانيكشو :

ـ إن الهند لديها الإمكانيات لكي تصبح دولة نووية ... لدينا العلماء والمواد الخام ، وعندنا الموارد ولكن السؤال هو :

ـ ماذا سنستفيد من ذلك ؟

كما ترى فإن التخلف شديد في بلادنا والفقر رازح .

وإذا حاولنا إنتاج القنبلة الذرية فإن الثمن الذي سندفعه سوف يكون فادحاً .

قد يبدو لك هذا الكلام غريباً من رجل عسكري خصوصاً إذا تذكرت اننا نحن العسكريين مغرمون دائماً بالأسلحة المتطورة نفس

غرام الأطفال باللعب الجديدة .

ولكني أقول لك بأمانة إنه إذا سألتني رئيسة وزرائي يوماً وقالت لي :

ـ هل تريد قنبلة ذرية ؟

فإنني سأقول لها :

ـ سيدتي ... هل تستطيع الهند أن تتحمل نفقات إنتاج هذه القنبلة الملعونة ؟ .. وماذا سيحدث لفئات الشعب ؟ .. شكراً لك يا سيدتي ولكنها لن تنفعنا في شيء ...

ربما تزيد هيبتنا ولكنها لن تحل مشاكلنا لأنه يصعب علي أن أرى ظروفاً يصبح فيها استخدام القنبلة الذرية ممكناً .

الصين لديها « القنبلة » .

وإذا صنعناها نحن فإن باكستان سوف تستميت لكي تكون لديها هي الأخرى « قنبلة » .

وما هي النتيجة ؟ .

سلاح لن يستعمل قط .

* * *

قلت للماريشال مانيكشو :

ـ إن هذا سوف يجرنا إلى نقطة هامة ... الحرب في العصر الحديث ... كيف تجري وما هي ضوابطها ؟ » .

وقال الماريشال مانيكشو :

ـ نستبعد أولاً الحرب بين الدول الأعظم ... إنني لا أتوقع حدوث مواجهات عسكرية بينها ... لا مواجهات شاملة ولا مواجهات محدودة ... المواجهة العسكرية الشاملة مستحيلة ... والمواجهة المحدودة لا يمكن أن تبقى محدودة بل إن الجحيم سوف يتفجر من أول لحظة .

حتى بين الاتحاد السوفيتي والصين لا أتصور حدوث مواجهة عسكرية .

الصين لن تهاجم لأنها لن تعبر حدودها ...

والسؤال هو : هل تقدم روسيا على مهاجمة الصين ؟

رأيي أن ذلك أيضاً صعب ... على الأقل أشك في أن الروس يمكن أن يقبلوا مغامرة خطيرة على هذا النحو .

نأتي إلى الدول المتوسطة والصغرى ...

هذه الدول لا تملك إلا الأسلحة التقليدية .

وما لديها من هذه الأسلحة مرتبط بعطاء الدول الكبرى مهما كان شكل هذا العطاء ... معونات ... عقود توريد أي شيء .

الدول المتوسطة والصغرى سوف تحدث فيما بينها مواجهات عسكرية

لأن الأوضاع والموازين بينها لم تستقر بعد ثم إن هناك دواعي للاحتكاك متعددة ومتنوعة .

وإذا أرادت الدول المتوسطة والصغرى أن تقاتل فإنها تستطيع ولكن عليها أن تؤمن مجموعة من العوامل :

عليها أن تتأكد من حركة الميزان الدولي لصالحها عموماً .

وعليها أن تتأكد أن وجهة نظرها واضحة للعالم تعطيها المبرر للحركة وتضمن لها تأييد أصدقائها .

ثم إن عليها أن تتأكد مما لديها فعلاً من الأسلحة ومن مخزن الذخائر .

ـ وعليها أن تكون مستعدة بصناعاتها الحربية تعطيها أقصى ما يمكن لها الحصول عليه داخل حدودها ... لأن إمدادها وقت الحرب سوف يكون صعباً إزاء تعرض المواني والمطارات والسكك الحديدية وإلا فإن هذه الدول سوف تكتشف في لحظة أنه ليس في يدها غير القوس والسهم .

هنا مسألة أخرى يجب ألَّا ننساها .

إن الدول العظمى سوف تمد الدول المتوسطة والصغرى بالأسلحة قبل الحرب ، وسوف تؤيدها بالبيانات أثناء الحرب ، ولكنها من أول لحظة في نشوب القتال سوف تسعى إلى إيقافه بالتعاون مع القوى العظمى الأخرى ، وهذا يفرض على من يريد أن يخوض من القوى المتوسطة

والصغرى حرباً ـ أن يجعلها حرباً محدودة ليس فقط في هدفها ولكن أيضاً في مدتها .

لا بد أن يكون هناك نوع من التوقيت تضعه مثل هذه الدول أمامها وتقرر في إطاره ، ومقدماً أنها قادرة على تحقيق أهدافها .

إن تجربة حرب فيتنام ونهايتها كما رأيناها تثبت أمامنا أن أياً من الدول العظمى لن تقدم بعد الآن على إرسال قوات مسلحة لها خارج حدودها .

وعلى أي حال فإننا جميعاً يجب أن نتابع بيقظة دور القوى الأعظم في صراعاتنا خصوصاً عندما تصل إلى حد حمل السلاح » .

واستطرد الماريشال مانيكشو :

ـ إنني أصل إلى ما هو أبعد ... في سنوات قلائل فإن الحرب المحدودة نفسها سوف تصبح صعبة .

أنا أقول إنه من الناحية النظرية فإن هذه الحرب صعبة من الآن فعلاً ...

ولكن هناك قضايا معلقة ، وسوف يصبح فيها استعمال القوة ضرورياً .

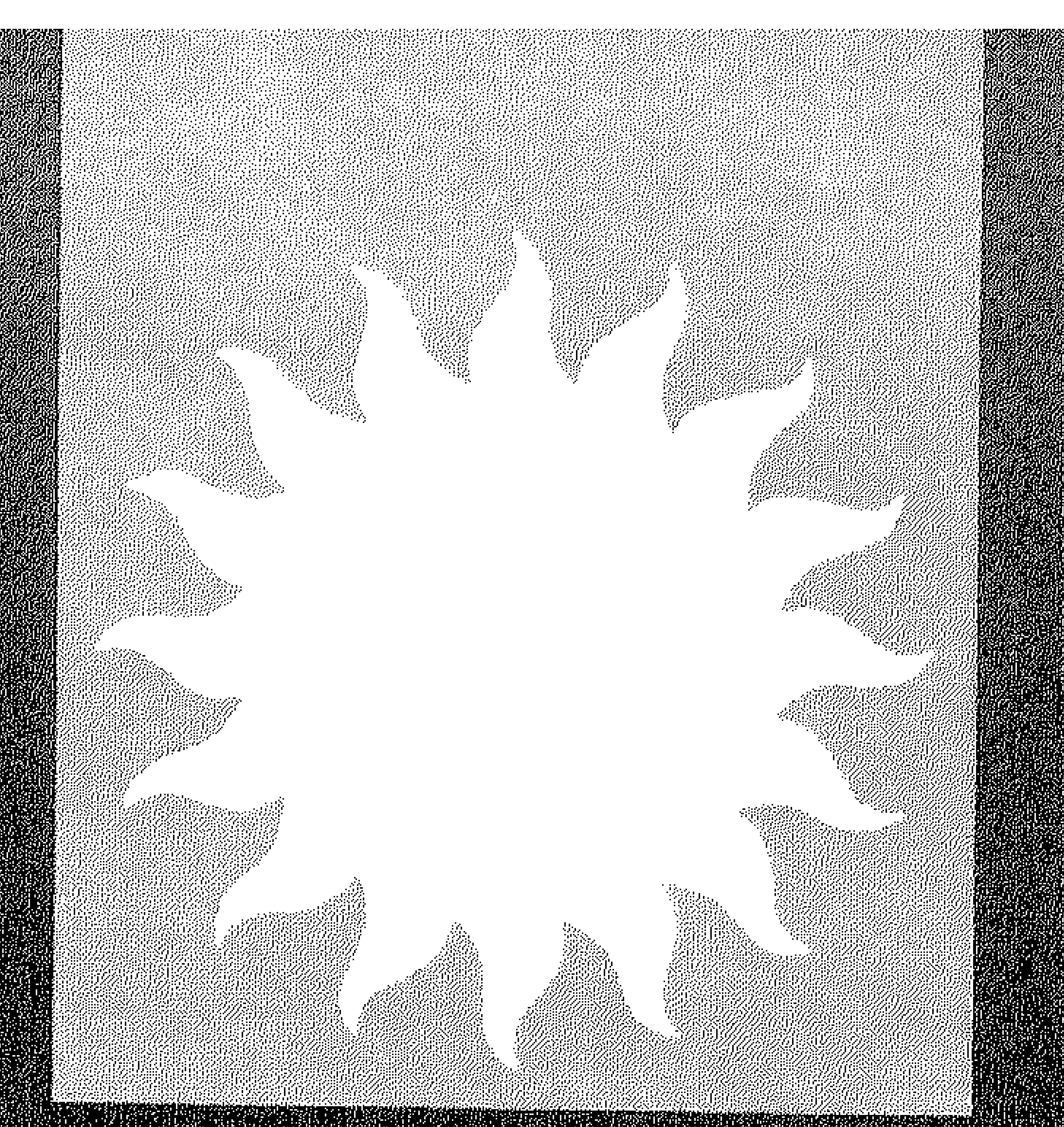
ثم إن الأمور تتوقف باستمرار على الرجل الذي يتخذ القرار » .

وقلت للماريشال مانيكشو باسماً :

ـ لماذا تقول « الرجل » الذي يتخذ القرار ؟ » .

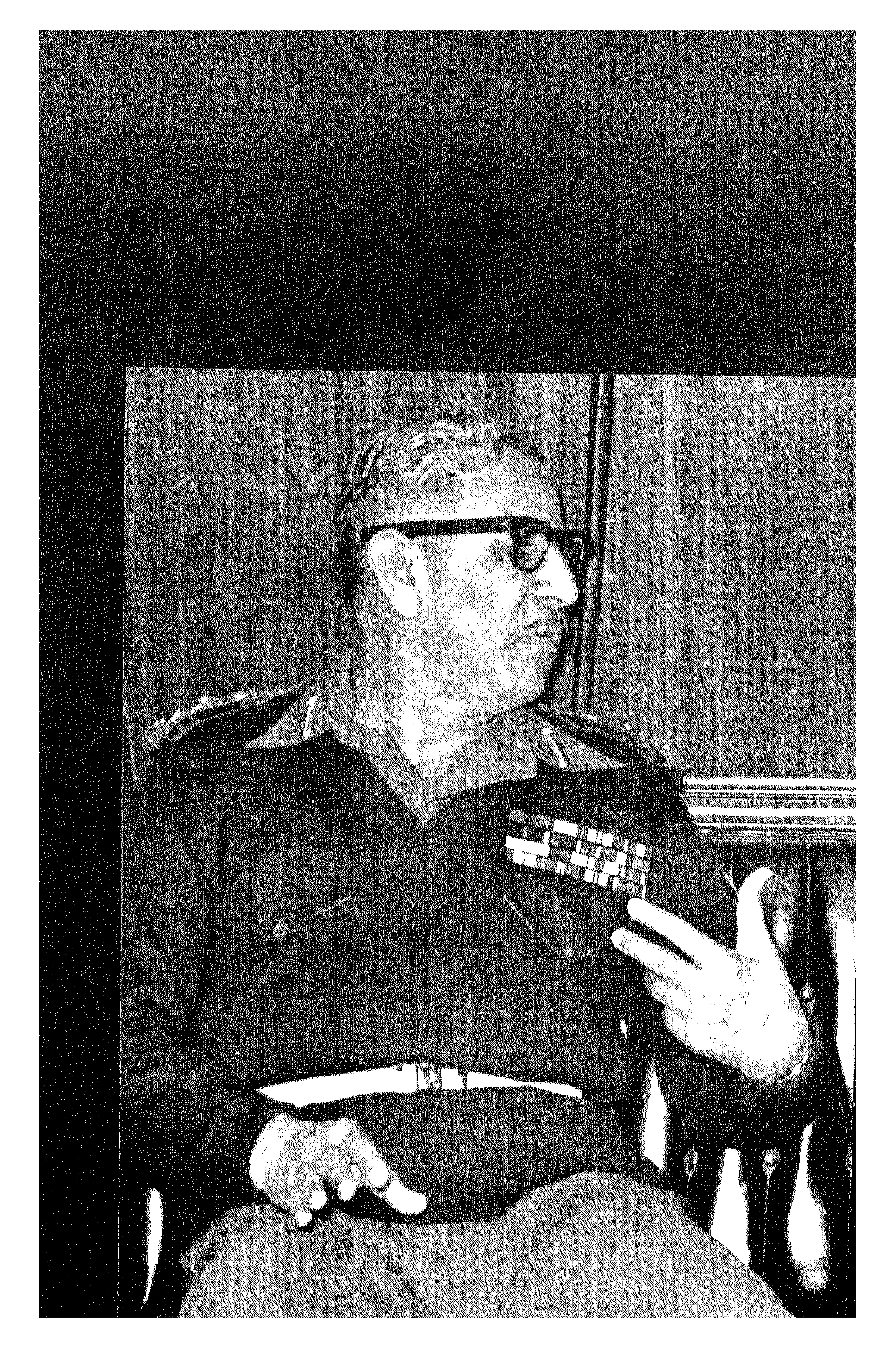
وضحك من قلبه وهو يقول :

ـ لك الحق ... ألم أقل لك من بداية لقائنا إنني أتلقى أوامري من امرأتين زوجتي في البيت ... ورئيسة الوزراء في المكتب ؟ ! » .



الجنرال تيكا خان ... الجنرال الذي انهزم .

... وَالجنرال الذي انهزَم



لقد حرصت على لقاء القائدين اللذين وضعتهما الظروف وجهاً لوجه في حرب شبه القارة الهندية لأسباب عديدة ، آخرها وليس أولها هو تقصي حكاية تلك الحرب ووقائعها . أما أولها فهو دراسة نموذج عملي في الحرب المحدودة ، جرى في ظل الظروف العالمية المتغيرة وموازينها الجديدة .

كان من ذلك سعيي في دلهي لمقابلة الماريشال مانيكشو القائد الهندي الذي كان النصر في تلك الحرب من نصيبه [وقد قدمت حديثي معه في الأسبوع الماضي . . .]

. . . وكان من ذلك سعيي في روالبندي لمقابلة الجنرال تيكا خان القائد الباكستاني الذي كانت الهزيمة في تلك الحرب من نصيبه [ولقائي معه هو موضوع هذا الحديث] .

وربما كان الافتراض الذي يقفز إلى الذهن من أول لحظة ، هو أن حكاية الجنرال تيكا خان تكرار عكسي لحكاية الماريشال مانيكشو !

أي أن صورة الهزيمة الباكستانية هي الجانب الآخر من صورة النصر الهندي .

أو أن ما فعله الماريشال مانيكشو وانتصر به ، هو ما لم يفعله الجنرال تيكا خان وانهزم بسببه .

ولكن ذلك الافتراض الذي يقفز إلى الذهن من أول لحظة ، يحوي تبسيطاً زائداً عن الحد . . . وربما مخلاً .

ذلك أن أسباب هزيمة أي طرف ليست هي بالضرورة أسباب انتصار طرف ثان ، كما أن حجم الخسائر التي تلحق بفريق ليست هي بالضبط حجم الغنائم التي يحصل عليها فريق آخر !

إن ذلك لا يعني عدم وجود صلة على الإطلاق بين أسباب النصر هنا ، وأسباب الهزيمة هناك . . .

توجد بالتأكيد صلة . . . أو صلات ، ولكنه من باب التعسف أن نمد التطابق بالتعارض من أول الخط إلى آخره .

وفي حالة الصراع الهندي ـ الباكستاني ، فربما كانت أبرز الصلات بين النصر والهزيمة في نقطتين هامتين :

١ ـ كانت هناك في الهند حكومة تقود الصراع ، وهي ممثلة تمام التمثيل لإرادة شعب الهند ، وفي باكستان كانت الحكومة التي تقود الصراع لا تمثل إلا عصا السلطة ـ ومدفعها في بعض الأحيان ـ وقصارى ما تستطيع أن تثيره في جماهيرها هو شحنات من غرائز الخوف والحقد والغضب والانتقام .

٢ ـ وكان في الهند ، على مستوى القيادة ، فكر سياسي مستنير ، وفي باكستان ، على مستوى القيادة ، فقد كان هناك إعتام شبه كامل وظلام .

بعد ذلك تختلف الصورة ، وتختلف العوامل ، وتختلف الأسباب .

* * *

كان موعدي في الصباح الباكر مع الجنرال تيكا خان .

وكان مكان اللقاء مكتبه في مقر القيادة العليا للجيش الباكستاني في روالبندي .

وسار بي ياوره العسكري من باب القيادة إلى غرفة القائد .

غرفة واسعة ، جدرانها مغطاة بالخشب ، ما عدا جانباً منها في مواجهة المكتب مباشرة تغطيه خريطة ملونة لشبه القارة الهندية ، والأضواء في الغرفة هادئة . والمقاعد من طراز حديث مريح ، والأرضية كلها مكسوة من الحائط إلى الحائط ببساط رمادي اللون ، وهنا وهناك على المكتب وعلى الموائد رموز وإشارات : دروع أسلحة ... نماذج دبابات ... سيوف من الذهب معلقة فوق بعضها .

وكان الجنرال « تيكا خان » واقفاً وسط الغرفة وبجواره جنرال آخر تذكرت من صور رأيتها أنه « الجنرال رحيم خان » وهو رئيس هيئة أركان حرب الجيش الباكستاني ، وكان رفيقاً للجنرال تيكا خان وزميلاً له أيام الأزمة وبعدها .

كان الجنرال « تيكا خان » صورة دقيقة للعسكرية الباكستانية التي تأتي معظم قياداتها العليا من قبائل الباتان في إقليم الحدود الشمالية الغربية ، الذي حولته أقاصيص ممر خيبر وكتابات الشاعر الإنجليزي العظيم رديارد كيبلنج إلى منطقة أسطورية .

كان يرتدي بنطلوناً من الكاكي الفاتح وقميصاً من نفس اللون ، وفوق القميص بياقته المفتوحة بلوفر من الصوف الكاكي أثقل في لونه من البنطلون والقميص ، وكانت شارات وعلامات الرتب حمراء وذهبية تلمع على كتفي البلوفر.

وقلت للجنرال تيكا خان ونحن نجلس جنباً إلى جنب على أريكة من الجلد في صدر القاعة ، وبجانبي من الناحية الأخرى الجنرال رحيم خان :

ـ لقد كنت حريصاً على أن ألقاك وأسمع منك » .

وقال الجنرال تيكا خان بلهجة تحمل نبرة أسى :

ـ لا بد أنهم صوروني لك على نحو مخيف ... قالوا عني مرة إنني « سفاح بنجلاديش » ، وقالوا مرة إنني « جلاد بنجلاديش » ، ثم إنهم في النهاية طالبوا برأسي « كمجرم حرب » ! » .

واستطرد :

ـ ألم تسمع ذلك كله عني ... ألم تسمع بعضه ؟ »

قلت :

ـ ليس ذلك مهماً ... المهم ما سوف أسمعه منك ... إنني علقت رأيي حتى تتاح لي فرصة أن ألقاك » .

ومضى هو يقول :

ـ لقد ألصقوا بي ذلك كله وأكثر منه .... »

وقلت :

ـ جنرال تيكا خان . . . دعني أقل لك إن التاريخ مخرج عبقري . . . يوزع أدوار مآسيه على الناس ، بصرف النظر عن طبعائهم .

في أحيان كثيرة لا تكون هناك علاقة بين الدور وبين من يمثله .

أعرف فنانين تخصصوا في أدوار الملائكة وليس في قلوبهم شعاع نور ، وأعرف فنانين تخصصوا في أدوار الشر ، وطبائعهم أبعد ما تكون عنـه .

التاريخ مخرج عبقري في توزيعه للأدوار على الممثلين .

وتطلع إلي الجنرال تيكا خان لا يعرف على أي نحو يكيف ما قلت . وأخرجه من حيرته على أي حال طابور من حراس القيادة من جنود البنجاب بملابسهم التقليدية المهيبة ، دخلوا إلى الغرفة ليقدموا القهوة والشاي مع قطع من البسكويت الإنجليزي . . .

* * *

قال الجنرال تيكا خان :

ـ إنني أعرف ما تريد أن تسألني فيه . . . إن الرئيس بوتو اتصل بي أمس تليفونياً ، وطلب إلي أن أروي لك كل شيء كما رأيته ، ولهذا فإنني سوف أوفر عليك الأسئلة ، وأروي لك القصة كما عشتها ، وبعدها تستطيع أن تسألني في أي تفصيل » .

واستطرد تيكا خان وهو ينظر إلى ساعته :

ـ ليس لدينا فيما أرى وقت طويل . . . الساعة الآن الثامنة والنصف . ولديك موعد مع الرئيس بوتو في الحادية عشرة في القصر الجمهوري . وهو على بعد خمس دقائق بالسيارة من هنا ، ولكني أريدك في النهاية

أن تذهب معي إلى قاعة السينما لكي ترى فيلماً تسجيلياً التقطناه لوقائع الحرب في بنجلاديش . . . إن الفيلم طويل ، ولكنك تستطيع أن تحس بما فيه من ربع الساعة الأول فقط . . . ربع ساعة في قاعة السينما فقط قبل أن تذهب لموعدك مع الرئيس . . .

الوقت المتاح لنا إذن لا يزيد عن ساعتين ، وعلي أن أقول لك فيه كل شيء وأترك لك في النهاية فرصة لتستوفي ما تشاء . . . »

وراح الجنرال تيكا خان يتحدث . . . ويتحدث . . . ويتحدث .

وكنت أسمع . . . وأسمع . . . وأسمع .

لم أتدخل في سياق حديثه على الإطلاق إلا مرتين أو ثلاثاً بأسئلة سريعة ، قصدت بها استجلاء نقط محددة ، أتأكد بواسطتها من استنتاج أحسست به مبهماً في بداية الحديث ، وعند نهايته كان هذا الاستنتاج قد بلغ حد اليقين .

* * *

كان الاستنتاج الذي أحسست به مبهماً في بداية الحديث ، وبلغ حد اليقين في نهايته هو : أن الجنرال تيكا خان ، سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وضع في ظرف تقطعت كل صلة بينه وبين إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث . . .

أحسست بذلك في بدايات الحديث .

. . . وبينما كان الجنرال تيكا خان يتحدث ويتحدث ويتحدث ، وبينما كنت أسمع وأسمع وأسمع ـ كانت مقاييس إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث ترد إلى ذهني واحداً بعد الآخر ، وكان كل

تفصيل في رواية الجنرال يجيء في مكانه وينسجم فيه بسرعة كما لو أن حديثه كله كان تدريباً عملياً في الأخطاء السياسية القاتلة .

ولعله من هنا أنني أختار أسلوباً يبدو مستحدثاً في عرض رواية الجنرال تيكا خان :

ذلك أنني سوف أثبت بعض القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث ، ثم أضع بعدها أقوال الجنرال تيكا خان ، فيما جرت به التصرفات الفعلية على أرض الأزمة والصراع والقتال المسلح في بنجلاديش ، ثم أضغط خفيفاً على التناقض بين ما كان فعلا ، وبين ما كان يجب أن يكون ، لو أن قواعد إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث روعيت ، أو حتى وضعت في الاعتبار !

أولاً :

* * * تقول أهم قواعد إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث ، إن أول شيء يجب أن نفعله هو أن نحسن تعريف وتحديد أي مشكلة أو أزمة يكون علينا مواجهتها .

إن التعميم في مواجهة المشاكل والأزمات خطأ وخطر .

والإبهام في مواجهة المشاكل والأزمات خطأ وخطر .

إن بعضنا يتصور بمجرد انطباعاته العامة أنه يعرف المشكلة أو الأزمة التي يواجهها ، ولكن الانطباعات العامة شيء ،.والتعريف والتحديد بمنتهى الدقة شيء آخر ، وكثيراً ما يعطي التعريف والتحديد بمنتهى الدقة نتائج تختلف اختلافاً كبيراً وفادحاً عما توحي به الانطباعات العامة التي تدور في رأس أي واحد منها .

إن التعريف والتحديد بمنتهى الدقة يجب أن يكون عملاً علمياً

خالصاً ، يستوعب أصول وجذور المشكلة أو الأزمة التي نواجهها ، ويرصد حركتها الراهنة ، ويمد بصره إلى اتجاهاتها المستقبلية ، على ألّا ينسى طوال الوقت تفاصيل الوقائع أو المزاج النفسي لأبطالها.

. . . . . .

. . . . . .

ـ يقول الجنرال تيكا خان :

ـ يوم ٦ مارس سنة ١٩٧١ استدعاني الجنرال يحيي خان رئيس الدولة في ذلك الوقت وأبلغني قراره بتعييني حاكماً عاماً للباكستان الشرقية ـ بنجلاديش فيما بعد ـ وتعييني قائداً عسكرياً للقوات الباكستانية بها في نفس الوقت .

ويوم ٧ مارس وصلت إلى داكا ، عاصمة الإقليم الشرقي .

كان وصولي في نفس اليوم الذي أعلن فيه الشيخ مجيب الرحمن زعيم حزب عوامي ليج ـ عصبة الجماهير ـ الإضراب الشامل في كل أنحاء باكستان الشرقية .

وفوجئت عندما وجدت كل شيء معطلاً ، من مكاتب الحكومة إلى دور المحاكم .

كان الشيخ مجيب قد عقد عدة اجتماعات شعبية ، وأصدر فيها قرارات تشكل كلها عصياناً للسلطة وتمرداً عليها .

إلى جانب أمره بالإضراب الشامل ، فإنه أصدر أمرين آخرين ، أولهما بعدم التعاون معنا على الإطلاق ، والثاني برفع الأعلام السوداء .

وكان ذلك غريباً .

وفي مساء ٧ مارس استدعيت السكرتير الأول للحكومة المحلية واستدعيت أيضاً مفتش البوليس وأبلغتهما بدعوة الشيخ مجيب الرحمن إلى مقابلتي في بيت الحاكم العام ، وأبلغاه الدعوة ، ولكنه رفض ، لأنه لا يريد أن يذهب إلى بيت الحاكم العام ، وقلت لهما :

ـ أبلغاه أنني لم أتول بعد منصب الحاكم العام ، لأنني لم أقسم اليمين أمام قاضي القضاة ، وبالتالي فإن بيتي ليس بعد بيت الحاكم العام ، ولكنه بيت الدولة الباكستانية .

ولكن الشيخ مجيب رد برفض المجيء إلى بيت الحاكم العام ، واقترح بدلاً من ذلك أن أذهب إليه في بيته إذا كنت أريد أن ألقاه ، وكان تبريره لذلك أنه زعيم الشعب المنتخب .

وقلت لهما أبلغا « مجيب » أن بيته صغير لا يتسع لاجتماع كبير وأنا مستعد على أي حال بدلاً من بيتي أو بيته ـ أن أجتمع به في مقر الجمعية الوطنيـة .

ومرة أخرى رفض الشيخ مجيب ، وأصر على موقفه .

كان متعنتاً بشكل غريب .

وصرفت النظر عن لقائه ، وطلبت من السكرتير الأول للحكومة ترتيب إجراءات أدائي لليمين كحاكم عام لباكستان الشرقية ، وكان ذهولي شديداً عندما جاءني السكرتير الأول للحكومة يقول :

ـ إن قاضي القضاة لا يستطيع حضور مراسم أداء اليمين ، لأنـه مضطر إلى التقيد بالإضراب العام الذي دعا إليه الشيخ مجيب . . . وربما كان خائفاً على حياته ؟

كيف يمتد الإضراب إلى قاضي القضاة ؟ . . . هكذا لم أستطع أن

أؤدي اليمين ؟ . . . هكذا لم أستطع أن أتولى قانونياً سلطات الحاكم العام للإقليم . . . وبدأت أتجه إلى ممارسة منصبي الآخر كقائد عام للقوات فيه .

وحينما التفت إلى الناحية العسكرية ، وجدت أننا كالعميان في الإقليم الشرقي ، وجاءني المسئولون عن القسم المخصوص ـ البوليس السياسي ـ وعن المخابرات يقولون لي إن الناس يرفضون التعاون مع رجالهم ومدهم بأية معلومات .

كنا كالعميان تماماً إلا حيث توجد لنا حاميات عسكرية في ثماني مناطق : داكا ـ شيتاجونج ـ كوميلا ـ سيليت ـ جيسور ـ خولنـا ـ رانجبور ـ رانشاي .

كنا في ظلام كامل مما يجري . . . إلا حيث كانت لنا قوات وكان هذا شيئاً لا يمكن قبوله . . . لم يحدث من قبل . . . ولا يمكن السماح بـه . . .

وبعثت بتقرير أولي إلى الجنرال يحيى خان وتلقيت منه إشارة بأنه سوف يجيء بنفسه إلى داكا وعلي أن أمهد لمفاوضات بينه وبين الشيخ مجيب الرحمن ، ولكن كيف أمهد لمفاوضات بين رئيسي وبين رجل لم يأت لمقابلتي ، ثم هو يحرض على العصيان كما أنه يحرض على مقاطعة قواتي لدرجة أنه أصدر بياناً يمنع تزويدنا بالخضر فاستعضنا عنها بالمعلبات ، وأصدر أمراً للغوغاء يقول فيه :

« استمعوا إلى أوامري ولا تنفذوا أوامر القائد العام واجعلوا من كل بيت قلعة » .

إن ذلك الموقف أدى إلى اشتباكات خصوصاً في ميناء شيتا جونج

لأن عمال تفريغ الميناء استمعوا إلى أوامر الشيخ مجيب ورفضوا تفريغ البواخر» .

قلت للجنرال تيكا خان :

ـ مجرد ملاحظة سريعة هنا ... أظن أن البواخر التي امتنعوا عن تفريغها كانت تحمل إمدادات عسكرية من غرب الباكستان إلى شرقها» .

وقال الجنرال تيكا خان :

ـ لم نكن قد حركنا أية قوات في ذلك الوقت من الغرب إلى الشرق ... كانت هناك وحدات وضعت تحت الإنذار ولكنها لم تكن قد صعدت إلى بواخر النقل .

كانت الباخرة التي سببت المشكلة والاشتباك باخرة اسمها « سوارت » وكانت تحمل شحنة من المدافع ، وظلت شهراً كاملاً حتى من قبل أن أصل أنا إلى داكا بدون تفريغ ... وهددت الشركة صاحبة الباخرة بعودتها بشحنتها إلى كاراتشي وأصدرت أوامري للضابط المسئول عن الميناء بأن يستخدم قواته لتفريغ شحنة المدافع ، وإذا بالشيخ مجيب الرحمن يأمر رجاله باعتراض إفراغ الشحنة .

ووقع الاشتباك بين قواتنا وبين رجال الشيخ مجيب .

وفي ذلك الجو وصل الرئيس يحيى خان إلى داكا ليتفاوض مع الشيخ مجيب وكان الإضراب شاملاً وأسوأ من ذلك أن صحف الشيخ مجيب بدأت تتهجم على الجيش الباكستاني وشكوت للجنرال يحيى خان وقال لي :

ـ إننا نتفاوض ويجب أن نحتفظ بهدوء أعصابنا .

ولم أكن مشتركاً في المفاوضات ولكن استفزازات الشيخ مجيب كانت تزيد كل يوم عن حدها ...

اتخذوا قراراً بإعلان قيام بنجلاديش ورفع أعلامها .

حتى التليفزيون فوجئت عندما قالوا لي إنه عرض علم بنجلاديش ... وأرسلت قوة إلى هناك وقلت إننا سوف نغلق المحطة كلها إذا عرض علم بنجلاديش .

لم تصل المفاوضات إلى نتيجة .

وأبلغني الجنرال يحيي خان بأن أكون على استعداد لفرض الأمن والنظام .

وطلبت إلى رجالي أن يكونوا على استعداد وكان أهم ما يجب حمايته من وجهة نظري هو منشآت الاتصال اللاسلكي ومخازن أسلحة الجيش ومخازن البوليس .

كان يوم ٢٤ مارس هو اليوم الذي صدر لي فيه الأمر بالتدخل على أن أبدأ العمل مع أول ضوء يوم ٢٥ مارس .

وحدث شيء غريب .

كانت هناك وحدة من قواتنا مشتركة ... فيها جنود من البنجاب من الغرب ؛ وجنود من البنغال من الشرق ... الجنود البنغاليون تمردوا في الليل واغتالوا قائدهم واحتلوا مواقع رئيسية وحاولوا منها منع وحداتنا الأخرى من التقدم .

كان ذلك بالتأكيد بأمر من الشيخ مجيب » .

. . . . . .

* * * يقول تطبيق الوقائع على القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إن الخطأ الذي وقع فيه الجنرال تيكا خان ـ قيادته السياسية قبله ـ وجره بعد ذلك إلى الخطر ، أنه لم يستطع تعريف وتحديد المشكلة أو الأزمة التي وجد نفسه أمامها :

* لم يعرف ـ برغم أن كل شيء كان ظاهراً أمامه وواضحاً ـ أنه يواجه ثورة شعبية كاملة .

* لم يعرف أن لهذه الثورة طموحاً قومياً له جذوره وله أسبابه .

* لم يعرف أن لهذه الثورة قيادة لها حقوق الطاعة على جماهيرها ابتداء من قاضي القضاة إلى عامل التفريغ في الميناء .

هكذا بغير تعريف وتحديد للمشكلة أو الأزمة فإن الذين يتولون العلاج يجدون أنفسهم ـ حتى مع منتهى حسن النية ـ يعطون دواء لداء لم تظهر أعراضه ولم توجد جراثيمه ، بينما الداء الحقيقي لا يجد دواء يستجيب له بالشفاء !

ثانياً :

* * * تقول القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إنه في مواجهتنا لأي صراع فإن علينا أن نعد بحساب لا يدركه الخطأ جميع الأطراف المشتركين فيه مباشرة أو المهتمين به .

وعلينا أن نحسب ما هي دواعي اهتمام هؤلاء الأطراف جميعاً ، وما هي مطالبهم من الصراع ، وما هي قدراتهم على التدخل فيه ؟

. . . . . .

. . . . . .

يقول الجنرال تيكا خان :

ـ لقد كان لا بد أن نتدخل بقوة .

تدخلنا في داكا للسيطرة على العاصمة .

وابتعدنا عن شيتا جونج لأن نسبة التفوق لرجال الشيخ مجيب على رجالنا فيها كانت عشرين إلى واحد .

لكن إمدادات بدأت تجيء إلينا من باكستان الغربية ... وفي أول أبريل تدخلنا واستعدنا السيطرة على شيتا جونج .

وبدأنا نواجه نوعاً من حرب العصابات وكنا نرتب أمورنا عليه ...

ولكن الموقف ساء بعد أن أعلن راديو عموم الهند ذات صباح :

ـ أنه لا توجد حدود بين الهند وبنجلاديش وعلى اللاجئين من باكستان الشرقية أن يبدأوا طريق العودة إليها .

وبعد ساعات كان أكثر من سبعين ألفاً من البشر يتدفقون عبر الحدود ويهاجمون مواقعنا .

وكان الجيش الهندي يدعم هذا الطوفان من البشر ، بل إن الجيش الهندي فعل أكثر من ذلك لأنه بعث بجماعات من مهندسيه تسللوا مع رجال الشيخ مجيب فنسفوا الكباري الرئيسية وخطوط السكك الحديدية لكي يحرموا قواتي من ميزة الحركة ...

إن ما فعلوه أدى إلى كوارث في وصول المؤن حتى إلى السكان المدنيين .

أصبح الموقف يتدهور كل يوم .

كان واجبنا واضحاً وكنا نحاول أن نؤديه في ظروف مرهقة .

ولكن الآخرين كانوا جميعاً أطرافاً في مؤامرة واحدة علينا .

كانت مؤامرة تضم الهنود والسوفيت والبريطانيين والأمريكيين أيضا . . . .

وبدأوا يملأون العالم بدعايات ضدنا .

. . . . . .

. . . . . .

* * * يقول تطبيق الوقائع على القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث ، إن القيادة الباكستانية ـ والقيادة السياسية هي التي أقصدها هنا وليس الجنرال تيكا خان ـ لم تستطع أن تعد بحساب لا يدركه الخطأ جميع الأطراف المشتركين في الصراع الدائر على بنجلاديش أو ما هي مطالبهم من الصراع ، أو ما هي قدراتهم على التدخل فيه ؟

كان لا بد من عد الهند أولاً كطرف مهم : دواعيه إلى ذلك نزاعه مع باكستان ، ثم عبء تدفق اللاجئين عليه ، ثم شعور التضامن بين الأمة البنغالية في شرق الباكستان وشرق الهند أيضاً .

وكان لا بد من عد الاتحاد السوفيتي كطرف مهم : ودواعيه إلى ذلك حركة الصراع الصيني ـ السوفيتي في آسيا ، ووقوف الاتحاد السوفيتي في ذلك الصراع تأييداً للهند وتحدياً للصين .

وكان لا بد من عد الولايات المتحدة كطرف أقل أهمية ولكنه موجود : دواعيه إلى ذلك أنه يريد الاستفادة من الصراع الصيني السوفيتي .

وحتى بريطانيا لا يمكن إغفالها كطرف : ولو بتأثير علاقاتها التقليدية ومصالحها القائمة مع شبه القارة الهندية .

لم ير النظام الباكستاني إلا ما تحت قدميه .

وكانت هذه من ضمن أسباب المأساة .

ثالثاً :

* * * تقول القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إن الجو العالمي المحيط بأي صراع شديد التأثير في نتيجته ، بل إن هذا الجو ـ مضافاً إلى ما سبق من قواعد ـ يجعل نتيجة الصراع محققة حتى قبل أن تنتهي المعارك العسكرية .

. . . . . .

. . . . . .

يقول الجنرال تيكا خان :

ـ نتيجة للدعايات التي وجهها أطراف المؤامرة جميعاً ضدنا أن العالم كله بدأ يتحدث عن مذبحة لم يسبق لها مثيل في بنجلاديش .

قالوا إن عدد القتلى وصل إلى ثلاثة ملايين .

مثل هذا مستحيل عملياً . . . كيف كان يمكن لجيش مشغول بالدفاع عن نفسه ، وخطوط مواصلاته معرضة للخطر ، أن يقتل ثلاثة ملايين .

حتى رقم مليون واحد مبالغ فيه . . .

حتى رقم مائة ألف مبالغ فيه . . .

إنني قدمت تقريراً بعد الحرب ، وكان تقديري أن عدد القتلى لا يزيد عن عشرة آلاف عندما تركت داكا ولو تجاوزنا لوصل هذا العدد إلى ثلاثين ألفاً عند نهاية الحرب .

قالوا أيضاً إن هناك ٢٠٠ ألف حالة هتك عرض .

ماذا كان يفعل جنودي ؟ ذلك شيء لا يعقل !

إن هناك بعثة كاثوليكية أجرت تحقيقاً ونشرت تقريراً قالت فيه إن عدد حالات هتك العرض وصل إلى أربعة آلاف وهذا الرقم أيضاً غير صحيح .

لا يمكن أن يزيد الرقم عن أربعين وهذه مسألة عادية ... شيء غير مقبول ولكنه يحدث .

ولقد أمضيت أربعين سنة في الخدمة العسكرية وأنا أعرف أن الاغتصاب جريمة ... كما أنني مسلم وأعرف أنه في الإسلام أكثر من جريمة ، ولم أكن لأسمح به وقد أجريت تحقيقات في بعض ما وصل إلي من وقائع ، وأمرت الجنرال زمان وهو الآن سجين في داكا ، بإعدام مرتكبي هذه الحوادث رمياً بالرصاص .

لكن الصحافة العالمية ظلت تتجاهل الوقائع وظلت مصرة على ترديد الأكاذيب .

كانوا جميعاً شركاء مؤامرة ضدنا . لقد أعطوا لبنجلاديش عطفاً عالمياً هائلاً ، وفي حماية هذا العطف تقدم آخرون لمساعدة العصاة فيها دون اعتبار لأي شيء .

في نفس الوقت شغلونا بالدفاع عن أنفسنا ... لم نكن ندافع عن

سلامة الدولة فقط ، ولكننا كنا ندافع عن سمعة باكستان وأخلاقياتها
كانوا يريدون لنا العار إلى جانب الهزيمة . »

. . . . . .
. . . . . .

** يقول تطبيق الوقائع على القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث . . . إن الجو العالمي المحيط بأي صراع له تأثير كبير ليس على مجراه فقط ، ولكن على نتيجته أيضاً .

وحتى لو كان عدد القتلى كما يقول الجنرال تيكا خان ثلاثين ألفاً وحتى لو كانت حوادث هتك العرض أربعين . . .

حتى لو كان ذلك كله ـ وكله قابل للمناقشة الطويلة ـ فإنه أعطى للأطراف الأخرى في الصراع مع باكستان لون المذبحة ، وكان هذا اللون الكئيب من عوامل هزيمة الباكستان ، ولم يكن أقل في أثره من العامل العسكري البحت .

إن هناك عنصرين لهما تأثير كبير في السياسة الحديثة :

* الوقائع كما حدثت فعلاً على الطبيعة وفي الحقيقة .

* والوقائع كما يمكن تصويرها للعالم حتى إن بدا التصوير مغايراً بعض الشيء لما حدث على الطبيعة وفي الحقيقة .

ما حدث فعلاً : حقيقة تاريخية .

وصورة ما حدث أمام الآخرين : واقع سياسي له نفس قوة الحقيقة التاريخية حتى إن لم يكن مطابقاً لها تماماً .

إن الحرب النفسية لا توجه إلى دولة من الدول على جبهتها فقط ، ولكن الحرب النفسية توجه إلى دولة من الدول على جبهة بعرض العالم كله ... وهذه هي النقطة الحرجة في الحرب النفسية لأنها تحاصرها بجو معين لا تستطيع بسهولة أن تفلت منه .

رابعاً :

* * * تقول القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إنه إزاء أي مشكلة أو أزمة ، فإن أول شيء لا بد من تحديده هو الهدف المطلوب تحقيقه ، وهذه نقطة فاصلة في الوصول بأي صراع إلى النصر أو إلى الهزيمة .

. . . .

. . . .

يقول الجنرال تيكا خان :

* لقد كنا نتصرف في حدود حقنا الشرعي في صيانة وحدة الباكستان في الشرق والغرب .

ولقد كانت الأوامر الصادرة إلي تقضي بالمحافظة على الأمن والنظام .

ولكن الشيخ مجيب الرحمن وحزب عوامي ليج وراءه جعلوا هذه المهمة مستحيلة .

إنهم يقولون إن غرب الباكستان يستغل شرقها ويعيش على حسابه .

ولقد أدخلوا هذا الادعاء في تفكير البسطاء من البنغاليين وهذا ليس صحيحاً ...

هل تعرف ماذا كانت داكا قبل باكستان ؟

كانت قرية صغيرة لم يسمع باسمها أحد وهي الآن عاصمة » .

. . . .

. . . .

* * * يقول تطبيق الوقائع على القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث ، إننا لا نستطيع أن ننظر إلى التاريخ كحادثة بوليسية . . . بل إن العلم الحديث يرد الجريمة نفسها إلى جذور اجتماعية ونفسية .

وبالتالي فإن منطق فرض الأمن والنظام في غيبة من التاريخ يصبح غيبوبة سياسية لا تعرف لنفسها هدفاً يمكن تحقيقه .

ولقد كان في الإمكان حقن دماء كثيرة لو أن الهدف كان واضحاً أمام النظام الباكستاني .

بل لقد كان في وسع النظام الباكستاني أن يحتفظ بوحدة الباكستان في الشرق والغرب لو أنه استطاع أن يرى لنفسه هدفاً في الشرق أبعد من هدف حفظ الأمن والنظام .

لو أن الهدف كان الاعتراف بالحقوق الشرعية للقومية البنغالية في إطار الوحدة السياسية لباكستان لتغير مجرى التاريخ .

خامساً :

* * * تقول القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إنه بعد تحديد الهدف المطلوب تحقيقه في أي مشكلة أو أزمة ـ فإن الدور يجيء على اختيار الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف .

. . . .

. . . .

يقول الجنرال تيكا خان :

ـ إنهم لم يتركوا لنا مجالا إلا استعمال القوة العسكرية . وربما وقعنا في بعض الأخطاء . ولكن أحداً لم يعطنا طريقاً بديلاً نسلكه » .

. . . .

. . . .

* * * ويقول تطبيق الوقائع على القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي . إن القوة العسكرية ليست الوسيلة الكفيلة بصيانة الوحدة الوطنية .

إن استعمال القوة المسلحة لصيانة وحدة الوطن . أو لمحاربة أعدائه ممكنة ، بل قد تكون ضرورية في بعض الظروف . ولكن ذلك لا بد له لكي يصل إلى ما يريد . أن يتم في ظل اشتراطات تفرضها طبيعة العصر . وهذا وحده بالنسبة لها أولى ضمانات النصر .

سادساً :

* * * تقول القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إنه بعد اختيار الوسائل الكفيلة بتحقيق الهدف فإنه من الضروري التأكد من كفاية هذه الوسائل على تحقيقه .

. . . .

. . . .

يقول الجنرال تيكا خان :

* * * لم تكن تحت تصرفي القوات الكافية للسيطرة في الداخل على

التمرد الذي دعا إليه مجيب الرحمن ، ولا كانت تحت تصرفي القوات الكافية لمواجهة الاستفزازات التي تعمدتها الهند » .

. . . . . .

. . . . . .

*** ويقول تطبيق الوقائع على القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث ، إن النظام الباكستاني كان عليه أن يتأكد من حساب قواته بالقياس إلى قوات أعدائه .

إن القوة المسلحة يجب ألاّ تستخدم في مناورة سياسية . . . وإنما يمكن أن تستخدم القوة المسلحة لتحقيق هدف سياسي .

يضاف إلى ذلك اعتبار آخر :

قد يكون إقدام النظام الباكستاني على استخدام القوة المسلحة خطأ .

ولكن العجز عن استعمالها لتحقيق الهدف ـ بعد اتخاذ القرار ـ جريمة .

أي أن الخطأ في اتخاذ قرار يمكن أن يغتفر . . .

ولكن الفشل في تنفيذه ـ بصرف النظر عن الصواب والخطأ ـ لا يمكن اغتفاره مهما كانت الظروف .

سابعاً :

*** تقول القواعد في إدارة وممارسة الصراع السياسي في العصر الحديث إنه بعد تحديد الهدف ، واختيار الوسائل ، والتأكد من كفاية هذه الوسائل ـ فإن مقدرة المكلفين بالتنفيذ تلعب دوراً أساسياً .

مقدرة المكلفين بالتنفيذ هي المصدر للقرار الصادر بالتنفيذ .

. . . . . .

. . . . . .

يقول الجنرال تيكا خان :

ـ لقد كانت التجربة كلها محنة مروعة . . . إنني لم أبق في داكا إلى النهاية ، وإنما تركت المسرح هناك لمساعدي الجنرال نيازي » .

. . . . . .

. . . . . .

* * * وأعترف ـ بكل تعاطفي مع شعب بنجلاديش ـ أنني لم أشعر لحظة طوال حديث ممتد مع الجنرال تيكا خان بأي إحساس عدائي ضـده .

أكاد أقول العكس .

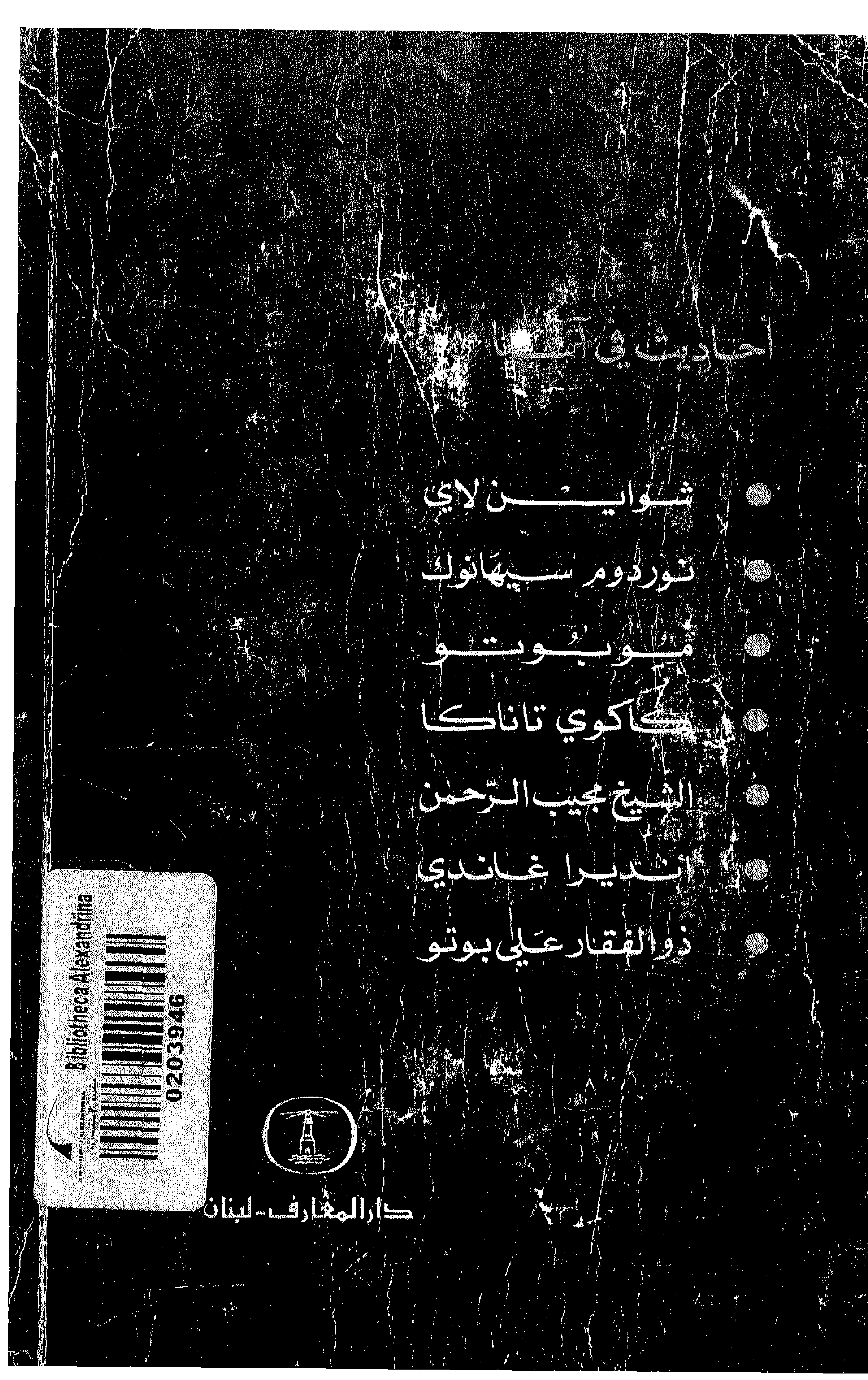
لقد روى الرجل قصة التجربة التي عاشها كما رآها ، وكان صادقاً في وصف ما رأى .

ولم تكن المسئولية في صميم الأمر عليه ، وإنما كانت المسئولية في صميم الأمر على غيره ، لم تكن أمامه بما فعل هو . ولكنها كانت وراءه بما صدر إليه من قرار .

لم يكن هو صانع المأساة الكبرى ، وإنما كان دوراً من أدوارها .

ولم يكن هو الذي اختار لنفسه دوره ، وإنما كان الاختيار بيد مخرج عبقري اسمه التاريخ ! !

مطابع الشروق ـ بيروت



أحاديث في آسيا
شواين لاي
نورودوم سيهانوك
موبوتو
كاكوي تاناكا
الشيخ مجيب الرحمن
أنديرا غاندي
ذو الفقار علي بوتو
دار المعارف - لبنان

Bibliotheca Alexandrina
02203946